السلسلة المشتركة للبحوث والمصادر
في تاريخ الجزيرة العربية
وبلدان الخليج
رقم (٣)

الإنكشاريون

في الإمبراطورية العثمانية

إيرينا بيتروسيان

تقديم ومراجعة
قسم الدراسات والنشر بالمركز



معهد الدراسات الشرقية
المجمع العلمي الروسي
(فرع سان بطرسبرغ)



مركز جمعة الماجد
للثقافة والتراث
دبي

السلسلة المشتركة للبحوث والمصادر
في تاريخ الجزيرة العربية وبلدان الخليج
رقم(٣)

الإنكشاريون

في الإمبراطورية العثمانية

إيرينا بيتروسيان

تقديم ومراجعة
قسم الدراسات والنشر بالمركز

مركز جمعة الماجد
للثقافة والتراث - دبي

معهد الدراسات الشرقية المجمع
العلمي الروسي (فرع سان بطرسبرغ)

السلسلة المشتركة

البحوث والمصادر في تاريخ الجزيرة العربية وبلدان الخليج

الإنكشاريون في الامبراطورية العثمانية

المؤلف : إيرينا بيتروسيان

First Publication: Dubai, Juma al Majid Center for Culture and Heritage, 2004.

تقديم

الحمد لله الذي علم بالقلم،علم الإنسان مالم يعلم، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم وبعد:

في إطار التعاون العلمي والثقافي القائم بين مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ومعهد الدراسات الشرقية للمجمع العلمي الروسي فرع سان بطرسبورغ قررت المؤسستان الاشتراك في ترجمة سلسلة من البحوث والدراسات الروسية المتعلقة بالجزيرة العربية، وبلدان الخليج ونشرها، ومن بينها هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم للباحث العربي والمسلم في جميع أنحاء المعمورة، والموسوم بـ :**الإنكشاريون في الإمبراطورية العثمانية - تأليف: إيرينا بيتروسيان.**

وينبغي أن نشير هنا إلى أن ما يرد من الآراء في هذه البحوث والدراسات، لا يعبر عن رأي المركز، ولا اتجاهه، وإنما القصد من التعاون في نشرها تمكين الباحث العربي والمسلم من الاطلاع على وجهة النظر الروسية في تقييمها وتحليلها للقضايا محل الدراسة والبحث، إضافة إلى وجهة النظر الغربية التي يدركها من قبل.

ومثل هذا العمل نعتقد أن له أثرا كبيرا في إثراء الفكر، وتوسيع مجال التفكير والإستنباط، والتمكن من فهم الأمور بشمولية أكبر من ذي قبل، والوصول إلى تفاصيل ما كان لها أن تظهر لولا الله ثم الرأي الآخر المعاكس.

ونحن نأمل أن يتحقق من إصدار هذه السلسلة الغاية والأثر الذي قصده المركز، والمشار إليه أعلاه، خدمة للأمة والإنسانية، وتقريبها من الحقيقة أقصى ما يمكن.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

قسم الدراسات والنشر

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

المقدمة

كثيرًا ما يلقي مؤرخونا الوطنيون والأجانب في مؤلفاتهم ضوءًا على تاريخ الفيلق الإنكشاري وأثر ذلك الفيلق في تاريخ الإمبراطورية العثمانية وتطورها. كان الجيش الإنكشاري دومًا يجذب انتباه المؤرخين، إذ إنه كان جزءًا لا يتجزأ عن تنظيم الدولة العثمانية، وعنصرًا مميزًا لجهازها العسكري، ونجد التشديد على الأهمية العسكرية لجيش المشاة النظامي وصفة تكميله الحالي ودوره في عملية تطور النظام الدولي العثماني. نتيجة تحول الإنكشاريين إلى الحرس البريتوري، في كتاب حول تاريخ تركيا فهي تجذب انتباه المؤرخين ناحية تاريخ الفيلق الإنكشاري إذ إنه كان مثيرًا رئيسيًا للاضطرابات الاجتماعية وكان له تطلعات دكتاتورية واضحة في التنظيم الاجتماعي والسياسي المخالف بأفعاله لصلاحيات السلطة السلطانية العليا، وينظر المؤرخون إلى القضاء على الفيلق الإنكشاري سنة ١٨٢٦ على أنه فعل فاجع أخير من كفاح السلاطنة العثمانيين ضد ذلك الحرس التمردي الخطر، ويمكن أن نعدّ البحث حول دور الفيلق الإنكشاري في تاريخ الدولة العثمانية عامًا وتقريبيًا.

على الرغم من وجود عدد كبير من الكتب العلمية المكرسة لتاريخ الفيلق الإنكشاري، وعدد كبير من الأعمال، حيث يناقش تاريخ الفيلق إلى جانب الكثير من الأحداث والوقائع التاريخية، إلا أنه ليس ثمة أبحاث تناقش تلك المدة التاريخية منذ تأسيس الفيلق وحتى أول محاولة للقضاء عليه، وحيث يعرض تاريخ جيش

المشاة هذا في سياق الحديث حول التطور السياسي العام في الدولة العثمانية، وقد عقدت المؤلفة العزم على تأليف هذا الكتاب ليسد الفراغ والنقص.

وكلي أمل أن ينشر هذا الكتاب ضمن منشورات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث وأن ينال إعجاب القراء العرب.

الفصل الأول ..

تاريخ تأسيس الفيلق الانكشاري

الفصل الأول

تاريخ تأسيس الفيلق الإنكشاري

تمّ تنظيم الدولة العثمانية بداية على أيدي إحدى القبائل الأوغوزية (التركمانية)، التي كانت تتنقل في أقصى الشمال الغربي عند تلاقي السلطان السلجوقي الرومي والإمبراطورية البيزنطية، ويظهر أن هذه القبيلة المتنقلة (وبالأرجح شبه المتنقلة) كانت من ضمن القبائل التركمانية التي كانت ـ بناءً على تقاليد تنظيم الدولة السلجوقية القديمة ـ ترسل إلى المناطق الحدودية، وفي القرن الثاني عشر استمر تسرب مجموعات جديدة من هؤلاء البدو إلى الدولة السلجوقية وكان بعض منها يسكن على الحدود البيزنطية، وكما تفيد بعض الروايات ـ التي تم تسجيلها متأخراً بعد تشكل الدولة العثمانية المبكرة بكثير ـ أن شيخ القبيلة الأوغوزية (التركمانية) إيرتوغرول قد حصل من السلطان القوني علاء الدين على أراض للرعي في منطقة الجنوب.

لقد حفظت الروايات التاريخية اسم شيخ القبيلة ألا وهو إيرتوغرول والد عثمان، ولكن إلى أي قومية كانت تنتمي تلك القبيلة؟ لا نعرف شيئًا عن ذلك، من الجائز أن إيرتوغرول كان مؤسسًا للسلالة الجديدة التي ظهرت بسبب التنقل وتزايد النفوذ الشخصي لشيخ القبيلة «باخادور»، ابنه عثمان فقط هو الذي نسبت إليه سلالة العثمانية، وهو عثمان أوغلو، ومما يدل على أن قبيلة إيرتوغرول لم تكن كثيرة العدد أن عدد خيامهم كان أربعمئة ـ كما تفيد الأساطير ـ منضمة إلى شعب

إيرتوغرول، وبالأرجح لقد كان ذلك توحداً صغيراً للسلالات الباقية من القبائل الأوغوزية المختلفة.

أدى اقتران عاملين على الأقل ـ وهما ضعف سلطة المركز السياسي على المحيط الحدودي للسلطان الرومي نتيجة الغزو المغولي، وذلك حيث كانت عناصر القبائل الرحالة قوية، وانتقال المصالح السياسية والاقتصادية لدى الإمبراطورية البيزنطية الناهضة إلى البلقان ـ على توافر الظروف المواتية لظهور التنظيمات الدولية الفتية المتأثرة كثيراً بتقاليد المجتمع البدوي.

ساعدت العوامل الخارجية على سرعة تنظيم الدولة في المنطقة الشمالية الغربية من أراضي السلطان الرومي التي كانت تنتظر نهايته، فأسرع الأتراك العثمانيون برئاسة البيلك[1] القوي والفتي على استغلال ضعف جيرانهم.

بعد أن حاز عثمان على السلطة العليا بدأ ببذل قصارى جهده ليزيد من سطوة سلطته، ومما ساعد على ذلك انتصارات العثمانيين في غزوهم الأراضي البيزنطية المجاورة، حيث كان عثمان يعود ـ كما تفيد الروايات ـ بغنائم ثمينة.

كانت سلطة عثمان العليا تزداد نفوذاً بفضل نجاح تلك الهجمات التي كان من نتيجتها توسع حدود الإمارة، وهذا ما كان يجلب لحرس عثمان «نوكير» ولجماعات الفرسان غنائم كثيرة، كما اشتهر عثمان بوصفه مجاهداً أو داعية إلى الإسلام بين الطوائف الإسلامية من سكان الأناضول الترك.

كان خوض الحروب بغية الحصول على الغنائم وتوسيع حدود الإبل[2] (الاتحاد القبلي المتشكل الذي كان أشبه بالتنظيم الدولي البدائي) صفة جديرة بحياة المجتمع التركي البدوي في القدم، وفي حقبة القرون الوسطى، كانت النجاحات

---

(١) البيلك: الإمارة.

(٢) الإبل: حدود دولة يحكمها بيك ما.

المادية والسياسية التي ظفر بها شيوخ القبائل تجذب قبائل أخرى من كل الجهات، ويظهر أن هذا ما حدث لعثمان. يحتوي الكتاب «تاريخ أسرة عثمان» من تأليف لطفي باشا، العائد إلى النصف الأول من القرن السادس عشر على وصف مفصل لحادثة مفادها مجيء زعماء وشيوخ العديد من القبائل الأوغوزية المجاورة الذين أبدوا رغبتهم في الخضوع له واقترحوا عليه أنه يصبح خانًا عليهم.

ليس ثمة أسباب مثيرة للشك في أن عثمان قد اتخذ لنفسه هدفًا بالتوسع، فكان يسعى دومًا إلى توسيع حدود بيلكه، ويرى المؤرخون المختصون بتاريخ الإمبراطورية العثمانية أن الهجمات هذه كانت تحكمها عقيدة دينية، هي نشر الإسلام، بيد أن هذا لا يعكس الحقيقة تمامًا، فالشعارات الدينية ـ التي لم تكن تلحظ إلا سطحيًا ـ لم تكن إلا تجديدًا للشعارات القديمة المفهومة للشعب، وهي أن أهداف الحملات العسكرية والتوسع المساحي هي سياسة الخانات الذين يتوجب عليهم إجراء الحملات «إلى جهات العالم الأربع».

فيما عدا فصائل وحدات شبه عسكرية قبلية ـ هي أساس الجيش الخيّالي ـ كان لدى عثمان حرسه العسكري الخاص المشكل من النوكير، وهي تقاليد قديمة تعود بأصولها إلى المنظمة الاجتماعية لدى قبائل آسيا الوسطى، كان التنظيم النوكيري يتصف به المغول بصورة خاصة، ومن المعروف أنه كان لجنكيز خان حرص قوي مكون من النوكير، ومن مميزات خدمة النوكير أنه كان يرى من واجبه خدمة سيده بإرادته، وكان النوكير عند المغول مقاتلاً حرًا يخدم قائده الذي يصبح سيده ومولاه «قانونيًا»، وحين نتكلم عن التنظيم النوكيري لدى عثمان لا يمكن إلا أن نركز على أهمية العنصر المغولي في المنظمة الاجتماعية في البيلك العثماني المبكر وذلك بسبب تأثير الماضي الثقافي العام، وإثر الحملة المغولية في القرن الثالث عشر التي مرت بأراضي آسيا الصغرى كذلك، فكان عثمان يعين حرسه النوكيري بالذات بصفة

قومندانات استيطانات القلاع المسلوبة من البيزنطيين، استمد الأتراك العثمانيون من المغول نظام البريد الحكومي المسمى بأولاغ (وبالتركية أولاك) كما أن العادة المغولية في دفن الخان في أرض قومه توضح سبب دفن إيرتوغرول وعثمان في سيغيوت أي مركز النواة البدائية للبيلك العثماني.

يظهر أن تنظيم الدولة الإسلامية في البيلك العثماني قد بدأ يترسخ بتكوينه العام في نهاية عهد عثمان وقوي في عهد ولي عهده أورخان. كانت الإمارات (البيلكات) التركية المتفرقة في آسيا الصغرى المستأنفة، بشكل أو بآخر، تقاليد تنظيم الدولة السلجوقية - التي قضى عليها المغول - بيئة ثقافية مستمرة تغذي الدولة العثمانية الفتية، وكانت تعود الأهمية في ذلك إلى ممثلي النفوذ الديني، ولا سيما الجزء غير الأرثوذكسي منهم، وللشيوخ الصوفيين والدراويش. كان الحكام العثمانيون الأوائل تنقصهم الخبرة في إدارة الدولة المنظمة على الأسس الإسلامية، فمن البديهي أنهم كانوا بحاجة إلى المساعدين الخبراء والعارفين. ثمة بيانات تفيد أن عثمان كان لديه الوزير المستشار، ومن المعروف أنه كان في المستوطنات والحصون - التي استولى عليها عثمان - القضاة وصوباشي رؤساء المدن الذين يعيّنهم، وكان عثمان يقدم للمقاتلين والقادة ومقربيه البارزين إقطاعات من الأراضي (القرى) تصرف دخولها على أدائهم الخدمة العسكرية.

لما استلم ابن عثمان أورخان السلطة سنة ١٣٢٤ استأنف سياسة والده الاستعمارية بمزيد من القوة، ففي عهده بدأ البيلك العثماني يتخذ طابعًا إسلاميًا وبدأ ذلك الطابع يترك أثرًا واضحًا في التاريخ السياسي للشطر الغربي من إقليم آسيا الصغرى، عندئذ بدأ الأباطرة البيزنطيون يخشون قوة البيه العثماني الحربية واضطروا إلى إقامة علاقات دبلوماسية وسياسية وحربية معه.

يعود إلى أورخان الفضل في الانتصارين الحربيين المهمين اللذين حققهما العثمانيون، ففي عام ١٣٣٧ استولى عثمان على نيقوميديا (بالتركية إزميد) وفي عام ١٣٣١ على نيقاي (بالتركية إيزنيك)، كما يعود إلى أورخان الفضل في الاستيلاء على بروصا (بالتركية برصا)، ذلك الحادث الذي أفزع الحاشية البيزنطية فاضطرت بيزنطة إلى أن تضع في حسبانها قوة جارها التركي المتزايدة وعدوانيته، بما أن أورخان كان مجاهدًا قويًا في سبيل الدين مندفعًا نحو توسيع حدود دولته، أضحى في نظر الشعب قائدًا حربيًا قويًا جذب الكثير من المقاتلين من مختلف أنحاء الأناضول، فإمكانية النهب عند الغارات على الأراضي البيزنطية بالذات التي لم تكن متاحة إلا في البيلك العثماني هي التي هيّأت لازدياد قوة أورخان الحربية؛ لأن الأتراك الغازين للأناضوليين كانوا «يهاجرون» إلى البيلك العثماني.

امتاز حكم أورخان باستيعاب التقاليد الدولية الحديثة، ففي عهده بدأ سك عملة فضية قدرها ١ و ٥ أقجة، وإلقاء الخطب، وتشييد زوايا الصوفية، وتنظيم الأوقاف، كما بدأ بناء المدارس الدينية والمساجد.

إن ممثلي النفوذ الإسلامي بالذات هم الذين ساعدوا على إنشاء نظام الدولة في البيلك العثماني، مهيئين لازدياد التأثير الديني في تشكيل السياسة الحكومية والثقافية. ظهر في البيلك العثماني في عهد أورخان الكثير من المنحدرين من سيواس ونيقاسار وأماسيا وأنقرة وتوكاش وقره خيسار المعبرون الحقيقيون عن تقاليد تنظيم الدولة الإسلامي الذي بدأ يتشكل منذ ذاك الحين في أرجاء أخرى من آسيا الصغرى، كان هؤلاء المهاجرون يعدون كوادر السلطة الفقهية والمدنية. تظهر التقاليد التاريخية العثمانية أورخان على أنه حاكم إسلامي شجع على تشييد المساجد والمدارس وزوايا الصوفية.

أرغمت قوة البيلك العثماني حربيًا وسياسيًا البيلكات التركية المجاورة ذات التنظيم الدولي الأكثر قدمًا، على إقامة علاقات دبلوماسية مع البيلك العثماني، وترجع إلى عهد أورخان العلاقات السياسية الأولى بين البيلك العثماني والبيلك التركي غيرميان، وكان أورخان يراسل شخصيًا البيه الغيرمياني يعقوب غيرميان أوغلو.

بعد أن أخفقت بيزنطة في محاولتها وضع حد للخطر العثماني اضطرت إلى إجراء مفاوضات مع البيه التركي القوي، وبعد أن عقد الإمبراطور البيزنطي معه السلام أوجب عليه أن يدفع للأتراك العثمانيين الإتاوات.

من بين العوامل التي ساعدت على ترسيخ وتطوير تنظيم الدولة العثمانية تأسيس جيش المشاة «بابا» المستقل عن وحدات الفرسان شبه العسكرية القبلية، بيد أنها كانت قد فقدت معظم العادات والتقاليد المرتبطة مع التنظيم القبلي، كان الجيش العثماني في عهد عثمان كالجيش السلجوقي في مراحله الأولية من الفتوحات يتألف من وحدات شبه عسكرية قبلية تشكلت بناء على قاعدة «من كل قبيلة وحدة عسكرية» وعمليًا كان كل فرد من القبيلة بعد بلوغه سن الرشد يصبح محاربًا، فيتوجب عليه المشاركة في الإجراءات الحربية لدى رئيس التحالف القبلي، وبقي الجيش على هذا النمط حتى عهد أورخان. ولا بدّ أن نشير إلى أن جيش الخيالة لدى السكان الرُّحّل كان يمتاز تقليديًا بقدرته الحربية العالية وسرعة حركته الكبيرة إذ كان من السهل جمعه وحشده في مكان معين بغية توجيه غارة فجائية على العدو، بيد أن وحدات الفرسان شبه العسكرية لدى البيكوات العثمانيين الأولين سرعان ما كانت تفقد علاقاتها مع المنظمة الحربية القبلية، ولا سيما أنّ مثل هذه العمليات كانت تسير بعنف في مرحلة الفتوحات الجارفة حين كانت الأراضي المفتوحة حديثًا وغنائمها توزع على الفرسان المحاربين مقابل خدمتهم العسكرية، مكونة بذلك الأساس

المادي للتفكك السريع في بناء القبيلة، وكانت القمة العسكرية ـ كأنصار البيكوات العثمانيين العسكريين ونوكيرهم ـ هم الذين يكسبون من هذه العملية، أما أفراد القبائل العاديون فكانوا يحصلون على جزء بسيط من غنائم الحرب، ولكي لا يموتوا جوعًا كانوا يضطرون إلى أن يعملوا في الفلاحة والرعي، ومن المعروف من تاريخ المجتمعات البدوية أنه لم ينتقل منهم إلى حياة الزراعة إلا الفقراء الذين حرموا من ماشيتهم وإمكانية الترحال.

في البداية كان يرأس الجيش العثماني، كما هو في كل الشعوب البدوية بما فيهم جنكيز خان، العشريون (أنباشي) والمئويون (يوزباشي)، والألفيون (بنباشي)، وكان في جيش المغول التيمنيكيون الذين كانوا يرأسون أفواجًا من عشرة آلاف مقاتل، كان الأول يرأس الجناح الأيسر، والثاني الجناح الأيمن، والثالث كان يرأس «العسكر الأوسط» وفيما بعد نظم الجيش العثماني على هذا النمط.

دفعت ضرورة إجراء الحصارات المستمرة والطويلة التي تحتاج إلى كميات هائلة من عمليات الحفر، دفعت الحاكم العثماني أورخان إلى تزويد جيشه بالمشاة الذين لم يتم تجنيدهم إلا من ضمن الفلاحين سكان المدن الخاضعة الذين يدفعون إتاوات.

كتب المؤرخون العثمانيون الأوائل عن تشكيل جيش المشاة الأول المميز، كما تفيد بيانات المؤرخ البيزنطي نيكيفور غريغورا أنه حتى في معركة وقعت بالقرب من بيليكانون (١٣٢٩) كان في جيش أورخان قوات خفيفة وثقيلة من المشاة.

تفيد البيانات التي حفظها المؤرخون العثمانيون الأوائل أن جيش المشاة «يايا» كان منظمًا، بإرادة أورخان الذي سعى إلى مضاعفة جيشه عدديًا، وكان يتكون من المتطوعين من ضمن رعايا البيلك العثماني، وكان يقوم بتسجيل الراغبين في

الالتحاق به القاضي الذي كان يأخذ من بعضهم الرشوة مقابل تسجيلهم، وعدّ ذلك الجيش المنظم جيش أورخان الخاص وكان يخدم فيه الفلاحون.

كتب المؤلف بحثًا سنة (١٦٠٦) حول الفيلق الإنكشاري عنوانه «مبدئي قانون» يقول فيه: إن تنظيم جيش المشاة كان بسبب الحاجة إلى محاصرة القلاع الكثيرة. وكتب المؤلف أن الملتحقين بجيش المشاة (يايا) كانوا يقبضون أجورًا، ولا تتم خدمتهم العسكرية إلا عند سير الحملة، وبعد انتهاء الحرب كان عليهم العودة إلى أوطانهم لممارسة الزراعة، كما كان المجندون في جيش (يايا) يعفون من دفع الضرائب.

نشر مؤلف «مبدئي قانون» أن جنود جيش (يايا) الذي تم تنظيمه، صاروا قليلي الانضباط سواء في سير الحملات أو في فترة السلام، عندئذ سمح لأبناء الفلاحين الذين تبدو عليهم ملامح الرجولة، باللحوق بجيش المشاة، وبعد اعتناقهم الإسلام شكلوا منهم فيلق المشاة الذي كان يشارك في الاستيلاء على القلاع، وخلال سنوات جند منهم حوالي ألف شخص وخصصت لهم أجور ثابتة.

ليس من المعروف إن كان الإنكشاريون الأوائل ـ إذا كنا نعني بهم المقاتلين المشاة من أبناء الفلاحين المعتنقين للإسلام ـ عبيدًا وكيف كان نظام خدمتهم، من المعروف أن الجيش الإنكشاري (جيش يني تشيري) فقط كان مكونًا على أساس فيلق الشباب المسيحيين الذين تم جذبهم بدلاً من (يايا) إلى الخدمة العسكرية لإجراء الحصارات، ويبدو أن تسمية الضابط ياياباشي من هذا الأصل، وقد بقيت هذه التسمية على مدى التاريخ القديم للفيلق الإنكشاري، بعد أن تشكل فيلق المقاتلين المشاة هذا من الشباب الذين اعتنقوا الإسلام حديثًا لم يزاحم الفيلق كليًا جيش يايا ـ الذي استمر استخدامه فيما بعد ـ بل يبدو أنه كان يتطور في موازاته.

في عهد مراد الأول ابن أورخان كان لتطور جيش المشاة هذا دافع قوي إذ إنه صار يتألف من الشباب المسيحيين الأسرى الذين كانوا يخدمون خدمة تمهيدية قبل التحاقهم بالجيش الإنكشاري، وسوف نتوسع في كلامنا حول هذا، أدى طول فترة نشوء الجيش الإنكشاري - التي امتدت بين عهدي الحاكمين العثمانيين أورخان ومراد - إلى تضارب في الآراء، فلهذا ينسب مدونو التاريخ العثمانيون تأسيس الجيش الإنكشاري إلى عهد أورخان تارة وإلى عهد مراد الأول تارة أخرى.

مع تأسيس جيش المشاة الخاص، ولو أنه كان قليل العدد في بادئ الأمر، بدأ البيه العثماني يرسخ سلطته الشخصية على أنه الحاكم، أما القمة الحربية لجيش عثمان الخيالي السباهي - التي لم تفارق بعد ذلك حقها في الصوت والتأثير على أمور الإدارة الدولية، ذلك الحق العائد إلى تقاليد النظام القبلي - فلاحظت الترسيخ الحربي السياسي لدى البيه العثماني، فظهور جيش الحاكم الشخصي النظامي أدى إلى نشوء قوة مستقلة عن التراكيب القبلية القادرة على دعم العرش وترسيخ سلطته المستقلة. لوحظ في تنظيم جيش المشاة أحد أهم عناصر التنظيم الدولي العثماني المتشكل الذي كتب عليه أن يتحكم في مصائر البلاد، كان ذلك خطوة على طريق تحول سلطة القائد الحربي القبلي إلى السلطة الخانية الاستبدادية.

حتى السلطان أورخان - الذي وسع حدود دولته بشكل ملحوظ - وضع أساسًا لتنظيمات الدولة التي استمد الكثير منها من علماء البيلكات التركية المجاورة التي كانت بدورها تستأنف تقاليد السلاجقة الدولية، استطاع الحاكم العثماني هذا أن يعقد علاقات سياسية وعسكرية واقتصادية متينة مع جيرانه المسيحيين والمسلمين حتى مع بيزنطة، وأن يورث لابنه مراد الأول (١٣٦٠-١٣٨٩) بيلكًا قويًا - لا سيما في المجال الحربي - القادر على منافسة التنظيمات الدولية التركية الأخرى في آسيا الصغرى.

يمكننا القول إنه إلى بداية عهد حكم مراد الأول وضعت أسس لثلاثة أنواع من التشكيلات الحربية: وحدات الترك شبه العسكرية الفلاحية يايا، التي كانت تجند للخدمة العسكرية مراراً وتتمتع بتسهيلات ضرائبية على هذا؛ فيلق المشاة (الألف) المكون من المسيحيين المعتنقين للإسلام، الذين كانوا يخدمون ويقبضون مقابل ذلك الأجور؛ وفيلق الحرس من المحاربين الغلمان (العبيد)، الذين كانوا يشكلون حرساً شخصيًا للحاكم العثماني، وضع وجود فيلق من المسيحيين المعتنقين للإسلام أساسًا لتشكيل «الجيش الجديد» (يني تشيري) الذي استوعب مميزات وواجبات التشكيلات هذه أو تلك، وقد استمد من الدول الإسلامية المجاورة (مثل دولة السلاجقة والمماليك) تنظيم الحرس المكون من «الغلمان». من المعروف أنه في عهد مراد الأول تشكل فيلق عسكري جديد وهو فيلق «عذب» المكون من سكان المدن، كان «العذبيون» جنوداً مشاة في القوات المدنية ويجلبون إلى الخدمة العسكرية فقط في فترات الحملات، كوّن العذبيون وجماعة المشاة الخفيفة ويايا قوة إضافية للجيش العثماني، حيث لم يكن للإنكشاريين تأثير في تشكيل جيش المشاة.

في عام ١٣٦٢ استولى الأتراك على أدريانوبول التي بعد أن خضعت تمامًا لسيطرتهم سنة ١٣٦٥ أصبحت عاصمة أوروبية للبيلك العثماني وسميت أدرنة، وقبل ذلك بقليل تم الاستيلاء على ديديموتيكا، أتاح هذا التوسع للعثمانيين بأن يوطدوا سيطرتهم على الأراضي الأوروبية وبأن ينتصروا في غاراتهم على الأراضي التركية، كانت تلك الغارات تتم بوساطة قوات الفرسان «آقينجي» وهي خيالة تركية متنقلة مكونة غالبًا من السكان الرُّحَّل. بعد أن نقل مراد الأول العاصمة إلى أدرنة بدأت القوات الحدودية للجيش العثماني تغزو الأراضي البلغارية في مناطق إبسالا وزاغورا وتصل حتى فيليبوبول، كانت هذه الغارات التي كان الهدف منها النهب بغية «تطعيم» آقنجي تأتي بغنائم كثيرة باستمرار وأعداد لا يستهان بها من الأسرى،

ولم تكن النظم الاقتصادية البدائية في البيلك العثماني قادرة على التهامهم، ولعلّ قبض الغنائم ولد فكرة استخدامها لتكميل جيش المشاة، وكما يروي مدونو التاريخ العثمانيون أصدر قرار جباية خمس الغنائم من الأسرى المسيحيين لصالح البيه العثماني.

كلف آقين إفريثوزبيه قادة الغارات وآل شاهين أن يسلموا خمس الأسرى إلى مراد الأول من الذين وقعوا بيد أي غاز، وإذا لم يكن لدى المقاتلين العدد الكافي من الأسرى عندئذ كان عليهم دفع ٢٥ آقجة على كل أسير ناقص، عين لكل فرقة آقينجي قاضٍ وجب عليه تنفيذ هذه الأمور، أدت هذه العملية إلى جمع عدد كبير من الأسرى الذين تم إحضارهم إلى مراد، بعدئذ وجب تسليمهم إلى خدمة الفلاحين الترك لإدخالهم في الإسلام وتعليمهم اللغة التركية لتجنيدهم فيما بعد في «الجيش الجديد» (يني تشيري)، بدأ تسليم الصبية والشباب الأسرى إلى العوائل التركية لتربيتهم بناءً على نصيحة أحد قواد الحرب في زمن مراد الأول، وبيازيد الأول يدعى تيمورتاش باشي، لم يكن بناء الجيش الجديد بصورة منتظمة ممكنًا إلا بجمع عدد كاف من الأسرى المسلمين إلى مراد الأول من قبل أقينجي غازي، الراجح أن المقاتلين الأتراك لكي لا يدفعوا المال على كل أسير من الخمس حاولوا القبض على أكثر من خمسة أسرى ليدفعوا «عينياً» وهكذا ظهر مصدر مستمر للالتحاق بالبلاط العثماني.

خصص الجيش الجديد «يني تشيري» (ومنها كلمة الإنكشاري) لتنفيذ واجبات حرس السلطان الشخصي، ويظهر أنه تقليد لأسلوب الحكام المسلمين السابقين في اتخاذ حرسهم الخاص ولم يكن الفرق إلا في عناصر الحرس، فالأتراك العثمانيون كانوا يشكلون هذا الحرس من الأسرى المسيحيين المعتنقين للإسلام، وكان هؤلاء الأسرى أبناء أمم مختلفة، ويعود ذلك إلى تعدد البلاد التي وقعت عليها الفتوحات

وحمل منها الأسرى فنرى من ضمن الإنكشاريين الأوائل البلغار والصرب واليونات الذين وقعوا أسرى بيد الأتراك أثناء الفتوحات الكبيرة الأولى في الأراضي الأوربية.

من البديهي أنه بسبب عدم وجود مؤلفات عثمانية تاريخية مكتوبة في عهد الحكام العثمانيين الأوائل وأن المؤلفات التاريخية الأولى ـ التي ألفت بطلب الحكام العثمانيين المتأخرين نسبيًا ـ كانت كلها معتمدة على الروايات الشعبية الشفهية، ليس في استطاعتنا رسم صورة دقيقة للأحداث المرتبطة بظهور الجيش الإنكشاري، فما قام به مدونو التاريخ العثمانيون الأوائل من الاعتماد على المصادر المكتوبة والروايات الشفهية في آن واحد أدى إلى ظهور اختلاطات كثيرة في الأحداث التي حالت دون معرفة الترتيب الصحيح للوقائع التاريخية، ومع ذلك يمكننا أن نؤكد أن جيش البلاط الإنكشاري المكون من الأسرى المسيحيين ـ الذين باتوا عبيداً للبيه العثماني ـ لم يتم تشكيله النهائي إلا في عهد مراد الأول حين توسعت فتوحات الأتراك العثمانيين للأراضي الأوروبية، كانت إعالة الجيش ممكنة في وجود عاصمة البلاط (التي ظهرت فقط بعد أن استولى الأتراك كليًا على أدريانوبول سنة ١٣٦٥) ومع اكتمال تشكيل بيت المال الحكومي، وبما أن أفراد الجيش كانوا يتقاضون أجوراً، فجدير أن مؤلف «مبدئي قانون» كتب أن اثكنات الإنكشارية الأولى قد تم بناؤها في أدرنة (أدريانوبول).

من المستبعد أن يكون تنظيم حرس البلاط قد تم لأغراض عسكرية فقط، فالحاكم العثماني كان لديه جيش قوي لدرجة عالية، ويتكون من خيالة سباهي وجنود يايا ومشاة «عذب»، كان الفرسان سباهي قوة ضاربة رئيسية في الجيش العثماني، وكانوا جزءاً من المجتمع البدوي في السابق الذي بدأ ينتقل رويداً رويداً إلى الحياة الإقطاعية، ارتبط تأسيس الجيش الإنكشاري بتطور التنظيم الدولي

العثماني وإدراك البيكوات العثمانيين قيمتهم السياسية كحكام مسلمين، وسعيهم بواسطة تقليد الحكام المسلمين الآخرين نحو الترقي إلى مستوى الحكام الإسلاميين المعاصرين تجدر الإشارة إلى أن تأسيس جيش البلاط المكون من العبيد في عهد مراد الأول كان ـ على الأرجح ـ يعود إلى نزاع مراد مع إخوته على السلطة العليا في البيلك، وكان كل واحد من الإخوة مدعومًا بشكل أو بآخر بجزء من السباهية، وكان البلاط عبارة عن قوة محايدة مستقلة عن التقاليد القبلية، كان وجود قوة عسكرية كهذه توطد سلطة الحاكم العثماني الاستبدادية وتقيد من إمكانيات الجيش السباهي، وعلى الأرجح كان للقمة العسكرية تأثير في سير أمور الإدارة الحكومية، فجيش البلاط بالذات هو الذي وضع أساسًا لحكم البيه العثماني المستبد المطلق، وساعد على ترسيخ تنظيم الدولة الذي تشكل، كانت بحوزة الحاكم العثماني أداة عسكرية واجتماعية إضافية لتوطيد سلطته العليا.

عند حديثنا حول تأسيس الجيش الإنكشاري لا بد أن نشير إلى ظرف آخر، لقد انتبه العلماء منذ فترة طويلة إلى أن غطاء رأس جنود «الجيش الجديد» أي الإنكشاري كان عبارة عن قلنسوة بيضاء وفي خلفها شريطة عريضة معلّقة كانت أشبه بالكم، كان غطاء رأس كهذا شبيهًا جدًا بغطاء رأس «الآخي» في آسيا الوسطى، أضف إلى ذلك أن ولي الأخوة الإسلامية (آخي) علي بن أبي طالب رضي الله عنه الخليفة الرابع والأخير من عداد الخلفاء الراشدين، صهر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وكان اسم ولي الجيش الإنكشاري كذلك ولا بد أن الإنكشاريين قد استمدوا ذلك عبر أخوية «البكتاشي» التي كان لها نفوذ عال على الجيش الإنكشاري، كان الإنكشاريون كالآخي يقرون عدم الزواج.

في حقيقة الأمر ثمة مزايا مشتركة بين أخوة الآخي وأخوة الإنكشاريين، بيد أن هذا لا يعني قط أن الفيلق الإنكشاري كان مرتبطًا ارتباطًا مباشرًا مع منظمة «فتوة»

بل يعني هذا بكل بساطة أنه كانت هنالك عناصر شبيهة بين آخي وبكتاشي تقربهما إلى الشيعة، ولكن يمكننا أن نؤكد ارتباط الفيلق الإنكشاري مع «الطريقت» التي أسسها حجي بكتاش، كتب مؤلف «مبدئي قانون» أن قوانين وقواعد سلوك الإنكشاريين هي نفسها التي فرضها حجي بكتاش ولي سحرته، وتلك هي القواعد: على الإنكشاريين أن لا يتزوجوا وألا يطلقوا الحاهم إلا في الشيخوخة الطاعنة؛ وهو الذي يروي قصة ظهور غطاء الرأس المميز الذي كان يرتديه الإنكشاريون، تفيد الأسطورة التي يرونها أنه عند هجرة حجي بكتاش ولي إلى آسيا الصغرى جرح ابنه (حجي بكتاش) ساقه، فأمر والده بقطع كم ردائه وعصب جرح ابنه به، بيد أن حجي بكتاش احترامًا وتبجيلاً لوالده لم يعصب ساقه المجروح بكم والده المقطوع بل لبسه على رأسه، فظهر هكذا نوع جديد من أغطية الرأس، بعد ذلك انتقل غطاء الرأس هذا من ابن حجي بكتاش تيمورتاش ديديه إلى الإنكشاريين.

الأرجح أنها أسطورة متأخرة نسبيًا ألفت بغية تكريس صلة الوصل بين الأخوية البكتاشية والإنكشاريين، ولم تتوضح هذه الصلة يقينًا إلا في القرن السادس عشر، كل المسائل المرتبطة مع العلاقات المتوقعة بين الإنكشاريين الأولين وممثلي الصوفية في آسيا الصغرى تحتاج إلى دراسة خاصة، والدراسة هذه في غاية الصعوبة، نظرًا لضآلة البيانات والمصادر اللازمة وتأخر ظهورها، ويظهر أنه كانت هنالك صلة وصل بين الآخي وبكتاشي. على أي حال الواقع أن مرادًا الأول كان منتميًا إلى أخوة «آخي» فهذا ما وضع بصمة على العديد من قواعد الحياة الداخلية التي فرضت على الانشكاريين، وخصوصًا عدم الزواج.

منذ إحياء التاريخ المبكر للفيلق الإنكشاري ينبغي القول بحذر إنه عند تأسيس الجيش الإنكشاري كان ينبغي تسليم الأسرى المسيحيين إلى الترك بغية تتريكهم، ولكن لم تظهر هذه العملية إلا في القرن الخامس عشر.

كان تأسيس الجيش الإنكشاري في عهد مراد الأول نهاية لتشكيل تنظيمات الدولة الأساسية في البيلك العثماني، فكان يرأس البيلك الحاكم الأعلى «بيه» الذي كان يتحدى بأن يسمى خانًا، ويرى أن سلطته المستقلة سلطة خانية، تشكل ملاك خدم المعية من العبيد، وكان أكثرهم من عداد الذين تم أسرهم في سير الحملات العسكرية، وكان هنالك وزير رئيس السلطة التنفيذية في البيلك، ومستشار الحاكم الأعلى الأول، وأمين بيت المال، ورئيس الديوان، وقاضي العسكر، كما يمكننا أن نضم إلى هذا الملاك الأعلى من أفراد الحاشية رئيس القمة العسكرية السباهية ويسمى بيلربيه كان له تأثير كبير في تشكل سياسة الدولة العثمانية.

إلى جانب هذا بدأ يظهر في التنظيم الأول للحكومة العثمانية في النصف الأول من القرن الرابع عشر جزئيًا جهاز إداري مستقل عن الشعب، كما بدأت طبقة رجال الدين الإسلامي بالظهور، إن وضع حجر أساس لجيش الحاكم الأعلى غير المرتبط أصولاً مع وحدات شبه عسكرية قبلية، هذا الجيش، ليس له في واقع الأمر أهمية سياسية كبيرة؛ لأنه في معظمه كان يتألف من الفيلق الإنكشاري. في بادئ الأمر كان الجيش الإنكشاري له أثر في رفع منزلة البيه العثماني داخليًا وخارجيًا، ففي هذه الفترة لم تكن هنالك صدامات حقيقية بين مصالح القمة العسكرية والسلطة العليا، بيد أن تأسيس جيش من هذا القبيل ساعد على توطيد سلطة الحاكم العثماني فزعزعت بذلك علاقات البيه مع الأرستقراطية القبلية التي أخذت تتحول إلى حياة الإقطاع، إلى جانب هذا لم يكن الجيش الإنكشاري في القرن الرابع عشر قادرًا على أن يتحول إلى جهاز قمع حكومي؛ ذلك لأن المجتمع كان حديث عهد بتشكيل الدولة، ولم تكن التناقضات الاجتماعية قد ظهرت فيه.

❋ ❋ ❋

الفصل الثاني ..

نظام التكميل وتركيب الفيلق الانكشاري

الفصل الثاني

نظام التكميل وتركيب الفيلق الإنكشاري

سبق أن ذكرنا أن جيش المشاة «الألفية» (يايا) الذي أسس في عهد السلطان أورخان ـ الذي صار نواة للجيش الإنكشاري المنظم في عهد مراد الأول ـ كان يتألف من الفتيان المسيحيين الذين أدخلوا في الإسلام، ولكن المصادر لم تبين كيف تم هذا، أكانوا أسرى أم أحرارًا، أكانوا يلتحقون بجيش البيه العثماني بإرادتهم أم مرغمين، وفي عهد مراد الأول عند إدخال الخمس (ينجك) ـ الذي كان يشمل وقتذاك حتى الغنائم الحية ـ بُدئ في تكوين جيش مشاة البلاط الذي سمي بالجيش الإنكشاري.

في أواخر القرن الرابع عشر والنصف الأول من القرن الخامس عشر كان الأتراك يقومون بجمع الفتيان المسيحيين حين يستولون على الحصون الأوروبية، ولم يكن ثمة إلا القليل من الشواهد التاريخية حول هذه العملية. ولكن البعض منها موجودة، فمن المعروف أنه عند حصار حصن يانييني سنة ١٤٣٠ أرسل القائد التركي سنان باشا رسالة إلى المحاصرين حيث اقترح عليهم بأن يستسلموا طوعًا.

خلد قسطنطين وهو من أوستروفيتسا وصف تجنيد المسيحيين في حصن نوفو بوردو الذي احتله الأتراك بوصفه شاهد عيان إذ إن قسطنطين وقع أسيرًا بيد الأتراك، فبعد استيلاء جيش محمد الثاني (١٤٥١-١٤٨١) على الحصن أمر بإخراج أهل المدينة من وراء الأسوار حيث تم تجنيد عبيد السلطان المقبلين، بمقتضى

رواية قسطنطين تم اصطفاء ٣٢٠ صبي و ٧٠٤ امرأة وقتذاك، انضمّ الصبيان إلى الجيش الإنكشاري وأرسلوا جميعهم إلى الأناضول «لتربيتهم»، وبينما كان الصبية ذاهبين إلى «التتريك» فكروا بالهرب فضربوا كل حراسهم الأتراك، وتمكن قسطنطين وعشرون من زملائه من الهرب ولكن لسوء حظهم لحقهم الأتراك فقيدوهم وعذبوهم بربطهم إلى الخيول وجرهم خلفها، ويظهر أن قسطنطين كغيره كان ينتظره عقاب شديد على ما ارتكبه، بيد أن إخوته ـ الذين أخذوا كالباقين إلى الجيش الإنكشاري ولم يحاولوا الهرب توسطوا له، بعد ذلك أخذ قسطنطين إلى «خلف البحر» أي إلى الأناضول للخدمة الأولى التي تسبق الخدمة في الفيلق الإنكشاري.

كانت البيانات المقدمة من قبل قسطنطين ذات أهمية بالغة للمؤلفين المسيحيين حتى للذين ألحقوا بخدمة الأتراك ورووا بعض التفاصيل، وبفضل هذا وصل إلينا وصف لتجنيد الأتراك المصيبة. بعد أن استولى محمد الثاني على حصن إينوس واصطفى من بين سكان المدينة مئة وخمسين فتى من الأسر النبيلة، في عام ١٤٦١ حين استولى الأتراك على طرابزوند (طرابزون وبالتركية طرابوزان) ألحق بالجيش الإنكشاري ثمانمئة صبي أسير، تجدر الإشارة إلى أنه لم يكن الصبية المسيحيون كلهم يجندون في الجيش الإنكشاري بل كانوا يسلمون إلى خدمة بلاط السلطان بعد إنهائهم تعلم اللغة التركية وأركان الدين الإسلامي في العاصمة العثمانية.

على الرغم من وجود عملية التجنيد للفيلق الإنكشاري ـ حيث تطورت فيما بعد إلى عملية «ديو شيرمه» ـ كان الملاك الأساسي للإنكشاريين المقبلين يجند من أوج بيه الحدودية التي كانت تقود قوات «آقينجي» إذ إن غاراتهم على الأراضي المسيحية بالذات هي التي كانت تجلب معظم الغنائم الحية التي كان خُمسها يوظف

في خدمة الحاكم، بقيت في الأرشيفات التركية وثائق كثيرة فحواها تجنيد «بنجك». والظروف التي كان يتم ذلك ضمنها. تفيدنا هذه الوثائق أن المصدر الأساسي للفيلق الإنكشاري كان تجنيد الخمس منهم، وفرض تعيين الخمس من الصبية الأسرى ما بين سن العاشرة والسابعة عشرة.

إذاً تم تكميل الصفوف المنظمة في عهد مراد الأول لجيش المعية الإنكشاري في نهاية القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر إما عبر نظام بنجك ـ حين كان يسلم خمس الأسرى المعتقلين أثناء غارات «آقين» إلى السلطان ـ وإما عبر الاصطفاء الإكراهي للشباب الذين أسروا من الحصون في الغارات التي شارك فيها السلطان بنفسه، وباتت الطريقة الأخيرة أساساً لنظام «ديو شيرمه» المقبل الذي شكل فيما بعد من عداد رعايا السلطان المسيحيين.

بخلاف المجندين وفقاً لنظام بنجك أو المجندين أثناء سير الحملات العسكرية ـ الذين كانوا يعدّون غنائم فأضحوا عبيداً ـ كان المجندون في الفيلق الإنكشاري وفقاً لنظام «ديو شيرمة» أناساً أحراراً، وبما أن التجنيد كان يتم في فترات سلمية من ضمن رعايا السلطان القاطنين في البلاد، عند هذا كانت تسمى وحدها أراضي البلاد، تلك التي وجد فيها جرد منتظم للسكان في البلاد وحدات إدارية نظامية، كان مثل هذا التجنيد. في الربع الثاني من القرن الخامس عشر يقوم على أساس إجراء جرد منتظم للسكان في البلاد التي انضمت إلى الدولة العثمانية وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منها، من المعلوم أن مثل هذا الجرد بدأ مع بداية القرن الخامس عشر وأطلقت على الصبية الذين هم من عداد رعايا السلطان الملتحقين بالفيلق الإنكشاري تسمية العبيد، تلك التسمية التي أطلقت على الإنكشاريين الذين هم بمنزلة العبيد، في هذه الحالة أصبح المصطلح ـ الذي كان يعكس العملية المبكرة

حيث كان الفيلق الإنكشاري لا يتم تكميله إلا بالعبيد - يعني الإنكشاريين المجندين بنظام آخر الذين لم يكونوا عبيداً حقاً.

تشكل نظام «ديو شيرمه» في الدولة العثمانية في منتصف القرن الخامس عشر، وصار غالباً على طرق التجنيد الأخرى لتشكيل الفيلق الإنكشاري، واحتفظت الأرشيفات التركية الحكومية بالمرسومات التي فرضت إجراء التجنيد في المحافظات.

كان إجراء التجنيد - لشغل الوظائف الفارغة التي كانت تظهر في الفيلق الإنكشاري لسبب أو لآخر تسبقها رسالة طلب كان يكتبها آغا الفيلق الإنكشاري، وكان يشير في ذلك الطلب إلى العدد المرغوب من الصبية المطلوبين للتجنيد، ومن ثم يقدم الطلب إلى الديوان (مجلس السلطان) المكون من الوزراء وغيرهم من كبار وجهاء الدولة، وكانت من ضمن وظائف الآغا الإنكشاري تعيين الأشخاص الذين يتوجب عليهم إجراء التجنيد.

بسبب تأخر الوثائق الأرشيفية التركية حول تجنيد «ديوشيرمه» ليس علينا إلا أن نعتمد كل الاعتماد على البيانات الضئيلة التي تركها قسطنطين من أوستروفيتسا، حيث أفاد أن الإنكشاريين المجندين وفقاً لنظام ديوشيرمة يسلمون إلى كنف سكان الأناضول (الأناس «القاطنين خلف البحر») وبعد برهة ينبغي لتلك العوائل المربية للفتيان «توصيلهم إلى المكان الذي حدد لهم» بعد ذلك يبدأ تدريب عسكري للمجندين «يوضعون في الزوارق المُعَدَّة لهذا وينقلون بها ويدربون على العمليات الحربية» وبعد هذا يسجلونهم ويدفعون لهم الأجور، وبعد هذا التدريب المبدئي فقط يلتحق الشباب جماعات بالفيلق الإنكشاري حيث يخدم الصغار الكبار.

وصف قسطنطين من أوستروفيتسا المخطط الموسع لإلحاق المجندين بالفيلق الإنكشاري وفقاً لنظام ديوشيرمة الذي لم يتغير عموماً فيما بعد.

تضمنت الأوصاف المتأخرة نسبيًا تفاصيل نظام ديوشيرمة الذي كان الأتراك يطبقونه، وصف السفير الفينيسي «برناردو نافادجيرو» في إحدى رسائله إلى مجلس الشيوخ سنة ١٥٥٣ عملية اصطفاء الصبية للفيلق الإنكشاري حيث أفاد أنه كان يأتي إلى المدينة أو القرية عامل تجميع فيستدعي «رؤساء» الضواحي المجاورة الذين كان عليهم استدعاء أرباب الأسر مع أبنائهم إلى مكان وجود عامل التجميع، ومن لا يأتي يعاقب فورًا، بعد ذلك يبدأ عامل التجميع والكاتب في اختيار الصبية الصالحين، وعادة كان ينتقي الفتيان بين سن الثانية عشرة والخامسة عشرة الأقوياء بدنيًا، وكان على عامل التجميع أن يختار من بين أربعة أو خمسة أبناء صبيًا واحدًا.

كانت المرسومات السلطانية حول إجراء تجنيد ديوشيرمة تنشأ باسم السلطان نفسه وتسلم إلى عامل التجميع الذي يعينه الآغا الإنكشاري، كانت تلك المرسومات تكتب عادة على طراز واحد ولم يختلف بعضها عن بعض إلا بالتفاصيل المعينة، كان يشار فيها إلى المحافظات والأقضية حيث يجب أن يجرى التجنيد، وإلى عدد الصبية الواجب تجنيدهم، وفي مختلف المرسومات الصادرة في فترات مختلفة كان يذكر عدد الأسر التي وجب عليها دفع ضرائب بأولادها، وكان ذلك عائداً إلى الاحتياجات العددية لتكميل الفيلق الإنكشاري، لم يذكر في المرسومات السن المطلوب للمجندين إذ كان يتراوح بين حدين واسعين حسب الظروف التي يجري فيها التجنيد، كان الأشخاص المسؤولون عن إجراء تجنيد ديوشيرمة في الأماكن يتغيرون على مدى التاريخ.

احتفظت الأرشيفات التركية بمرسومات كثيرة حول تجنيد ديوشيرمة. يعود أكثرها إلى القرن السادس عشر، وفي العادة كان يخصص دفتران يحتوي كل منهما على قائمة المجندين، وكان يسجل في هذين الدفترين الاسم المسيحي للمجند واسم والده وقريته حيث تم تجنيده من قبل السباهي الإقطاعي المحلي المسؤول عن القرية،

كما كانت تسجل أدوات المجندين الشخصية. كان تسجيل هذه البيانات شيئًا لا غنى عنه بغية مراقبة قناة الالتحاق بالفيلق الإنكشاري ومنع القرارات المحتملة.

وجب تقسيم الأولاد إلى فرق (سيوريو) تتألف كل فرقة من مئة وخمسين إلى مئتين ويحضرون أجمعهم تحت حراسة الإنكشاريين إلى أدرنة وإستنبول، في أحد مرسومات التجميع العائدة إلى أوائل القرن السادس عشر ـ حيث كان ديوشيرمة يتم بإشراف القضاة المحليين ـ عيَّن القاضي الأشخاص الذين كان عليهم مصاحبة المجندين، ومنهم «الفوينوكيون» و «الموشيلينيون»[1] أو الأشخاص الذين عينهم لهذا الهدف السباهي المحلي في قرية ما، حيث تمت عملية التجنيد، وكان سبب وجود الحراسة القوية ـ كما هو واضح من المرسومات السلطانية الأخرى ـ هو كثرة الفِرارات.

كان تجنيد ديوشيرمة يجري في القرن الرابع عشر في روميليا (الشطر الأوروبي من الدولة العثمانية) وبعض أرجاء الأناضول على حد سواء، بيد أن التجنيد وصل إلى الأناضول بعد روميليا بكثير، وبعد أن تسلم السلطان سليم الأول العرض قرر نشر التجنيد ديوشيرمة على أراضي الأناضول كذلك، حيث كان يجند السكان المحليون من المسيحيين.

لم يكن تجنيد ديوشيرمة لمصلحة ملاك الأراضي بصورة عامة حيث كان سببًا في نقص الأيدي العاملة من الرجال في الأعمال الزراعية، ولا سيما إذا لم يكن للفلاح ولد غير ولده المجنّد، وكانت الأحداث من هذا القبيل تقع، بيد أنه إذا أخذنا في الحسبان التزايد الجنوني لعدد السكان ـ الذي حدث ـ بدءًا من النصف الأخير من القرن الرابع عشر على شواطئ المتوسط من الإمبراطورية العثمانية ـ لم يكن التجنيد ديوشيرمة يقابل اعتراضات بل كان لمصلحة الفلاحين إذ إنه كان يخلص الأعمال

(١) «فوينوك»، «موسيلين»: الأقسام المساعدة في الجيش التركي المكونة من غير المسلمين.

الزراعيـة من الأيدي العـاملة الزائدة وذلك عند عـدم وجـود حـصص زائدة من الأراضي.

بيد أن الفلاحين ـ الذين جند أبناؤهم في الجيش الإنكشاري ـ لم يأخذوا في الحسبان الدوافع الاقتصادية فقط، بل ينبغي ألا ننسى العامل الديني كذلك في مرحلة القرون الوسطى، فكل ملتحق بالجيش الإنكشاري كان يعتنق دينًا جديدًا أي إنه كان لا بد له أن يقطع صلته مع بيئتهم الثقافية التي ينتمي إليها أهله والانضمام إلى بيئة ثقافية أخرى كانوا يرونها بيئة «أجنبية»، وهذا ما كان يجري في الدولة العثمانية بصورة حادة جدًا لعدم وجود الجامعة العرقية الكنيسية المتجانسة، كان إخفاء الأبناء وتنظيم الفرارات ظاهرتين منتشرتين، فلذا كانت المرسومات السلطانية تشدد دومًا بصورة خاصة على عدم جواز إخفاء الفلاحين أو السباهيين وغيرهم لأبنائهم لعدم رغبتهم في تسليمهم لعمال التجميع.

توضح بعض المرسومات التي وصلت إلينا أن بعض الموظفين حاولوا إخفاء الصبية عن عمال التجميع لمصالحهم الخاصة من أجل الرشوة التي كانوا يأخذونها من آباء المجندين.

كانت بعض المهازل تحدث خلال عملية تجنيد الفتية في الفيلق الإنكشاري، وفي أثناء نقل فرق المجندين إلى إستنبول، ولا سيما عند التوقف في القرى حيث يتوجب على أهلها توفير المساكن والمؤن للمجندين ومن يصاحبهم على حد سواء، لا شك في أن هذا هو السبب الذي أدى إلى التشديد على عدم جواز توقف الفرقة في قرية طويلاً أو المرور بقرية واحدة أكثر من مرة.

تجدر الإشارة إلى أن رعايا السلطان العثماني المسيحيين كانوا يستخدمون حقوقهم في الشكوى على الجائرين إذ إن المرسوم السلطاني الصادر عام ١٥٨٩ بدأ ينظر في الشكاوي الواصلة من الفلاحين على عمال التجنيد، ولم تكن السلطات

تتجاهل هذه الشكاوي وتلك هي ميزة من مميزات تنظيم الدولة الذي شكله الأتراك العثمانيون.

كانت عدالة الإدارة العثمانية تسبق الفتوحات وتسهل إلى حد ما من ممارسة سياسة العثمانيين التوسعية، وكان الاهتمام بشكاوي الرعايا كثيراً ما يساعد على إزالة الاضطرابات الاجتماعية في حال حدوثها، فحين كانت الحكومة المركزية قادرة على الإشراف على أحوال الإمبراطورية بأسرها وعلى ما تفعله السلطات المحلية، كان الرعايا واثقين من أن المخالفين للنظام لا مفر لهم من العقاب.

من الطبيعي أن عدد الصبية المجندين لسدّ حاجات الفيلق الإنكشاري التكميلية كان في مختلف إجراءات التجنيد (ديوشيرمة) يتغير بمقتضى هذه الحاجات، التي غالبًا ما كانت تتعلق بكمية الخسائر التي يمنى بها الجيش الإنكشاري في الحملات العسكرية الجارية، والشاهد على ذلك المرسوم السلطاني الصادر عام ١٥٧٣ (مرحلة الحرب التركية الفارسية) حول إعادة إجراء التجنيد ديوشيرمة في الأناضول، وقد قيل في ذلك المرسوم المرسل إلى ضابط الفيلق الإنكشاري ـ الذي كلف إجراء ذلك ـ إنه على الرغم من أن التجنيد في سناجق ماراش وكَيْسَري ونيفدي وبيشهري قد تم، ينبغي إجراء التجنيد الإضافي للصبية في بيلربيهات كرمان وذو القادر.

كان توصيل المجندين إلى إستنبول بأمان وسلامة همًا من هموم الحكومة، التي حاولت قدر استطاعتها حماية السكان من تعسف عمال التجنيد والحراس، في المرسوم الحكومي عن عام ١٥٧٣ باسم قاضي روميليا حذّر بشدة من أن يؤخذ من السكان ما يزيد عن الحاجة من المواد الغذائية في أثناء توصيل المجندين، كما منع المرسوم التوقف في قرية واحدة لفترة تزيد عن يومين أو ثلاثة، ورسم الطريق إلى العاصمة بحيث لا يمر بقرية واحدة أكثر من مرة، كان عمال التجنيد ينذرون بأن

طريقهم إلى العاصمة العثمانية يجب أن يكون مستقيمًا ويمنع عليهم أن يسلكوا طريقًا أعوج ومصادرة الأملاك من رعايا السلطان لصالح المجندين، وابتزاز أموال السكان، وثمة دعوة في مرسوم عام ١٥٨٤ بعدم أخذ المواد الغذائية الزائدة أثناء المبيت، ذلك المرسوم الذي أصدر بمناسبة إجراء التجنيد ديوشيرمة في محافظة طرابزون.

عند إجراء تجنيد ديوشيرمة في روميليا والأناضول لم يخضع له ـ وفقًا للقانون ـ إلا المسيحيون، بيد أن هذا لم يخل من استثناءات، ففي البوسنة مثلاً كان التجنيد ديوشيرمة يطبق على المسلمين كذلك، كانت نتيجة انضمام البوسنة إلى الإمبراطورية العثمانية اعتناق السكان السريع للإسلام بمحض إرادتهم، لذلك قرر السلطان محمد الثاني إظهار إحسانه لسكان البوسنة فوافق على تلبية طلبهم بإجراء التجنيد ديوشيرمة بينهم، وتبعًا لذلك كان عمال التجنيد عند إجرائهم ديوشيرمة في البوسنة لا ينظرون ما إذا كانت عائلة المجند مسيحية أم مسلمة بل يأخذون الصبية أجمعهم إلى الفيلق الإنكشاري.

من الصعب الحكم بصحة الرواية التي أشارت إلى سرعة دخول سكان البوسنة في الإسلام فقد كان إجراء التجنيد فيها صعبًا، لأنه عند حظر تجنيد المسلمين ـ الذين هم في الغالب أتراك ـ كان من الممكن أن ينضم إلى عداد المجندين أبناء الأسر التركية مقابل دفع رشوة، وكان ذلك مخالفة لـ «نقاء» التنظيم، وهذا ما أحدث ظاهرة ـ انتشرت على نطاق واسع في نهاية القرن السادس عشر ـ ألا وهي تسرب «الغرباء» (أجنبي) إلى الفيلق الإنكشاري الذين كان أكثرهم أتراك الجنسية، وهذا ما جاء في مدونة تاريخية من تأليف مصطفى سيلانيكي ألفها في الربع الأخير من القرن السادس عشر، فسَّر مدونو التاريخ العثمانيون أن عاقبة تسرب «الغرباء» إلى الفيلق الإنكشاري كانت مخالفة لنظام الفيلق الداخلي ودليل على عدم الانضباط

وهذا ما قلل من فعاليته الحربية، ويمكن إرجاع ظاهرة سعي السكان الأتراك نحو إلحاق أولادهم بالجيش الإنكشاري إلى التزايد الجنوني للسكان الذي حدث في النصف الأخير من القرن السادس عشر في الإقليم المتوسط بأسره، فالفلاحون الأتراك إذا سلموا أبناءهم إلى الفيلق الإنكشاري كان بمقدورهم أداء مساعدة مادية لهم في حال صار أولادهم زائدين عن الحاجة في الأعمال الزراعية، أضف إلى ذلك أنه كان من المستحيل ألا يستلذ الأتراك للخدمة في جيش المعية السلطانية، إذ إن الأتراك كانوا يعدّون الخدمة العسكرية مهنة شريفة ومهيبة، وأخيراً كان بواسطة التجنيد ديوشيرمة تتألف الحاشية «إتش أغلان» (الوصفاء) الذين كانوا بعد مرورهم بتدريب خاص ينضمون إلى الجهاز البيروقراطي في الدولة، ويترقون في مناصب البلاط السلطاني، وفي بعض الأحيان يبلغون درجة الوزير الأعظم، لذا كان الأتراك يتشوقون إلى التجنيد ديوشيرمة الذي منعوا عنه خلال فترة طويلة.

في غضون ذلك لم يكن السكان المسيحيون مسرورين من «امتيازاتهم» حتى في البوسنة ـ حيث كان السكان كما تفيد الروايات يرحبون بديوشيرمة ـ حدث أن البعض كانوا يرفضون ذلك التجنيد.

على الرغم من أن أكثر من كان ينضم إلى عداد المجندين من أبناء الفلاحين كانت ديوشيرمة تشجع تجنيد أبناء القمة المسيحية المحلية، وكان تجنيد أولاد النبلاء المحليين وخاصة في الفترة الأولى من تطور الدولة العثمانية أداة هامة لربط علاقات وثيقة بين الحكومة والإقطاعية المحلية والقمة غير الإسلامية والكنيسة المسيحية، وكما ذكر آنفًا ليس كل المجندين كانوا يترقون في خدمتهم في الجيش الإنكشاري، كان الكثير منهم ـ بما فيهم أبناء القمة المسيحية المحلية ـ ينضمون إلى مدرسة «إتش أغلان» التي كانت نواة الإدارة العثمانية، كان يلتحق بهذه المدرسة الصبية حسان الوجوه وأبناء النبلاء، وكانوا يهيئونهم لخدمة الدولة ويسكنونهم في أماكن خاصة

من القصر تحت مراقبة مربيهم ونظارهم، كان النسق الأعلى من السلطة الحكومية في الإمبراطورية العثمانية يكمل في النصف الأخير من القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر من غير الأتراك وذلك إما عن طريق نظام ديوشيرمة وإما من أسر السبايا بصورة مباشرة.

يبلغ عدد المجندين من مئة إلى مئة وخمسين شخص عندئذ يسجلونهم في الدفتر ويلبسونهم ثيابًا خاصة معدة لهم (رداء طويل حتى أخمص القدمين وقبعة ذات ريش، ثم يأخذونهم تحت حراسة الإنكشاريين إلى إستنبول، وعند بلوغ العاصمة كانوا ينزلونهم في منازل أهل المدينة، وفي الصباح يأخذونهم إلى مقر الآغا الإنكشاري حيث يتعرض المجندون للتفتيش «يوقلاما»، حيث يشارك فيه طبيب (جراح) خاص كان عليه التأكد من عدم وجود المجندين «المختونين» أي المسلمين.

عند إجراء فحص المجندين «الأغلان العجم» في ديوان الآغا ثم نقلهم إلى مختلف أنواع الخدمات التي تسبق الالتحاق بالفيلق الإنكشاري، كما ذكر آنفًا كان الصبية حسان الوجوه يوظفونهم في القصر، يجعلونهم إتش أغلان، أما الفتيان ذوو البنية القوية والشجعان فكانوا يوظفونهم في وظيفة «البستانجي» حيث يعملون في بساتين السلطان ويقومون بحراستها، وثمة صبية كانوا يلتحقون بثكنات العاصمة وهم الأغلان العجم، العاملون في العاصمة في مختلف الخدمات الاجتماعية، وبعض المجندين كانوا يباعون في الأرياف للراغبين في الحصول على عمّال.

كل الأولاد الذين بيعوا للأتراك كانوا يعملون دون مقابل، بل كانوا يعيشون بإعالة شاريهم، عادة كان الأتراك يشترون صبيًا أو صبيين، أما الأغلان العجم فكانوا يتعلمون اللغة التركية ويستوعبون العقائد والطقوس الرئيسية في البيئة

الثقافية الجديدة عليهم، كان الأتراك يعاملون هؤلاء الفتيان على أنهم عبيد، ولو أنهم شرعًا لم يكونوا عبيدًا، وبعد أن يخدموا عند الأتراك عامين أو ثلاثة أو أكثر (كانت فترة الخدمة تصل تارة إلى ثمان سنوات) حسب احتياجات إستنبول في الإنكشاريين الجدد، كان الأغلان العجم يعودون إلى العاصمة العثمانية، هذه المرة كان الفتيان مسرورين من ذهابهم إلى إستنبول لأنهم بذلك يتخلصون من رقهم ومن العمل بالأجرة عند الأتراك.

عند بلوغهم إستنبول لم يكن الأغلان العجم ينضمون مباشرة إلى صفوف الإنكشاريين، بل كانوا يقدمون إلى الآغا الإنكشاري الذي كان يسلمهم إلى الخدمة تحت رئاسة الآغا الإستنبولي، وهو رئيس كل الأغلان العجم العاملين في الوظائف الاجتماعية في إستنبول الساكنين في ثكنات خاصة «أوضة»، هذه المرة كان الأغلان العجم يتقاضون على أعمالهم أجورًا.

كان الآغا الإستنبولي المشرف على فيلق العاصمة للأغلان العجم يتولى منصبًا عاليًا في جدول الدرجات في الفيلق الإنكشاري ويشكل سلطته من كبار الضباط «جورباجي» و«بيلوك» (السرايا) من الأغلان العجم، ويشرف على عدد كبير من الأعمال الحكومية التي كان يتسلمها لشراء الحطب وتوصيله إلى القصر السلطاني، وعلى نفقات زوارق الشحن الخاصة التي كان يخدم فيها كذلك الأغلان العجم الذين يرأسهم، وكان الآغا الإستنبولي نفسه قائدًا لبيلوك من بيلوكات الأغلان العجم.

كان الأغلان العجم الموجودون تحت قيادة الآغا الإستنبولي يسكنون في ثكنات «أوضة» بنيت لهم خصيصًا، وينقسمون إلى ثلاثين «بيلوك»، عمل هؤلاء الأغلان العجم في بناء المنشآت العامة في إستنبول وترميمها وعملوا عتالين، فكانوا يفرغون شحنات الحطب وغيرها من مواد البناء الواصلة إلى العاصمة.

في بادئ الأمر كان الأغلان العجم الساكنون في ثكنات إستنبول يستلمون الغذاء من مطبخ القصر السلطاني ثم انتقلوا إلى التوفير الذاتي للمؤن، وكانوا يصلون في مسجد مخصص لهم حيث عين لهم مؤذن وإمام بالأجرة، كما كان لدى الأغلان العجم حمام خاص شيد لهم في عهد سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠).

عمل أغلب الأغلان العجم في بناء المنشآت العامة في العاصمة، وشهدت هذه الأعمال بعض الاستهتارات بالمناصب من جهة موظفي الفيلق الإنكشاري إذ تجرأ بعضهم على استغلال القوة العاملة المجانية لمصالحهم الشخصية، حدث عام ١٥٩٢ أن عزل بسبب هذا الاستهتار الكاتب الإنكشاري الشاعر والمؤرخ العثماني المشهور مصطفى علي، فذات مرة كان السلطان مراد الثالث يقوم بجولة في إستنبول فرأى الإنكشاريين والأغلان العجم يعملون في تعمير بيت الكاتب الإنكشاري.

إلى جانب الأغلان العجم العاملين في التعمير كان هناك عدد لا يستهان به من الشبان يعيّنون لبعض الأعمال التي كانت تسبق التحاقهم بالفيلق الإنكشاري، عمل الكثير من الأغلان العجم في حدائق السلطان وبساتينه ومزارعه وكرومه حيث مارسوا أعمالاً زراعية فقط.

شارك الأغلان العجم كذلك في الأعمال الترميمية، وصف المؤرخ مصطفى سيلانيكي عاصفة رعدية شديدة لم يسبق لها مثيل وقعت على ضواحي إستنبول في عهد السلطان سليمان، تلتها سيول غزيرة تحطمت على أثرها الجسور، فأمر السلطان بتشغيل الأغلان العجم في ترميمها، إلى جانب كثير من العمال وأرباب العمل الآخرين، فنالوا مكافأة من السلطان على ما بذلوه من جهد في ذلك.

كان بعض الأغلان العجم يعينون للعمل في بناء السفن الحربية، فبعد هزيمة أسطول السلطان في معركة ليبانتو عام ١٥٧١ ـ حيث فقد الأتراك عدداً هائلاً من

سفنهم الحربية ـ أسرعوا في بناء الأسطول الجديد وخصصت خزينة الدولة لأجله أموالاً كثيرة، شارك في هذه الأعمال الكثير من الأغلان العجم حيث عملوا في جلفطة السفن والنجارة وغيرها من الأشغال.

أما الأغلان العجم الآخرون فبعد أخذهم من سادتهم الأتراك كانوا يبعثون إلى التعلم ثم العمل في الورشات الحكومية لصناعة الأسلحة كما حدث في طوبخانة حيث كانوا يسجلونهم تلاميذ (شاكرد) عند المدفعيين، وفي العادة كان مدير ورشات الأسلحة في إستنبول طوبجي باشي يحدد للسلطان في رسالة العدد الذي يحتاجه من شبان الأغلان العجم الأقوياء ليعملوا فيها، كان الأغلان العجم عمالاً مساعدين في صهر المعادن ويتعلمون الحدادة والنجارة، وكذلك كان بعضهم يشغلون في ورشات لصنع عربات المدافع (طوب عربسي).

إن الأشغال الجسدية الشاقة ـ التي كان يمارسها الأغلان العجم ـ والتوتر العصبي ـ الذي كانوا يعانون منه لانقطاعهم الأبدي عن أهلهم وبيئتهم الأصلية ـ واضطرارهم إلى استيعاب أعراف البيئة العرقية والدينية والثقافية الأخرى، غالبًا ما كانت هذه العوامل تؤثر في حالتهم الصحية والمعنوية، فكان البقاء منهم للأقوى، كانت نسبة الوفاة بين الأغلان العجم مرتفعة، وكثير منهم حاولوا الهرب من الخدمة في الجيش الإنكشاري.

بعد أن يُمضي الشبان في الخدمة في مركز الأغلان العجم عدة سنوات (لم تكن هنالك فترة محددة للخدمة) كانوا يسجلونهم في الفيلق الإنكشاري ويعينون لهم أجورًا، لم يكن هنالك انتظام في لحوق الأغلان العجم بالفيلق الإنكشاري، بل كان ذلك خاضعًا لوجود وظائف شاغرة في الفيلق أو حاجات أخرى، وكثيرًا ما كان يعود ذلك إلى أماكن خدمة الأغلان العجم.

وفي العادة حين كانت تدعو الحاجة إلى تجنيد عدد لازم من الأغلان العجم في الفيلق الإنكشاري كان يرسل إلى الآغا مرسوم يبلغ فيه عن ضرورة ضمّ عدد معين من الأغلان العجم إلى صفوف الإنكشاريين (كان ذلك العدد يحدد في المرسوم) للعمل في الوظائف المختلفة، وتسجيل أسمائهم في الدفتر الإنكشاري، وكان عدد الملتحقين يتغير في كل مرة حسب احتياجات الفيلق الإنكشاري، وأحيانًا كانت تنضم أعداد كبيرة من الأغلان العجم إلى صفوف الإنكشاريين، فلما ارتقى السلطان محمد الثالث العرش رُشّح عدد هائل من الأغلان العجم إلى الخدمة في الجيش الإنكشاري.

كان الأغلان العجم يرزحون سنوات عدة تحت أعمال جسدية شاقة لا علاقة لها بالخدمة العسكرية، فمن البديهي أنهم كانوا يسعون بشتى الوسائل نحو الانضمام إلى الفيلق الإنكشاري إذ إن الإنكشاريين يتقاضون أجورًا أعلى ويتمتعون بمنزلة اجتماعية عالية ونفوذ.

بناء على القواعد الموجودة ينبغي أن يلتحق بالخدمة في الجيش الإنكشاري بالدرجة الأولى الأغلان العجم الأكثر خدمة والأكبر سنًا، وحين استلام الآغا الإستنبولي الطلب كان يصنف «تذكرة» في التصريح الكتابي بإخراج الأغلان العجم الذين مروا بخدمة أطول من غيرهم، عند ذلك كانت تجري مراجعة المعطيات حول الأغلان العجم المرشحين للخدمة في الجيش الإنكشاري.

وأحيانًا كانت بعض الظروف السياسية تستدعي ضم أعداد كبيرة من الأغلان العجم إلى صفوف الإنكشاريين؛ ففي آب عام ١٥٩٩ ألحق بالخدمة الإنكشارية ألف أغلان عجمي، وكان سبب ذلك الحاجة الماسة إلى إرسال الإنكشاريين إلى الأناضول بغية قمع التمرد الذي نظمه الوجيه حسين باشا.

حسب العادة كان الملتحقون الجدد يوزعون إلى «أوضات» أو ثكنات معينة، وكان المسجلون في أوضة واحدة يسرعون إلى الوصول إلى أماكن خدمتهم الجديدة ليسبقوا غيرهم، لأن من يصل إلى الثكنة قبل غيره يصير أعلى درجة من الذي يأتي بعده، كانت الأسبقية في المقام ولو بهذه الصورة فيما بعد تعطى الأفضلية في الترقي في درجات الخدمة وزيادة الأجرة.

كان كل أغلان أعجمي قبل التحاقه بالفيلق الإنكشاري يتقاضى أجرة قدرها آقجة أو آقجة ونصف أو اثنتان، وبعد التحاقه بالإنكشاريين كانت أجرته تصل إلى ثلاثة آقجة، بيد أنه في نهاية القرن السادس عشر تغيرت هذه الظاهرة، وكان الكثير من الأغلان العجم قبل التحاقهم بالفيلق ينالون بوسيلة أو بأخرى أجرة قدرها سبع أو ثمان آقجة فلذا بعد التحاقهم بالإنكشاريين كانت أجرهم تبقى كما هي، فلم يكن لأولئك الإنكشاريين في الفترات الأولى من خدمتهم أية فائدة من الاجتهاد في أداء الخدمة.

قبل أن يصبح أي إنكشاري عضواً ذا أهلية في الأوضة الإنكشارية كان عليه خلال فترة معينة أن يخدم الإنكشاريين القدامى ويمارس الأعمال المنزلية في الثكنة، فيقوم بتنظيف الثكنات ومسح الأحذية وغسل الأواني بعد تناول الإنكشاريين القدامى وجبتهم، وقطع الحطب وإضاءة المصابيح في فترات المساء، والذهاب إلى الأسواق لشراء الطعام.

كان يعطى كل ملتحق بالخدمة العاملة آلتونين، «دوزن»، كانت هذه الأموال تخصص لشراء فرس عند قيام الحملات العسكرية، طبعًا لم يكن الآلتونان يكفيان لشراء فرس، كما أن الفرس لم يحتج إليها كل الإنكشاريين المشاة إذ لم يستعمل أغلبهم إلا خيول النقل التي كانت مخصصة فقط لحمل الأثاث، كانت أموال «دوزن» الموزعة في فترات السِّلم يرابى بها، وعند إعلان حملة تقبض من المدينين

مع فوائدها فيشاركون بها في شراء الخيول اللازمة، وبعد نهاية الحملة كانت الخيول تباع وتستعمل أثمانها في المراباة من جديد، كانت المراباة نشاطًا مألوفًا في حياة الإنكشاريين ممن يملكون النقود، ومن بمقدورهم ادخارها، وكثيرًا ما كانوا يقرضون زملاءهم الإنكشاريين فيربحون منهم من كل عشر آقجة إحدى عشرة ونصف أي بنسبة ١٥٪.

كما ذكر آنفًا عاش الإنكشاريون في ثكنات مخصصة لهم تسمى «أوضة» كانت كل ثكنة تشكل ثلة أساسية في الفيلق الإنكشاري أي «أورتا» ويسمونها في الأدب «سرية»، شيدت الثكنات الإنكشارية في إستنبول فور استيلاء الأتراك على المدينة سنة ١٤٥٣، وتضمنت الروايات الإنكشارية قصة فحواها أنه تم اختيار مكان للثكنات حيث داست أقدام الإنكشاريين الأوائل أرض القسطنطينية بعد اقتحامها ورفعوا رايتهم، فتفيد الأساطير بأن الثكنات الإنكشارية الأولى قد شيدت في ذلك المكان.

بلغ عدد «الأورتات» في الفيلق الإنكشاري ١٠١ أورتا يرأس كل منها ياياباشي، وكان واحد منهم يرأس الجميع ويسمى «باش ياياباشي»، حسب جدول درجات الفيلق الإنكشاري وكان بانتظاره منصب الضابط الأعلى في الفيلق الإنكشاري يسمى «باش شاويش»، كانت أجرة ياياباشي الإنكشاري أربعًا وعشرين آقجة يوميًا وكان «الياياباشي» يرتدون أغطية رأس خاصة مزينة بالريش.

وجب على الإنكشاريين من الأورتات ـ المرؤوسين لياياباشي ـ تنفيذ خدمات الحامية في المدن الواقعة بالقرب من الحدود، وفي أوقات السلم كانوا يؤدون تلك الخدمة مداولة، وكان من واجبات الإنكشاريين حراسة قوافل العربات المشحونة بالأموال الحكومية المرسلة من المحافظات إلى العاصمة.

كانت أربع أورتات من الفيلق الإنكشاري تشكل «صولاق» يرأسها «صولاق باشي»، تفيد البيانات العائدة إلى عهد محمد الثاني الواصلة إلينا أنه في المرحلة الممتدة ما بين ١٤٧٢-١٤٨١ كان عدد الصولاق السلطانيين ثمانين يشكلون حرس السلطان الشخصيين، يرافقونه في كل مكان حين يركب حصانه، وكانوا يرافقون السلطان إما إلى خيمته وإما إلى قصره إلى أن يترجل عن فرسه، ومن ثم يقومون بحراسة الخيمة حيث يوجد الحاكم الأعلى.

كان على الصولاقيين إجادة استعمال السلاح الأبيض ورمي السهام من الأقواس، وفي القرن السادس عشر كان الصولاقيون قبل نيلهم مقام الصولاق يمرون بمباراة في رمي السهام، فكان على كل مرشح للصولاق إظهار قدرته في الرماية على مرأى السلطان، وعادة كان ذلك الحفل يجرى أيام الجمع حالما ينتهي السلطان من صلاة الجمعة.

على الرغم من وجود حظر على زواج الإنكشاريين في بادئ الأمر - بسبب كونهم رقيقًا - سرعان ما حظي أولئك الإنكشاريون الذين خدموا سنوات وأصبحوا محنكين بإذن للزواج، ثم بدأ هذا الحق يسري على الآخرين، وبخاصة ياياباشي وكبار الإنكشاريين، وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر أصبح زواج الإنكشاريين قانونيًا للجميع، كان على كل إنكشاري يرغب في الزواج أن يستلم تصريحًا بذلك من أوضة باشي، وهذا ما أتاح لهم العيش خارج الثكنات، وفيما سبق - لما كان الملاك الإنكشاري مكونًا من الغلمان - كان يجب الحصول على تصريح من السلطان، بيد أنه في القرن السادس عشر لما انتشرت عملية ديوشيرمة على نطاق واسع تغير تركيب الفيلق الإنكشاري، فأصبح يخدم في صفوف الإنكشاريين رعايا السلطان الأحرار شرعًا الذين كانوا يملكون القدرة على تغيير مكانتهم.

كان على الأوضة باشي مراقبة الإنكشاريين كي لا ينسوا واجباتهم الدينية ويؤدوا الصلوات بانتظام، كان أوضة باشي كذلك يمثلون من هم تحت وصايتهم في المجالس التي كانت تنعقد بانتظام في مقر رئيس الفيلق الإنكشاري وهو الآغا الإنكشاري، كان يحضر ذلك المجلس كبار ضباط الفيلق.

لم يكن يحضر المجلس الإنكشاري كل الأوضة باشي بل من كان لديهم أشخاص تحت وصايتهم يعرضون قضاياهم للمناقشة في المجلس، كانت تناقش في هذه المجالس الشكايات والطلبات المقدمة من الإنكشاريين، وكان لا بد من وجود أوضة باشي مقدم الطلب أو الشاكي.

كان الأوضة باشي يصنفونا قوائم الإنكشاريين المسجلين لكلّ حملة في كلّ سنة، وعلى أساس تلك القوائم كان من حق الأوضة باشي أن يسمح لأي إنكشاري بالالتحاق بخدمة خاصة «قولوق» لحراسة أي مكان، أو أن يمنعه من ذلك، قد تتم تلك الخدمة في إستنبول (في الجمارك أو أبواب المدينة أو غيرها) أو في محافظة داخلية، ففي نهاية القرن السادس عشر أسكن أغلب الإنكشاريين في المحافظات.

كان يتولى المكانة الخاصة في الفيلق الإنكشاري جماعة من «السكبان» الذين كانوا يرافقون السلطان إلى الصيد.

في القرن الرابع عشر كان السكبان يصاحبون السلاطين إلى الصيد فيقودون الكلاب السلوقية من زمامها، ويحملون بأيديهم قضيبًا رفيعًا من خيزران ذا رأس فضي، كان السكبان كالإنكشاريين يرتدون أغطية الرأس نفسها بيد أنهم كانوا يتمتعون بمكانة أعلى من سائر الإنكشاريين.

تولى أعلى المناصب السكبان الفرسان الذين يتقاضون أجوراً عالية قدرها ١٣-١٥ آقجة، كان في حوزتهم خيول عليهم الاعتناء بها على حسابهم كما عليهم

مرافقة السلطان إلى الصيد على الخيول، كان لكل سكباني فارس سكباني جندي سائس. وينتمي الخياليون إلى ثلاثة بيلوكات ولا يشاركون في حملات عسكرية إلا إذا كان يرأسها السلطان نفسه.

بما أن الآغا الإنكشاري، لكي يزيد من نفوذه، كان بحاجة إلى معية فقد أعطى واحداً وستين (بيلوك) من الإنكشاريين في كل منها خمسون إنكشارياً، ثم أصبح عدد الإنكشاريين في البيلوكات يزداد فبلغ اثني عشر ألف شخص (أوائل القرن السابع عشر).

مع ازدياد عدد بيلوكات الآغا الإنكشاري وازدياد أهمية هذه الوظيفة كان لا بد من تأسيس مقر خاص لآغا الفيلق الإنكشاري، فاستلم الآغا لأهداف وظيفيّة منزلاً من أملاك الأوقاف، كما كان في حوزته بعض ورشات المهن اليدوية لقضاء حاجات الفيلق الإنكشاري.

كان في عداد البيلوك الإنكشاري «كتخدا بيه» شخص ثالث برتبته ثانٍ بأهميته في الفيلق الإنكشاري، وعادة ما كان ياياباشي يعين في وظيفة كتخدا بيه، أما كتخدا بيه فكان يعين سلك قواد الأورتات والبيلوكات الإنكشارية، ويشرف على تعيين الإنكشاريين حراساً للمؤسسات في إستنبول والمحافظات.

كان كتخدا بيه يداً يمنى للآغا الإنكشاري ورئيساً واقعياً للفيلق الإنكشاري، ومع مرور الزمن ارتبطت سلطته مع سلطة الآغا الإنكشاري ارتباطاً وثيقاً، لدرجة أنه في حال عزل الآغا الإنكشاري من منصبه غالباً ما كان يعزل معه كتخدا بيه.

وكانت في الفيلق الإنكشاري وظيفة مهمة أخرى وهي وظيفة «المحضر» كان المتوظف بها يسمى محضر آغا أو محضر باشي، عليه أن يكون دائماً في مصلحة الوزير الأول للمجلس الحكومي أو ما يسمى بالوزير الأعظم، كان المحضر يمثل

الإنكشاريين عند الوزير الأعظم وعند الضرورة ينظم لقاءات بين الإنكشاريين الملتمسين والوزير الأعظم، بعد الانتهاء من صلاة العصر كان على المحضر باشا الحضور إلى الآغا الإنكشاري وبكلّ الأمور التي تمت مناقشتها في مصلحة الوزير الأعظم، كما يخبره الوزير الأعظم عن القضايا التي درسها الآغا الإنكشاري في مصلحته، وكثيراً ما كان محضر باشا ينفذ واجبات الساعي لأعمال خاصة موصلاً المرسومات العليا إلى المراجع المختلفة.

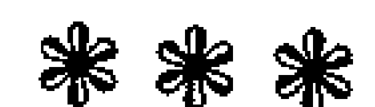
كان من ضمن الموظفين الخاصين في الفيلق الإنكشاري «عصص باشي» المنفذ لواجبات الشرطة في الفيلق، ويتمتع بسلطته في إستنبول، كان عصص باشي المختار من بين الإنكشاريين من رتبة بيلوك باشي (من بيلوكات الآغا الإنكشاري) يأخذ إلى السجن كلّ من قبض عليه الآغا الإنكشاري من الإنكشاريين إذا ارتكب مخالفة خطيرة، كان عصص باشي مساعداً لـ «صو باشي» فيرافقه في جولاته بالمدينة معلناً الأوامر والنواهي السلطانية، كما كان عصص باشي ناظراً على الخمارات (مي خانة) والمقاهي في إستنبول، وينال على ذلك مكافآت بجمع الإتاوات منها.

كان تحت إمرة الكاتب ـ وهو رئيس المكتب الإنكشاري ـ كل دفاتر الإنكشاريين ودفاتر الأغلان العجم، وكتب السجلات التي كانت تعاد كتابتها كل ثلاثة أشهر قبل دفع المرتب الذي كان يتم كل ثلاثة أشهر، كانت الدفاتر تحتوي على قوائم أسماء الإنكشاريين والأغلان العجم، وعلى سجل ألقابهم ووظائفهم، وأرقام وحداتهم التي ينتمون إليها، ومبالغ أجورهم التي يقبضونها، وبما أن الوظائف والأجور كانت تتغير باستمرار بالإضافة إلى تغير مقامات بعض الإنكشاريين والأغلان العجم (كالتقاعد وتسجيل أغلان عجمي ما إلى الخدمة وهلم جرى) والحاجة المستمرة إلى قوائم المشاركين في حملات عسكرية، كانت الدفاتر تحتاج

إلى التجديد دومًا مع حساب كل التغيرات التي طرأت، إلى جانب هذا كانت تلك الدفاتر وثائق مالية، فيها تدفع الأجور وغيرها من المستحقات المالية من الخزينة.

كانت الانتهاكات المختلفة توفر فرصًا ملائمة لتسجيل الغرباء في قوائم الإنكشاريين بصورة غير قانونية، أو زيادة الأجرة مقابل الرشوة وغيرها من التذييلات التي كانت تزيد من نفقات الخزينة على إعالة الفيلق الإنكشاري، وتزيد من عدد الجيش الإنكشاري، وبدءًا من أوائل القرن السابع عشر صارت الحكومة عاجزة عن مكافحة الظواهر من هذا القبيل، وذلك بسبب انتشار الرشوات على نطاق واسع في الجهاز البيروقراطي الحكومي، وانتشار عملية شراء أية وظيفة حكومية على وجه العموم، وفي الفيلق الإنكشاري على وجه الخصوص وكادت تلك العملية تصبح قانونية.

أدى التركيب التنظيمي الحاد للفيلق الإنكشاري ونظام الترقي في الخدمة وتغير الأجور المخصصة لكل وظيفة إلى ظهور ظروف مواتية لتشكل النظام المنعزل للفئة العسكرية الخاصة التي كانت مضطرة على أن تعمل على نفسها للحفاظ على استقلاليتها، بيد أن نظامًا كهذا استحال عليه أن لا يبقى تحت تأثير العوامل الداخلية والخارجية على حد سواء، وبما أنه كان جزءًا لا يتجزأ من التركيب الاجتماعي في الدولة العثمانية وحلقتها الهامة، كان لا بد للفيلق الإنكشاري المتأثر بما حوله من تغيرات عملية أن يؤثر في تطور الدولة العثمانية ذاتها، ولكي نتمكن من استكشاف مراحل تطور الجيش الإنكشاري داخليًا وخارجيًا، لا بد من لمحة تاريخية حول تداول الفيلق الإنكشاري أثناء تشكل تنظيم الدولة العثمانية وتطورها وعرض الوظيفة العسكرية ذاتها ـ التي وضعها السلاطين العثمانيون ـ وجيش المشاة المحترف.



الفصل الثالث ..

الفيلق الانكشاري وأهميته الحربية والسياسية في مرحلة توطد التنظيم الدولي العثماني من القرن الخامس عشر حتى النصف الأول من القرن السادس عشر

الفصل الثالث

الفيلق الإنكشاري وأهميته الحربية والسياسية في مرحلة توطد التنظيم الدولي العثماني من القرن الخامس عشر حتى النصف الأول من القرن السادس عشر

ما نعرفه عن المرحلة الأولى من تاريخ الجيش الإنكشاري قليل، إذ لم تصل إلينا سوى بيانات زهيدة من مصادر متأخرة الظهور، يفترض أنه في عام ١٣٦٥ نقل الأتراك عاصمتهم من برصا إلى أدريانوبول (أدرنة)، وكما تفيد الروايات شيدت هناك الثكنات الإنكشارية الأولى، لما تولى السلطان مراد الأول السلطة استخدم جيش الحاشية لتوثيق حقوقه بين الأرستقراطية العسكرية في روميليا.

في الوقت نفسه تقريبًا بعد أن استولى الترك العثمانيون سنة ١٣٧٦ أو ١٣٧٧ على غاليبولي (غيليبولو بالتركية) أسر عدد كبير من الشبان المسيحيين الذين أطلقت عليهم تسمية «الأغلان العجم»، وشكل منهم الفيلق (الموقد) الخاص في غيليبولو، عمل الأغلان العجم جذّافين على السفن التركية الناقلة للجيوش عبر المضيق.

ظهر تنظيم الأغلان العجم للحاجة الماسة إلى وجود الجذافين باستمرار على سفن النقل إذ إن الناس الصدفيين وجنود يايا العاملين في هذا المجال كانوا قليلي النظام والانضباط بسبب عدم رغبتهم في العمل على السفن، كما أن الأجرة اليومية لدى جيوش يايا كانت تبلغ ٢ آقجة وهذا ما كان ينعكس سلبًا على الميزانية، فلذا أقر

استخدام الشبان الأسرى المجندين في الجيش الإنكشاري في التجذيف، ومن ثمّ أصبح التجذيف خدمة إلزامية تسبق الالتحاق بالجيش الإنكشاري، وكانت أجرة الأغلان العجم أقل من أجرة جنود يايا بمرتين أي آقجة واحدة يوميًا، وهكذا تمكنت الخزينة من توفير المال، وكان على الأغلان العجم العمل في التجذيف من خمس سنوات إلى عشر سنوات ومن ثم يتم إلحاقهم بالجيش الإنكشاري.

ثمة بيانات تفيد أنه منذ عهد مراد الأول (١٣٦٢-١٣٨٩) أو عهد بيازيد الأول (١٣٨٩-١٤٠٢) تم بتوجيه من القائد العسكري صاحب النفوذ تيمورتاش باشا ـ الذي كان يرأس الحملات القائمة على الأراضي الأوروبية ـ تمَ إقرار تسليم الشبان المسيحيين المأسورين والإنكشاريين إلى الأتراك، وهذا ما يخبر عنه مدون التاريخ العثماني إدريس بطلسي، بيد أن مؤلف «مبدئي قانون» ـ الذي اعتمد في هذه المسألة على الروايات الشفهية حول الفيلق الإنكشاري ـ يؤكد أن الأغلان العجم بدأ تسليمهم إلى الأسر التركية فقط في عهد مراد الثاني بعد سقوط القسطنطينية.

يفيد المؤلف نفسه أنه بعد الاستيلاء على القسطنطينية قرر محمد الثاني تأسيس فيلق الأغلان العجم فيها على غرار الفيلق الواقع في غيليبولو الذي أسس قبله، ولأجل تنفيذ خطط السلطان الاستعمارية الواسعة كان لا بُدّ من مضاعفة عدد الجيش الإنكشاري، فقد بلغ عدد الأغلان العجم في عهده ثلاثة آلاف شخص، فبنيت ثكنات عادية على واحد وثلاثين مسكنًا حيث تم نسق بيلوكات (سرايا) الأغلان العجم، برئاسة القواد المرؤوسين للآغا الإستانبولي الخاص ناظر كل الأغلان العجم في إستنبول.

على الرغم من بقاء الإنكشاريون، فترة طويلة في جو تسيطر عليه اللغة والعادات التركية، وتعلمهم الطبيعي للغة إلى أن يحين التحاقهم بالخدمة العسكرية فقد كانوا يتكلمون فيما بينهم بلغتهم الأم؛ أي بالبلغارية والصربية والألبانية

والكرواتية وغيرها، لاحظ الكثير من المراقبين المعاصرين أن أغلب أفراد الجيش العثماني كانوا يتكلمون بلغات سلافية.

كان الإنكشاريون الساكنون في الثكنات المنشأة في أدرنة يتقاضون في البداية أجرة من الدولة وكان قدرها ٢ آقجة، ومنذ عهد مراد الثاني (١٤٢١-١٤٥١) صاروا يوزعون عليهم أجواخًا لتخييط القفطانات الشتوية بالإضافة إلى الأقواس والسهام، وفيما بعد أخذوا يدفعون لهم من أجل هذه الحاجات أموالاً، كان الجيش الإنكشاري في بادئ الأمر عبارة عن جيش من القواسين في البلاط، والدليل على أهمية موقعهم أن رئيس الإنكشاريين كان يعدّ رئيسًا لحاشية «السكبان» أي «سكبان باشي» الذي كان يرافق السلطان إلى الحملات ويشاركه في ممارسة هوايته المفضلة في الصيد، تلك هي صلة الوصل بين الإنكشاريين والسرايا المرتبطة بشكل أو بآخر مع الصيد السلطاني.

منذ البداية كشف جيش البلاط عن طبيعته وهي الجشع والطمع في المال، فمنذ أن قام مراد الأول بحملة على الأناضول اضطر أن يبرد من حمية حراسه الذين شنوا عراكًا من أجل العملة الذهبية التي كانوا يقذفونها على الجيش العثماني ليظهروا بذلك إخلاصهم كآخي أنقرة، شارك الإنكشاريون بوصفهم وحدة مشاة من جيش البلاط - التي كانت من ضمنها مفارز أخرى كالفرسان سباهي - في كل حملات مراد الأول الممارس لسياسيته الاستعمارية بنشاط، كان عند مراد الأول عند زواج ابنه بيازيد من ابنة البيه الغيرمياني إلى جانب الإنكشاريين ألف فارس من فرسان البلاط، من البديهي أن إعالة جيش البلاط ودفع الأجور لأفراده تمت بسبب وجود خزينة الحاكم الغنية والترويج المالي المنظم على أحسن وجه.

كانت التوسعات التركية في عهد مراد الأول موجهة إلى الأراضي البلغارية وأراضي الملاك البلقانيين الآخرين بواسطة جيش الخيالة السباهي والآقينجي بصورة

خاصة، كان ذلك الجيش مرؤوسًا لبيلوكات الحدود وقد برز منهم في نهاية القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر لالا شاهين باشا، وحاجي إل بيغي، وداود باشا، كانت غاراتهم الحربية تتم على الأغلب لأهداف النهب، كانت الفرق التركية تارة تتسلل إلى قلب أراضي الدول المجاورة فتأخذ الغنائم وتعود إلى ممتلكاتها الحدودية، أما سلطة الحاكم الأعلى فلم تحرك ساكنًا لمنع تلك الغارات بل كانت تشجعها.

عند ذكر حراس الحاكم العثماني يذكر على الأغلب الإنكشاريون، لا سيما بعد وصف معركة من أشهر المعارك التي خاضها الأتراك تلك التي وقعت على حقل كوسوفو سنة ١٣٨٩ وقتل فيها مراد الأول، كان الإنكشاريون أثناء سير المعركة يحيطون بمراد الأول في مركز تشكيل الجيش العثماني مستعدين لأن يضحوا بحياتهم من أجل حمايته.

حملت هذه المعركة طابعًا قاسيًا جدًا وسببت الخسائر الفادحة للجهتين، كان في جيش مراد الأول عدد هائل من القواسين وضع ألف منهم على الجناح الأيمن يرأسهم قائد الخيالة غير النظامية حميد أوغلو، وألف آخرون على الجناح الأيسر تحت قيادة مصطفى شلبي ابن حميد أوغلو.

كان الأتراك يصغون إلى نصائح قوادهم الذين كانوا يعرفون فن حرب العدو حق المعرفة، كما تفيد الروايات أن الأتراك أصغوا في هذه المعركة إلى نصائح «إفرينوز بيه» الذي أضحى مسلمًا غيورًا لدرجة أنه أدى فريضة الحج، وهو الذي نصح السلطان مراد بأخذ موقع في ميدان ساحة القتال وبأن لا يستعجل في ابتداء المعركة بل ينتظر ريثما يزول حر النهار.

كانت لدى المسيحيين مدافع، بيد أن قذائفها لم تكن تسبب أي ضرر لجيش السلطان مراد، من المعروف أن المدافع كانت في حوزة مراد أيضًا يشرف عليها دون

شك الطوبجية الأسبقون الخادمون لدى البيه العثماني، وهم الذين بدأوا المعركة بطلقات المدافع، ومن ثم تبعهم القواسون الذين أطلقوا سهامهم على الفرسان المسيحيين المسلحين بسلاح ثقيل ويتدرعون بدروع حديدية، فكان من الصعب أن يلحق بهم ضرر، بيد أن هجوم القواسين جعل صفوفهم تتحرك والتقى الجيشان فبدأت المعركة.

طرح مصرع مراد الأول الفجائي في ساحة القتال مسألة وراثة العرش. يخبر المؤرخون العثمانيون أنه عُقِدَ مجلس حاشية للسلطان الراحل من فوره على حقل كوسوفو فأصدر قرارًا بتسليم السلطة العليا لبيازيد، أما يعقوب أخو بيازيد - الذي شارك كذلك في المعركة - فاستدرج إلى خيمة والده الراحل وقتل فيها غيلة.

اضطر بيازيد في السنوات الأولى بعد ارتقائه العرش أن يخوض حروبًا متواصلة في آسيا الصغرى لإقامة وترسيخ السيادة العثمانية المهتزة بين الملاك الترك، في عام ١٣٩٠ أخضع بيازيد البيلك الأيضيني، وحاصر لفترة طويلة فلادلفيا اليونانية (ألا شهير بالتركية) التي حافظت على استقلالها فترة طويلة نسبيًا بفضل العلاقات الطيبة مع الترك، كان في عداد جيش بيازيد الإمبراطور البيزنطي إيوان الخامس باليولوغ وابنه مانويل، اضطر إيوان إلى إقناع سكان فلادلفيا بتسليم المدينة لكنهم لم يستجيبوا، فكان بديهيًا أن يتم الاستيلاء على المدينة بالقوة، كان بيازيد - كما تفيد الروايات - في طريقه إلى فلادلفيا يراقب جيشه مراقبة دقيقة كي لا يقوم أحد من أفراده بنهب السكان الآمنين، فأعلن «يغما» أي أن جمع الغنائم سيتم بعد الانتصار، كانت دعوة كهذه تشجع الجنود الأتراك وتزيد من قوتهم ومعنوياتهم.

لما أحس أهل فلادلفيا بخطر الاجتياح فضلوا الاستسلام على شروط المعاهدة، كان لهذا الانتصار الذي أحرزه بيازيد أثر كبير في اعتراف البيه الأيضيني بالسيادة العثمانية، وبعد أن زار البيه الأيضيني عيسى مقر بيازيد اعترف بسلطته العليا،

واتباعًا للقوانين زوج ابنته من بيازيد وتعهد بألا يعيش في عاصمة دولته بل في صور، كما وعد بألا يغادر ممتلكاته السابقة، والأهم من ذلك أن الخطب التي كانت تقام في أيضين صار يذكر فيها اسم الحاكم الجديد أي الحاكم العثماني ونقش اسمه على النقود، اضطر السباهيون المحليون التابعون لعيسى بيه أن يغيروا «براتهم» على امتلاك التيمارات، وفقًا للبراتات الجديدة المسلمة لهم باسم السلطان بيازيد، ووجب عليهم تأدية الخدمة العسكرية للحاكم الجديد.

بالطريقة نفسها وقعت تحت سلطة بيازيد أراضي البيلك الساروخاني فوحَّده البيه العثماني مع بيلك «كراسي» الخاضع للسلطة العثمانية منذ وقت طويل، ورأس التشكيلات الإقليمية الجديدة إيرتوغرول ابن السلطان بيازيد.

استطاع بيازيد خلال فترة طويلة من حكمه أن يخضع لسلطته كذلك بيلك «جانيك» وتنظيمًا تركيًا يرأسه القاضي أحمد برهان الدين، وأن يقمع مقاومة البيلكات المنتفضة ضد التبعية. ازدادت أهمية البيلك العثماني السياسية في عهد بيازيد بشكل ملحوظ، فأضحى وسيطًا هامًا بين الحكام السلافيين واليونانيين والفرنكيين في الشرق، حتى ملك نابولي حاول أن يؤمن نفسه بصداقته، استولت الجيوش التركية الحدودية على الأراضي الصربية كلها تقريبًا. وشنت الغارات على البوسنة والممتلكات الفالاخية والمجرية، بقيت من الأقيال التابعة للعثمانيين ـ التي لم يتم الاستيلاء عليها ـ المملكة الطيرنوفية البلغارية، وفي آخر الأمر نجح بيازيد في الاستيلاء عليها فأخضع بذلك كل بلغاريا لسلطته.

قامت الحملة على طيرنوفو في ربيع عام ١٣٩٣ بقيادة ابن بيازيد الذي تسميه المصادر المسيحية بشلبي، تعرض حصن طيرنوفو لحصار استغرق ثلاثة أشهر وتم الاستيلاء على المدينة بالاجتياح في ١٧ تموز عام ١٣٩٣. ثمة افتراض بأن بيازيد قد قام باحتلال بلغاريا لخشيته من غارات الأمير الفالاخي «ميرتشا» وتثبت ذلك الحملة

التي قام بها السلطان في خريف عام ١٣٩٤ فور احتلال طيرنوفو، ويظهر أن الحملة هذه قد قامت بغية الترهيب. كان في جيش بيازيد جنود الطاغية الصربي استيفان لازاريفيتش، والحاكم المقدوني قسطنطين، والملك البوسني ماركو، بيد أن ميرتشا أوقع بالجيش العثماني هزيمة نكراء وسبب له خسائر فادحة، قتل الكثير من قواد جيش بيازيد بما فيهم ماركو وقسطنطين، ويسكت مدونو التاريخ العثمانيون عن هذه الحملة الخاسرة التي قام بها بيازيد، إن نتيجة هذه المعركة تبرر خشية بيازيد من جاره الكائن خلف الدانوب.

كما قام السلطان بيازيد بمحاولة الاستيلاء على العاصمة البيزنطية التي حاصرتها جيوشه من جهة البر وجزئيًا من جهة البحر. من الظاهر أن حصار القسطنطينية قد تم بضغط من القمة العسكرية التي كانت تحلم بغنائم كثيرة، وتفيد المصادر العثمانية أن السلطان بيازيد حاصر القسطنطينية بإرشاد القائد الحربي البارز قاره تيمورتاش باشا الذي ظن بأن النجاح سيحالف الأتراك هذه المرة أيضًا كما حالفهم في استيلائهم على فلادلفيا.

ومن أجل تنفيذ هذه المهمة الصعبة أمر بيازيد ببناء قلعة على ساحل بوسفور باسم «غبورزيلد خيسار» اشتهرت بعد تشييد قلعة مماثلة على الساحل الأوروبي سميت «أناضولو خيسار»، أما القلعة المشيدة على الساحل الأوروبي في عهد السلطان محمد الثاني فسميت «دوميلي خيسار»، لم يشيد في عهد بيازيد إلا الأسوار وبرج الزاوية من القلعة، ثم وضعت فيها الحامية العسكرية المزودة بكل المعدات اللازمة.

حاصر جيش بيازيد المدينة سنوات، ولكن ما أنقذ القسطنطينية من الحصار الكامل هو أن الأسطول التركي كان ضعيفًا عصرئذ، نصب الأتراك قرب أسوار القسطنطينية العرادات (المنجنيقات) التي كان لدى البيزنطيين مثلها منذ أمد طويل.

أدت سنوات حصار القسطنطينية إلى إضعاف المدينة بشدة، بيد أن الاستيلاء عليها لم يتم.

فزع الملك المجري من احتلال الأتراك لطيرنوفو وسقوط بلغاريا في أيديهم نهائيًا إذ إن الخطر التركي قد أصبح واقعًا ملموسًا والأتراك يقتربون إلى حدود المملكة أكثر وأكثر، عقد الملك «سيغيزموند» عزمه على عمل تنظيمي نشيط، فنظم حملة صليبية ضد الأتراك وهذا ما أدى إلى نجاة القسطنطينية.

في عام ١٣٩٦ تمكن «سيغيزموند» من تنظيم جيش كبير فجمع تحت رايته الكثير من فرسان الغرب، لم يكن الفرسان الأوروبيون ـ ولا سيما الفرنسيون منهم ـ يعرفون عدوهم الذي كان عليهم الاصطدام به، فلذا لجأ الكثيرون منهم إلى تنفيذ هذه الخطة بطيش ظانين أن هذا لن يكن إلا مغامرة حربية سهلة، فأخذوا معهم إلى الحملة النساء والخمر، أما المجريون ـ الذين شاركوا كذلك في الحملة ـ فعلى الرغم من استرشادهم بعقائد مسيحية في الحملة فقد كانوا ينهبون إخوانهم المسيحيين القاطنين على الدانوب بنشاط لا يقل عن نشاط الأتراك الأقينجي في ذلك.

في ٢٨ أيلول عام ١٣٩٦ اندلعت على السهل الواقع في جنوب شرق نيكوبول المعركة بين جيش سيغيزموند وبيازيد، أحصى المؤرخون الدارسون لحملة سيغيزموند عدد جيشه بما فيهم الحلفاء بمئة وعشرين ألف مقاتل، ويخبر مدون التاريخ العثماني «نشري» عن عدد قريب منه وهو ١٣٠ ألف مقاتل.

على الرغم من رغبة الملك المجري والأمير الفالاخي في أن يبدأا هما المعركة مع الأتراك ـ مبررين ذلك بخبرتهم في المعركة ضدهم ـ تدخل في القضية ابن الدوق البورغوندي المشارك في الحملة وصرح بأنه صرف على هذه الحملة الكثير من ماله؛ لذا فالأفضلية في ابتداء القتال له، ولم ينجح أحد في إقناعه، بدأ الفرسان البورغونديون القتال، كان الفرسان المزودون بمعدات ثقيلة يصطدمون بالصفوف

الأمامية من الرُّماة المشاة «عذب» في مقدمة الجيش التركي، ولكن بعد برهة قصيرة سقط الكثير من الفرسان على الأرض لأن أسهم «العذب» كانت تخرق أجساد خيولهم بدقة، وأسر بعدئذ ابن الدوق البورغوندي.

تفيد مصادر أخرى أن الفرسان الفرنسيين اصطدموا في البداية بحرس بيازيد في المواقع البعيدة عنه، الذين كان السلطان يضم إليهم أقل المقاتلين قيمة، ولكن الواقع يبقى واقعًا، وذلك أنه في هذه المعركة فقد الفرسان الفرنسيون دافعهم الهجومي، ومن ثم تعرضوا لأسهم القواسين التي انهالت على خيولهم، وسقط في ساحة القتال بعد ثلاث ساعات من المعركة أكبر وجهاء المملكة الفرنسية وفلاندريا وبافاريا وسافويا.

وجه سيغيزموند ضربته الثانية إلى وسط الجيش التركي حيث كانت فرقة مشاة من اثني عشر ألف مقاتل يطابقها بعض المؤرخين الأتراك المعاصرين مع الإنكشاريين، بيد أنه ليس ثمة أسباب تجعلنا نصدق أن مقاتلي سيغيزموند اصطدموا هنا مع الإنكشاريين الذين كانوا يأخذون موقعًا في مركز تشكيل الجيش، لكن اثني عشر ألفًا من المشاة لم يكونوا إنكشاريين إجمالاً، ففي ذاك الحين لم يكن الجيش الإنكشاري كثير العدد إلى هذا الحد، إذ لم يصل عدده إلى اثني عشر ألفًا إلا في عام ١٥٦٦، والراجح أنه كان بين القواسين الإنكشاريين في ذاك الحين «عذبيون» وجنود مشاة «يايا».

على الرغم من أن جماعة المشاة التركية دمرت كلها من فرسان سيغيزموند إلا أنه لم ينجُ ذلك الجيش الصليبي من الهزيمة، فولى أكثر المسيحيين أدبارهم إثر انقضاض الخيالة التركية الخفيفة والجامحة، لم يصل إلى ضفاف الدانوب إلا القليل من فرسان سيغيزموند حيث صعدوا على سفنهم ونجوا بأنفسهم، ووقع الكثير منهم أسرى بيد الأتراك.

وصف شهود العيان المذبحة الجماعية للأسرى التي أقامها بيازيد، ولكن لم يعدموا منهم الفتيان الذين لم يبلغوا العشرين من العمر، كما لم يعدموا الأسرى الوجهاء إذ أملوا أن يستلموا فدية ثمينة مقابل إطلاق سراحهم، طلب بيازيد على الأسرى فدية قدرها مئتا ألف قطعة ذهبية أرسلت له مع التجار الغينويزيين والفينيسيين واليونانيين الذين كانت لهم علاقات تجارية مع الأتراك، من البديهي أنه عند وجود خزينة غنية كهذه كان بمقدور بيازيد إعالة جيش الحاشية كثير العدد الذي كان أفراده يقبضون أجورهم عند مجيء الحاكم إلى العاصمة.

انتقل جزء من الأسرى الذين بقوا إلى بيازيد نفسه، أما الباقون فظلوا في أيدي من أسروهم، وتظهر هنا عادة الأتراك في تقسيم الغنائم التي يتصرف بها الخان.

ما هي الأسباب التي دفعت بيازيد لإقامة هذه المذبحة؟ ينبغي القول إن الأتراك كانوا دومًا يقتلون جزءًا من الأسرى الواقعين بأيديهم بعد القتال مباشرة، ولكن هذه المرة أفرط بيازيد في قسوته بإعدام عدد هائل من المسيحيين، تم الإعدام على مرأى الفرسان الأوروبيين الوجهاء الذين قرر إطلاق سراحهم مقابل الفدية، كان بيازيد يراقب التنكيل بعنف دون إصغاء إلى رجاء قواد جيشه بوقف الإعدام، كانت العملية تلك بهدف الترهيب والإنذار للذين سيعودون إلى أوروبا، أو وسيلة للحصول على الفدية المطلوبة.

بعد أن هزم بيازيد سيغيزموند والفرسان الأوربيين اعترفت البوسنة وصربيا المرهوبتان بالتبعية العثمانية، فدفعتا للبيه العثماني مبلغًا من «الخرج» السنوي كإتاوة، وكانت مفارز «الآقينجي» الأتراك تقوم بغارات على الأراضي الألبانية، والظاهر أن جزءًا من الجيش التركي حافظ على موقعه قرب أسوار العاصمة البيزنطية، ولم يشارك في موقعة نيكوبول، فقد الإمبراطور الأمل في المساعدة، وبما أن بيازيد أراد أن يحرم القسطنطينية من الدعم العسكري المحتمل وَجَّهَ عام

١٣٩٧ إلى بيلوبونيس جيشًا من ٦٠ ألف مقاتل برئاسة القائدين العسكريين الخبيرين يعقوب باشا وتيمورتاش باشا، في سير هذه العملية اجتاح الأتراك أراضي بيلوبونيس ومن ثم توجهوا إلى فساليا.

كانت العاصمة البيزنطية المحاصرة بالجيش التركي تعاني من المجاعة الشديدة، أما بيازيد، فكما هو بائن من الأنشودة اليونانية المؤلفة عصرئذ، فكان يتباهى سلفًا بأنه سيهدم أسوار القسطنطينية، وسيحول كنيسة القديسة صوفيا إلى مسجد، أما الشباب ما تحت الثلاثين فمصيرهم الموت، كانت حالة الإمبراطور البيزنطي تعيسة وحقيرة، كان ابن أخيه إيوان في جيش بلاط السلطان بيازيد، حيث كان يمكث بصفة رهينة شرف، وهذا يعني التبعية، تفيد الروايات أن مانويل الثاني حاول رشوة وزير بيازيد الأعظم علي باشا آملاً إنقاذ القسطنطينية، أرسل لعلي باشا باسم الإمبراطور هديّة مائة سمكة محشوّة بالنقود الذهبية والفضية، فتمكن علي باشا من إقناع بيازيد بعقد السلام مع الإمبراطور البيزنطي، كما وعد الأخير بالسماح للأتراك بالعيش في القسطنطينية، أما بيازيد فطلب إسكان قاضٍ معهم، وبأن يسمح الإمبراطور لهم ببناء مسجد في الحي حيث سيقطنون، فلبى مانويل كل طلبات الحاكم العثماني، وتفيد الروايات أن الأتراك قد أسكنوا في القسطنطينية.

كان ينبغي أن يُعدّ الانتصار على جيش سيغيزموند انتصارًا عظيمًا على «الكافرين» في العالم الإسلامي بأسره. بعد أن تمجد بيازيد بهذا النصر وجه أنظاره إلى الشرق، كان في الأناضول يحكم منافسه القوي البيه الكرماني علاء الدين الذي لم يستطع إخضاعه مع كونه خاضعًا للبيلك العثماني، نسي البيه الكرماني طعم الطمأنينة بسبب الانتصارات المتزايدة التي يحرزها الأتراك العثمانيون؛ وذلك أنه كان يعدّ نفسه وريثًا للتقاليد الثقافية في الدولة السلجوقية في آسيا الصغرى، كان

علاء الدين يحاول بشتى الوسائل إقامة سلطته على الأراضي الأناضولية التي وقعت تحت سيطرة البيه العثماني، فاستولى على أنقرة الخاضعة للعثمانيين.

رد بيازيد على ذلك بجمع جيش ضخم مكون من ١٥٠ ألف مقاتل وقام بحمله على عاصمة علاء الدين قونيا، اندلعت تحت أسوار العاصمة معركة استمرت يومين، كانت قوة الطرفين متساوية تقريبًا ولو أن جيش علاء الدين علي بيه كان أقلّ عددًا: ٧٠ ألف مقاتل، لم يُسْفِر اليوم الأول من المعركة عن أية نتيجة، عندئذ لجأ بيازيد إلى الحيلة العسكرية، فعند حلول الليل أطفأ كل الشُّعَل النارية في معسكره، وبعد تناول العشاء أرسل مفرزة من ٣٠ ألف فارس إلى خلف جيش علاء الدين ولم ينتبه العدو لهذه المناورة إذ كان ضجيج من الطبول والمزامير يملأ جو معسكره، ففي هذه الأثناء كان الكرميون يظهرون روحهم القتالية وعزمهم، وفي الصباح قام بيازيد بالهجوم على جيش العدو بمعاونة الفرسان الذين ضربوا جيش علاء الدين من الخلف، فأدى ذلك إلى اضطراب وارتباك جنود البيه الكرماني الذي اضطر إلى الهرب والاختباء في قونيا.

حاصر بيازيد المدينة لكنه لم يتمكن من أخذها عنوة إذ إن قوة الجيش الإنكشاري والمدفعية العثمانية لم تكن على مستوى عال آنذاك، في غضون ذلك كان أهل قونيا قلقين على حياتهم في حال اقتحم جيش بيازيد القلعة، فاقترحوا وقف المقاومة مقابل سلامتهم، ولما قام الأتراك بهجوم جديد كفّ حماة المدينة عن المقاومة فهرب علاء الدين، عندئذ قبض عليه وأخذ إلى بيازيد، قال علاء الدين للحاكم العثماني إنه لم يكن معترفًا بسلطته عليه وإنما كان يعتبر نفسه حاكمًا مكافئًا له، فاغتاظ بيازيد من هذا الكلام وأمر بقتله فنفذ أمره فورًا.

لم يكن علاء الدين الوحيد الذي لم يعترف بسيادة البيه العثماني بل كانت قيادة جيشه كذلك وهي التي نظمت المقاومة ضد بيازيد، اضطر بيازيد إلى حصار

«لاريدي» العاصمة الكرمانية السابقة، وفي بادئ الأمر كان أهلها يقاومونه، ولكنهم سرعان ما قرروا تسليم المدينة مقابل الوعد بالحفاظ على سلامة أملاكهم، والجدير أن يذكر أنهم طلبوا تعيين علاء الدين حاكمًا عليهم فوافق بيازيد على تنفيذ الشرط الأول، وأبى الشرط الثاني، عندئذ امتنع السكان عن تسليم مدينتهم، ولما أتى اليوم الخامس أمر بيازيد بإحضار المنجنيقات والقذائف لتدمير أسوار المدينة، عقب ذلك أدرك أهل المدينة مدى خطورة نوايا الحاكم العثماني الذي بمقدوره تدمير الأسوار فاستسلموا له.

بعد أن أخضع بيازيد لسلطته كل البيلك الكرماني تقريبًا توترت علاقاته مع حاكم الدولة التركية الأخرى في آسيا الصغرى القاضي برهان الدين حاكم سيواس، الذي كان يعترف بسيادة سلطان المماليك عليه. إبان سير بيازيد من أجل السيطرة على أراضي آسيا الصغرى أخضع للسلطة العثمانية بيلك جانيك بمركزيها كاستامونا وسمسون، ومن ثم خضعت له سيواس وتوكات ومالاتيا.

تَلَقَى بيازيد خبر عدوان تيمورلنك وهو في أوج عزته ومجده السياسي، وأضحى الصراع السياسي والحربي بين بيازيد وتيمورلنك من أمتع الصفحات التاريخية في الشرق الأدنى، فقد استصغر بيازيد مدى خطر الفاتح الرهيب ظانًا أنه في أسوأ الأحوال يعادله بقوته، لذا فاتته فرصة تنظيم الحلف العسكري السياسي ضد الفاتح القادم من قبل آسيا الوسطى، ففي الفترة التي كان فيها القاضي برهان الدين قائمًا على السلطة قدم لبيازيد وسلطان المماليك اقتراحًا بتنظيم حملة موحدة على تيمورلنك عقب احتلاله لبغداد، لكن السلطانين لم يؤديا ذلك الاقتراح، ولكن بعد برهة قصيرة أدرك بيازيد خطأه فلجأ إلى سلطان المماليك بالاقتراح نفسه، لكن الأخير أبى ذلك الاقتراح أيضًا. يظهر أن سلطان المماليك كان يأمل بأن تضعف الدولة العثمانية الشامخة إثر حملة تيمورلنك. في سير المراسلة الدبلوماسية

بين تيمورلنك وبيازيد طلب أمير آسيا الوسطى من الحاكم العثماني أن يرسل له أحد أبنائه، وبما أن بيازيد كان عنده الكثير من أبناء الحكام المعترفين بسلطته بصفة رهائن شرف، أدرك على الفور المغزى السياسي من هذا الطلب، وموافقته على ذلك كانت تعني إهانة شديدة بالنسبة للحاكم العثماني المعتز بانتصاراته.

كانت العملية الحربية الأولى التي شنّها تيمورلنك ضد بيازيد هي احتلال سيواس، حاصر المدينة في آب عام ١٤٠٠ واستمرت ثمانية عشر يومًا، رأس جيوش تيمورلنك رائد الأسرة التركية «آك كيونلو عثمان قاره يولوك مالك إيدزينجان متاخرتان»، قام بالدفاع عن سيواس مصطفى بيه مالكوج أوغلو ممثل الأسرة الحربية القديمة في الدولة العثمانية الذي كلفه بحماية المدينة ابن بيازيد سليمان، لكن القائد الحربي فضل الاستسلام عن المقاومة، ثم تسليم سيواس على شروط المعاهدة، وعد تيمورلنك بموجبها بعدم سفك دماء المحاصرين، أما المقاتلون الذين كانوا يدافعون عن المدينة فأمر تيمورلنك بدفنهم في الأرض وهم أحياء، وهكذا نفذت شكليًا شروط المعاهدة إذ إن سفك الدماء لم يحدث، هدمت سيواس بأسرها وأسر كثير من النساء إلى جانب الرجال.

حدث أن الظروف التي وقعت أجلت لفترة وجيزة الاصطدام العسكري بين بيازيد وتيمورلنك، فقد استلم الأخير خبراً بأن جيش سلطان المماليك قد اتجه إلى حلب فأسرع لمواجهته، اندلع القتال على مرج دابق بالقرب من حلب، حيث هزم جيش تيمورلنك جيش (أبو السادات) فرج شر هزيمة، ففرّ الأخير ونجا بصعوبة، كما أن التركمان الذين كانوا في جيشه انتقلوا إبان المعركة إلى جهة تيمورلنك، والراجح أنهم فعلوا ذلك بدعوة من أبناء جنسهم الموجودين في جيش أمير آسيا الوسطى، اتجه تيمورلنك فورًا نحو أسوار حلب، وبعد حصارها استولى عليها

فذبح الكثير من أهلها، ثم استولى على حماه، وفي طريقه إلى حمص زار أضرحة صحابة الرسول الكريم محمد صلوات الله عليه.

لم يقم تيمورلنك بأية محاولة لاقتحام مصر المملوكية، وبعد أن قضى شتاءه في «قره باخ» اتجه إلى أذربيجان، وفي ذاك الحين كان في جيشه بيه جانيك الذي هرب في إحدى الليالي من تيمورلنك إلى أملاكه في كاستامونو، ويظهر أنه كان على علم بخطط الأمير فأراد أن يتريث في ممتلكاته السابقة منتظرًا هزيمة جيش بيازيد، وبعد فترة استولى تيمورلنك على أنقرة، وهذا ما أسفر عن تحد حقيقي للحاكم العثماني.

اقترح أبناء بيازيد على أبيهم الهجوم على جيش حاكم آسيا الوسطى بصورة فجائية قبل أن يتوحد جيشه، وقبل أن ينتهي فرسانه من رعي خيولهم، ولكن ـ كما تقول الروايات ـ فضل بيازيد معركة شريفة عن هذا، فلذا رفض هذه النصائح. كانت خطة بيازيد تنحصر في إرغام تيمورلنك على المعركة في مكان مفتوح إذ إنّ غالب جيش بيازيد كانوا من المشاة، أما جيش تيمورلنك فكان على الأغلب من الخيالة، اعترض قادة جيش بيازيد على هذه الخطة واقترحوا أن يتخذوا مواقع تسيطر على الطريق الذي سيسلكه جيش تيمورلنك، حتى إذا اقترب جيشه هجموا عليه وشتتوه، لكن بيازيد لم يوافق.

التقى الجيشان في المنطقة الواقعة ما بين سيواس وتوكات، ولكن تيمورلنك انسحب من المعركة إذ لم يكن موقعها في صالحه، فتوجه ببطء باتجاه قيسري خشية الهجوم من جهة الجناحين، ثم اقترب إلى أنقرة وهنا تمكن العثمانيون من إبعاد جيشه إلى موقع ليس في صالحه أبدًا، كان رأي أبناء بيازيد وقواد جيشه متفقًا بأن الوقت المناسب قد حان لبدء المعركة ضد تيمورلنك، لكن بيازيد تردد فأضاع

الفرصة الملائمة واستطاع تيمورلنك أن يصل إلى المكان المناسب ويتخذ موقعًا مواتيًا.

كان في جيش تيمورلنك ـ حسب الروايات ـ ١٦٠ ألف فارس، وفي جيش بيازيد سبعون ألف مقاتل بما فيهم الفرسان والمشاة، أخذ بيازيد كالعادة مكانًا له في وسط الجيش مع أبنائه مصطفى وموسى وعيسى، كان مقره الواقع على مرتفع صغير محميًا من كل الجهات بصفوف من حرس البلاط وكان من جملتهم الإنكشاريون كذلك، اصطفت أمام الإنكشاريين صفوف من «العذب»، واستقر على الجناح الأيمن جيش من السباهيين الأناضوليين، وقف على يمينهم المشاة ملاصقين جبل «ميرا داغا»، ووقفت على الجناح الأيمن صفوف أخ الجائر الصربي والمقاتلون الألبانيون.

وقف على الجناح الأيسر ابن بيازيد سليمان حيث رأس السباهيين من إقليم أيضين وساروخان وكراسي، كما كان هناك جيوش روميلية ومفارز من التتر تستعد للانضمام إلى جهة تيمورلنك في أية لحظة، وفي خلف الجناح الأيسر اصطفت مفارز سنجق أماسيا بقيادة شيخزاده محمد، تلاصق الجناح الأيسر في منطقة سهلية.

تعرض الجناح الأيسر للهجوم ولكنه صمد أمامه، كانت الخيالة الروميلية جزءًا فائقًا من الجيش العثماني، وهي مجربة في معارك كثيرة، لكن التتر انتقلوا فورًا إلى جهة تيمورلنك فرموا بالأسهم الفرسان الروميليين مسببين لهم خسارة كبيرة، كما قام جيش تيمورلنك بالهجوم على وسط الجيش العثماني لكن الهجوم حبط إذ إن الإنكشاريين لم يهتزوا حين رأوا الفرسان المقتحمين لمفارز الفرسان «عذب»، ودافع الجناح الأيمن عن نفسه بقوة حيث حارب الجيش الأناضولي، لكن الخيانة حدثت هنا أيضًا، فالسباهيون الغيرميانيون لما رأوا سيدهم السابق مع تيمورلنك أسرعوا

إلى الانضمام إلى جهته ثم تبعهم في ذلك المقاتلون التابعون لأمراء البيلكات التركية السابقة الآخرين، نتيجة ذلك انكشف من الجهة اليمنى وسط الجيش التركي حيث كان بيازيد نفسه محاطًا بالإنكشاريين، ولم يبق في الجناح الأيمن من حارب ببسالة إلا الصرب.

أدت الخيانات في الجناحين إلى ميل كفة الميزان إلى جهة تيمورلنك، ففهم الكثيرون منهم أن النصر قريب، وبعد انتهاء المعركة ترك وجهاء بيازيد علي باشا ومراد باشا سيدهم آخذين معهم شيخزاده سليمان، كما ولى الأدبار آغا الإنكشاريين حسن آغا وصوباشي إقليم كراسي إيني باشا، وهرب إلى أماسيا ابن السلطان محمد ومعه ألف فارس.

في آخر الأمر ولى الصرب كذلك أدبارهم لتوقعهم الهزيمة ونصحوا لبيازيد بالهرب ولكنه رفض ذلك مكتفيًا فقط بالانسحاب القليل، بقي من بين حراسه ما لا يزيد عن ألفين أو ثلاثة آلاف من مشاة وفرسان الحاشية، في غضون ذلك قام فرسان تيمورلنك بهجوم أخير على مقر بيازيد، عندئذ أدرك بيازيد أن المعركة خاسرة فأخذ يخترق المقاتلين محاولاً الهرب، أرسل تيمور لنك للقبض عليه قوات مصطفة بقيادة الخان السمرقندي سلطان محمود، ولم يكن بصحبة بيازيد سوى بضعة إنكشاريين، أدرك سلطان محمود بيازيد فأسره وأحضره إلى تيمورلنك.

لم يستمر حبس بيازيد طويلاً عند الفاتح القادم من آسيا الوسطى الذي ـ حسب الروايات ـ وضعه في قفص حديدي خوفًا من هروبه، وتوفي الحاكم العثماني قبل وصوله إلى سمرقند إلى حيث أراد تيمورلنك أخذه، كان تيمورلنك قد أعاد السلطة لبيه كرمان، كما أعاد بيكوات «أيضين» و «مينتيشي» و «غيرميان» إلى بيلكاتهم السابقة، وصل تيمورلنك إلى بروصا فاستولى عليها وعرضها للنار بمساعدة قائد جيشه المفوض إليها.

نلاحظ من المعركة الواقعة بين تيمورلنك وبيازيد أنه في عام ١٤٠٢ كان جيش المشاة الإنكشاريين حديث التأسيس، ومكونًا من عبيد السلطان ينفذ مهمة ثنائية، كان جزء من الإنكشاريين قوة قتالية كلية تشارك في الغزوات بصفة المشاة القواسين الرماة، وكان الجزء الآخر مكونًا من حراس السلطان الشخصيين، كما نرى في جملة الإنكشاريين آنذاك «صولاك» الذي كان ثلة فخرية في الفيلق الإنكشاري، في هذه المعركة أدى الإنكشاريون واجباتهم كحرس بشرف وإخلاص، ولم يتم أسر بيازيد إلا بعد مغادرته لصفوف الإنكشاريين الذين حاولوا منع ذلك، يعرض مدون التاريخ العثماني قصة واحد من الإنكشاريين شارك في معركة أنقرة، تشير هذه القصة إلى أن عدم تمالك بيازيد نفسه ومحاولته شق طريقه بين حشد من المقاتلين بصحبة بضعة أناس كان السبب في نهايته التي صار إليها، كما قال ذلك الإنكشاريّ إنه لو انتظر بيازيد مع الإنكشاريين المحاربين حلول المساء لكان قد نجا كما نجا ذلك الإنكشاري.

أظهر الجيش الإنكشاري المكوّن من العبيد غير المرتبط اجتماعيًا أو سياسيًا مع القمة العسكرية التركية وفاءه وإخلاصه الكامل للسلطة العليا، وما يستحق التقدير أن رئيس الفيلق الإنكشاري أخذ على عاتقه حماية أحد أبناء بيازيد وهو سليمان الخليفة المحتمل للأسرة الحاكمة، أما الأقيال أتباع بيازيد، الرؤساء الأسبقون لبيلكات آسيا الصغرى، فانتهزوا هجوم تيمور لنك آملين استرجاع سلطاتهم العليا في أملاكهم السابقة.

كانت لقوات «آقينجي» الحدودية بروميليا أهمية كبيرة في رسوخ السلطة العليا بالدولة العثمانية، وكانت هذه القوات معنية باستئناف الفتوحات، وكثيرًا ما كانت تعمل بصورة مستقلة، كما أن دعم السلطة كان يجب أن يكون لأفراد الحاشية الكبار وسلك الموظفين، أي لجهاز الدولة البادئ بالتشكل بصورة تنظيمية مستقلة، وكان

الأساس الاقتصادي لهذه العملية خراج الأراضي الذي بدأ في عهد بيازيد، بيد أن عملية كهذه لم تطابق التصورات التقليدية للقيم الاجتماعية في الدرجات والمقامات، فاستخدام خراج من الأراضي لم يكن في ذاك الوقت من مزايا السباهيين ولا خدم البلاط المرتبطين بالخدمة المدنية، على أي حال ظهر في زمن بيازيد مرسوم يمنع استخدام التيمارات لصغار الموظفين وأمناء السر غير المرتبطين بالخدمة العسكرية.

أدت هزيمة جيش بيازيد إلى تفكك الدولة العثمانية إلى عدة أجزاء، رأس أبناؤه كل جزء منها، وسرعان ما برزت من بين هذه الأجزاء ثلاثة أقضية رئيسية، واحد منها في روميليا وكان مركزه عاصمة الأتراك العثمانيين الأوروبية أدرنة، حيث استقر ابن بيازيد الأكبر سليمان، والثاني في الشطر الآسيوي بمركزه في بروصا حيث كانت حاشية موسى، فقد كلف تيمورلنك موسى الذي أسر مع والده وكان في جيشه بأن يدفن والده في بروصا، لما أرسل تيمورلنك موسى ليحكم بروصا قدم له عند الوداع هدية وهي حزام مزين بسيف، ومئة حصان، ويظهر أن بروصا كانت تعدُّ «أولوسا» أصليًا في الدولة العثمانية التي كانت ملكًا لأسرة عثمان، وبناءً على هذا القانون كان يجب أن تنتقل إلى تصرف موسى كونه أصغر أفراد الأسرة، ولكن في ذاك الوقت كان هناك ابن بيازيد الآخر عيسى الذي غادر المدينة تلبية لوثيقة تيمورلنك بعد صراع مسلح مع أخيه، وقبل ذلك عند وجود تيمورلنك في البيلك الأيضيني ـ حيث استولى على إزمير ـ تمكن عيسى ـ وهو مختبئ في منطقة باليكيسير ـ من الحصول على الحق في امتلاك بروصا المدمرة من حاكم آسيا الوسطى.

لكن عيسى لم يستكن لفقدانه لبروصا، وفيما بعد سلبها من أخيه فأرغمه على الاختباء عند عمه وهو بيه البيلك الغيرمياني في كيوتاخيا.

وأخيراً أصبح جزء صغير من الدولة العثمانية السابقة تمركز في أماسيا بيد محمد الذي كان يتولى على ذلك السنجق قبل معركة أنقرة.

انتهى كيان الدولة العثمانية الموحدة والقوية بعد أن تفككت إلى ثلاثة بيلكات صغيرة، بيد أنها حافظت ـ ولو قليلاً ـ على مظاهر تنظيم الدولة المتطور بالنسبة لتلك الآونة، كان بحوزة كل ابن من أبناء بيازيد جيش الخيالة «سباهي» والحرس الإنكشاري وجمع من خدم البلاط، ومع ذلك لم يكن أحد من الحكام العثمانيين الثلاثة راضيًا من حالته، وحالما غادر جيش تيمورلنك الأناضول بدأ بين الأخوة نزاع على السلطة في الشطر الأوروبي من الدولة العثمانية السابقة لإقامة سلطة فردية فيه، كان انتصار أي من الأمراء في هذا النزاع يعود قبل كل شيء إلى دعم القمة العسكرية الإقطاعية التي كانت تضمن دعمًا حربيًا لكل من الحكام، وإلى الاعتراف السياسي من الخارج، فحاول كل من الأخوة الظفر بهذا الاعتراف.

لا شك في أن الأفضلية كانت لابن بيازيد سليمان الذي اصطحبه من ساحة القتال قرب أنقرة الآغا الإنكشاري حسن وذهب معه جزء من الجيش الروميلي، ففي ٢٠ آب عام ١٤٠٢ نزل سليمان مع خمسة آلاف فارس على الساحل الأوروبي وعرض الصلح على الإمبراطور البيزنطي. تفيد بعض المصادر أنه في أيلول من عام ١٤٠٢ مكث سليمان في القسطنطينية حيث أجرى مشاورات مع إمبراطور بيزنطة كان الحاكم العثماني على استعداد لأن يقدّم بعض التنازلات، لكن قواد جيش أبيه دفاعًا عن مصالحهم المادية حاولوا المحافظة على الحدود السابقة لدولتهم فاعترضوا على التنازلات للمسيحيين.

كان سبب النزاع بين الأخوة يعود إلى من سيدعم الجزء الرئيسي من الخيالة السباهية التي كانت مهمته استئناف الفتوحات في أوروبا لأنها كانت تجلب لهم أرباحًا مادية كبيرة من الغنائم وخراج الأراضي، لم يكن الأمر ينحصر ضمن هذه

المكتسبات فقط، فالقوات التركية من «الآقينجيين» المحافظين على تقاليد الحياة البدوية لم يكونوا يرون أي معنى للحياة إلا إذا كانوا على السّرج، ولكن في عهد حكم سليمان تغيرت الظروف، فالبيكوات الروميليون لم يترقبوا منه أي استعداد للعمليات الحربية الكبيرة على الأراضي الأوربية، فكانوا ينظرون إلى سيدهم غير المحارب والميال إلى حياة الفرح واللهو باحتقار، لم يبق على موسى إلا أن ينتهز فرصةعدم رضاء الجيش الروميلي عن أخيه ووعدهم بأنه سيمارس سياسة غير سياسة سليمان في حال استلم هو السلطة، انحاز إلى جانبه واحد من البيكوات ذوي النفوذ وهو الآقينجي ميخال أوغلو محمد بيه ممثل الأسرة الحربية الأرستقراطية القديمة، الذي نال من موسى لقب «بيلربيه»، أما سليمان فهو ـ حقًا ـ لم يكن مثال الحاكم الإسلامي المحارب «المناضل في سبيل الإيمان» وكان يؤثر قضاء أوقاته على مائدة الحفلات، وقد أولى رعايته للشاعر أحمدي الذي قدم به قصيدته المشهورة بعنوان «إسكندر نامه» تتضمن الملحمة المكرسة لتاريخ الأسرة العثمانية الحاكمة.

وكما روى أحد مدوني التاريخ العثمانيين، عبر موسى الدانوب في منطقة سيليستريا وجمع تحت رايته الكثير من أصحاب التيمارات الروميليين والمساعدين المتطوعين، اتجه موسى بجيشه نحو أدرنة، واستطاع قرب صوفيا تدمير جيش سليمان المتوجه إليه، ثم استأنف اتجاهه نحو أدرنة، والذي حسم نتيجة المعركة هو انحياز الآغا الإنكشاري حسن إلى جهة موسى.

أعلن حسن آغا بكل عزم وحزم عن انحيازه إلى موسى، ودعا كل الإنكشاريين إلى الفعل نفسه، أثر انتقال حسن مع كل الجيش الإنكشاري إلى عدو سليمان في المترددين، وفعل الكثير من البيكوات ما فعله الآغا الإنكشاري، فاضطر

سليمان بعد أن فقد عمليًا كل جيشه، إلى الهرب إلى القسطنطينية مع بعض رجاله المخلصين له، لكن جماعة من المطاردين أدركته في الطريق، فاغتيل سليمان بأمر موسى.

بعد أن تولى موسى السلطة بدأ من فوره سياسته الحربية، فدمر صربيا وحاصر نوفو بوردو، فرد الطاغية الصربي استيفان لازاريفيتش على هذا باحتياج المنطقة البيروطية، اغتصب موسى من البيزنطيين الشريط الساحلي الأوروبي المطل على البحر الأسود، كما احتل فساليا، وقام بغارة على القسطنطينية ولكنه صد، كما هزم موسى أخاه محمداً ـ الذي عبر البوسفور ـ قرب إنجيكيزا وأرغمه على العودة إلى ممتلكاته الآسيوية، وهكذا أخفقت محاولة محمد بانتهاز مصرع سليمان والتولي على السلطة في الشطر الأوروبي من البيلك العثماني، لما علم محمد عن مصرع أخيه واستيلاء موسى على السلطة اتجه نحو بروصا حيث رضيه أهلها حاكمًا عثمانيًا جديداً، فأعلن نفسه بيكًا على هذه العاصمة العثمانية الآسيوية القديمة، كان سكان بروصا من ذوي النفوذ يميلون إليه منذ أن كان سليمان على قيد الحياة، تمكن محمد من إخضاع كل الممتلكات الآسيوية من البيلك العثماني التي كانت قبل ذلك تعترف بسلطة سليمان.

سعى محمد نحو هدفه بجد، ولما علم عن عدم رضا بعض البيكوات الروميليين عن موسى جذب إلى جهته قائداً حربيًا روميليًا ذا نفوذ يدعى أفرينوز أوغلو علي بيه كما نال إمداداً حربيًا من عمه نصر الدين بيه مالك إمارة ذو القادر، فانتقل بمساعدة الأسطول البيزنطي إلى الساحل الأوروبي بجيش مكون من ٣٠ ألف مقاتل فيما عدا الخيالة من المشاة، كان من ضمن أفراد جيشه جنود الإمبراطور البيزنطي، نصح إفرينوز أوغلو لمحمد بالتوجه نحو مقدونيا حيث يمكنه أن يتوحد مع الصرب الحاقدين على موسى.

لما نزل محمد على الساحل الأوروبي اتجه نحو صربيا، وكان جيشا الأخوين يصطدمان قرب فيليبا، بيد أن محمد لم يكن مستعداً للقتال، لذا تجنب جيش موسى، وتمكن في توبليتسا من التوحد مع جيش استيفان لازاريفيتش وكبار الإقطاعيين المقدونيين بوغدان، وبيكوات روميليا الذين انحازوا إلى حاكم بروصا، وكان من ضمنهم «باشا يغيت» الذي هرب من السجن في ديموتيكا، عند ذلك فقط رأى محمد أن الوقت المناسب قد حان، فاندلعت المعركة بين الجيشين المتنافسين في سامو كوف على سهل بالقرب من قرية تشامورلو في ١٠ تموز عام ١٤١٣.

كان في حوزة موسى، بصفته حاكم أدرنة، فيما عدا الخيالة الروميلية، جيش البلاط الإنكشاري وعدده ستة آلاف مقاتل، كان ذلك ميزة كبيرة إذ كان جيش المشاة المحترف مكوناً من المقاتلين الخبراء ومن جملتهم الرماة الماهرين، حارب موسى ببسالة وقتل بسيفه الكثير من الأعداء، ولكن ـ حسب إحدى الروايات الواصلة إلينا ـ قتل موسى بيد أحد إنكشارييه، وتفيد مصادر أخرى أنه هرب من ساحة القتال فأدركه المطاردون وخنقوه.

في هذا النزاع بين أبناء بيازيد على السلطة استخدم الإنكشاريين كلٌ من الأدعياء الثلاثة. كان الإنكشاريون في حوزة عيسى عند حصاره لبروصا، وكان الجيش الإنكشاري كذلك لدى سليمان، وانتقل منه بالوراثة إلى الحاكم القادم موسى. بالطبع كان الإنكشاريون يزيدون، إلى حد ما، من قوة جيش الخيالة، لذلك كان لهم أثرهم في الصراع العسكري، ولكن في هذه الفترة بالذات لم يكن ذلك الدور حاسماً، وكان لوجود الإنكشاريين في حوزة كل طالب للسلطة في كل بيلك عثماني معنى رمزي هام، فقد عرف كل واحد من أبناء بيازيد قيمته السياسية، إن وجود الجيش الإنكشاري يشهد على علو درجة السلطة ويجسد نظام الدولة المستقلة.

بعد أن انفرد محمد بالعرش أعيد تنظيم الدولة العثمانية على صورتها السابقة، ويظهر أن محمداً بعد أن بقي وريثًا قانونيًا وحيداً لسلطة بيازيد لم يعد هنالك شيء يقيد يديه، فعاقب خدم أخيه لعدم مساعدتهم له في الكفاح على السلطة، فنفى بيلربيه موسى محمد بيه (ميخال أوغلو) إلى توكات، ولم ينقذه من عقوبة أشد من هذه إلا كون شقيقه قد انحاز إلى محمد، ونفى بدر الدين سيمافن أوغلو قاضي عسكر موسى مع ابنه وابنته إلى إزنيك، واعترفت روميليا كلها بسلطة محمد الذي أرسل لكل الحكام المجاورين رسائل يخبرهم فيها عن تسلُّمه العرش وتوحدت الدولة العثمانية من جديد، لكن كما بينت الأحداث أن فترة الفتن لم تنته.

كان الإمبراطور البيزنطي مانويل يؤدي مساعدة لمحمد بغية ضبط علاقات سليمة مع الدولة الإسلامية المجاورة له، ويحتمل أنه كان معتمداً على تنازلات عن بعض الأراضي، وبالفعل كان محمد المنتصر مسالمًا، ويحتمل أنه كان يعترف بتفوق الدولة البيزنطية سياسيًا، ففي رسالة أرسلها هو إلى الإمبراطور كان يسميه أبًا كما كان من قبل يسمي شقيقه سليمان، استرجعت بيزنطة الشريط الساحلي على البحر الأسود ـ الذي احتله موسى ـ وفساليا، كما استطاعت صربيا استرجاع السيادة لبعض أقضيتها، أما «فويفودا»[1] ميرتشا وحكام موريا وكبار الإقطاعيين البلغار شبه المستقلين فأرسلوا سفراءهم إلى أدرنة معبرين بذلك عن خضوعهم للسلطان، بيد أن خضوع فالاخيا كان اسميًا فقط، فميرتشا لم يبدأ بدفع الإتاوات السنوية لمحمد إلا بعد مضي ثلاث سنوات إثر قيام محمد بحملة عسكرية على الأراضي الفالاخية احتل في أثنائها بعض المدن على الضفة اليمنى من الدانوب كما استولى على جور جيفو.

(١) فويفودا: قائد جيش أو والي منطقة في القدم، المعرب.

تعود إلى ذلك العصر بعض البيانات حول حالة الجيش الإنكشاري الذي أصبح بين يدي محمد إثر اعتلائه العرش في أدرنة، لم يكن الحاكم واثقًا من إخلاص جيش البلاط له، فعند التزام محمد بعلاقات سليمة مع الإمبراطور البيزنطي أراد أن يحول دون اتصال الإنكشاريين باليونانيين خوفًا من قيام التمرد، في فترة الفتنة هذه نال الجيش الإنكشاري أهمية خاصة للسلطة العليا التي اصطدمت بعدم وفاء القمة العسكرية ذات النفوذ القوي، ففي هذه الفترة بالذات ـ فترة تشكل تنظيم الدولة العثمانية ـ بدأ الجيش الإنكشاري يكتسب وظائف القوة المواجهة للطبقة السباهية والقوة القادرة على دعم السلطة العليا بدرجة عالية.

أدى إعادة توحد البيلك العثماني وتنظيمه إلى قلق عدوه الرئيسي في آسيا الصغرى وهو البيه الكرماني، انتهز البيه الكرماني مغادرة محمد لآسيا الصغرى فحاول الاستيلاء على بروصا العثمانية، وفي طريقه إليها من سيليفرا كان محمد بيه ينهب ويحرق كل الممتلكات العثمانية التي يصادفها، كما أحرق وأفقر كل ضواحي بروصا، وحاصر المدينة لمدة واحد وثلاثين يومًا كان يحفر خلالها أنقابًا تحت أسوارها، بيد أن صوباشي بروصا حاجي إيواز باشا كان يدحر كل محاولات احتلال المدينة، فقضى على كل من كان يضع ألغامًا كما منع محمد بيه من قطع المياه عن المدينة، وبقي صامدًا إلى أن وصلت إلى المدينة الجنازة تحمل جثمان موسى المقتول، أدى ذلك إلى تيقظ حاكم البيلك الكرماني فاضطر إلى رفع الحصار والعودة إلى عاصمته قونيا.

كان ذلك نشوزًا وعدوانًا سافرًا على الدولة العثمانية، وقد رأى محمد الأول في تلك الأحداث خطرًا كبيرًا يستحق الانتقام، تحالف الحاكم العثماني مع بيه جانيك وغيرمان وضمّ جيشه إلى مفارزهما العسكرية، إلى جانب المعدات الحربية

اللازمة، فبدأ الحملة على البيه الكرماني، كما أن بيه جانيك أمد جيش محمد الأول بابنه قصيم.

في بادئ الأمر وجه محمد إلى منافسه الأناضولي جيشًا بقيادة وزيره وقائد جيشه بيازيد باشا، وبالقرب من جيكيلا اندلع قتال أدى إلى أسر البيه الكرماني نفسه، عقب هذا انطلق محمد مع كل جيشه إلى قونيا، لم يكن حاكم كرمان الوحيد الذي وقع أسيرًا بيد العثمانيين، فقد أسر معه ابنه مصطفى بيه. مستغلاً هذا التفوق أرغم محمد الأول منافسه على عقد معاهدة السلام معه، تنضم بموجبها إلى الأراضي العثمانية آف شهري وسيدي شهري وإقليم أوغلوك ـ حيث تتنقل القبائل ـ وبيه شهري وسيغري خيسار وشام أرضي ونيفدي، قدم بيه كرمان ثياب شرف وراية وبعض الخيول البديعة والعبيد، لم يكن ذلك إلا علامات خضوعه لإمرة الحاكم العثماني، بعد هذا عاد محمد الأول إلى أوروبا، أما البيه الكرماني ـ حسب الروايات ـ فقال له في أثره: «سوف يستمر عدائي لك إلى يوم القيامة!» إذ لم يكن يرضى الخضوع للحاكم العثماني.

كان من ضمن استئناف سياسة إحياء السلطة العثمانية حملة محمد علي فالاخيا التي لم تخضع له إلا إسميًا، شاركت في هذه العملية العسكرية ـ التي حدثت عام ١٤١٧ ـ مفارز جانيك والبيه الكرماني، وجهت إلى ما خلف الدانوب مفارز «الآقينجي» لنهب الأراضي الفالاخية، فعادت المفارز بغنائم ثمينة، اضطر «فويفودا» فالاخيا إلى الاعتراف بسيادة الحاكم العثماني عليه، فدفع لمحمد «الخراج» وأرسل إليه أبناءه ليخدموا في بلاط الحاكم العثماني.

في زمن الفتنة هذا ـ في عهد حكم محمد الأول ـ أظهر الفيلق الإنكشاري دوره الجديد، فالنزاع على السلطة ـ الذي وقع بين أفراد الأسرة العثمانية الحاكمة منذ عهد مراد، والذي كان يؤدي تارة إلى التصفية البدنية ـ جعل محمدًا حريصًا

على بقاء السلطة العليا في الدولة قوية صلبة بعد وفاته، فمنذ أن كان على قيد الحياة اختار خليفة له ابنه الأكبر مرادًا (مراد الثاني) محاولاً بذلك درء أي نزاع داخلي محتمل، ففي ظل المحاولات المستمرة من منافسي الأسرة الحاكمة في آسيا الصغرى لإعادة استقلالهم السياسي - حيث نشط إلى جانب البيه الكرماني ممثل الأسرة الحاكمة آيضين أوغلو جنيد وبيه جانيك اسفينديار المؤيدان لحركة الشيخ بدر الدين - وكان كل منهم يحاول جذب قمة العثمانيين العسكرية (سباهي) لتوجيهها ضد ممثل أسرة . . . عثمانية حاكمة هنا أو هناك خطرًا يدعو إلى القلق، وهنا لأول مرة استخدم الإنكشاريون، على المسرح التاريخي للدولة العثمانية بصفة الموازنين الاجتماعيين والمدافعين عن المصالح السياسية للأسرة الحاكمة.

بمبادرة حاجي إيواز باشا أحد أفراد حاشية محمد الأول أرسل الإنكشاريون بعد موت الحاكم العثماني فورًا من العاصمة إلى بيغا، إذ عين هناك مكان اجتماع الجيش الأناضولي لإعلان الحرب الكاذب على جنيد المتمرد، وفي الحقيقة كان على الإنكشاريين المجيء إلى بروصا لمساندة ابن محمد الأول مراد، الذي وصله خبر موت أبيه. بعد أن قبض الإنكشاريون في العاصمة أجورهم انطلقوا من أدرنة ولم يكونوا على علم بموت الحاكم العثماني، بقي مقربو محمد الأول في القصر يخفون خبر وفاته واحداً وأربعين يومًا مدعين أنه مريض فقط، وأخيرًا وصل إلى أدرنة خبر تولّي مراد الثاني العرش، وأنه في العاصمة الآسيوية قرأت خطبة حافلة باسمه، بعد هذا انتشر في أدرنة خبر وفاة محمد الأول الذي نقل جثمانه إلى بروصا للدفن، في ظل خطر اندلاع النزاع داخل القمة العسكرية الإقطاعية لصالح المنافسين الآخرين على السلطة. كان الإنكشاريون هم القوة التي قدمت دعمها لوريث العرش القانوني، ولكن رغم كل التدابير التي أجريت لم يتم نقل السلطة العليا في الدولة العثمانية بغير فتن واضطرابات، فقد انتهز البيزنطيون وجود مراد الثاني في

آسيا فقرروا تحقيق أهدافهم في شخص ابن بيازيد الأول مصطفى فساعدوه على أن يعلن نفسه حاكمًا على أدرنة، وهكذا قدم عم مراد الثاني دواعيه على العرش، وعند ظهوره في غيليبولو بصحبة جيش صغير من الفرسان الروميليين وحليفه جنيد أعلن نفسه ابنا لبيازيد الأول، لذا طلب مبايعته على أنه الوريث الشرعي فاضطر سكان ضواحي غيليبولو إلى أداء البيعة له تحت تهديد استعمال العنف، دخل مصطفى أدرنة حيث تم تنصيبه الحافل على العرش، وبدأت تسك النقود باسمه في أدرنة وسيريس.

أرسل مراد الثاني بيازيد باشا إلى روميليا، ولما وصلها بغية القيام بالكفاح ضد مغتصب السلطة العليا لم يجد من يسانده إلا القليل جدًا فانهزم على يد جيش مصطفى شلبي، بعد هذا النصر انحاز كل الجيش الروميلي إلى جهة مصطفى.

في ظل هذه التقلبات النزاعية ـ التي انتصر فيها في آخر الأمر مراد الثاني ـ كان للجيش الإنكشاري أثر كبير، فهو الذي قدّم منذ البداية مساندة حربية رئيسية لمراد الثاني، ويظهر أن الإنكشاريين في ذلك الحين قد بدأوا يتأصلون في البيئة الدينية والعرقية الجديدة، فأخذوا يتزوجون بالمدنيات، وبهذا الشكل بدأ الفيلق الإنكشاري يفقد خصال التنظيم الاجتماعي المغلق، وأخذ يتأقلم رويدًا رويدًا مع البيئة الثقافية التركية.

استأنف مراد الثاني سياسة أبيه السلمية تجاه الحكام المسيحيين المجاورين، لكن هذه السياسية لم تثبت قيمتها إذ إنها أدت إلى سخط السباهيين الروميليين الذين كانت الحملات العسكرية والفتوحات الجديدة لمصالحهم المادية، وكانت عاقبة سخط السباهيين على الحاكم الأعلى عدم الاستقرار السياسي في الدولة العثمانية بأسرها، وبما أن بيزنطة أدت مساعدتها لمغتصب السلطة مصطفى رأى فيها مراد

عدواً سياسيًا أساسيًا، فرأى أن استيلاء الأتراك على القسطنطينية هو الضمان الوحيد لأمن الدولة العثمانية وازدياد نفوذها فضلاً عن اكتساب الجيش العثماني غنائم حربية ثمينة، وبعد أن تولى مراد الثاني زمام السلطة سرعان ما حاول حصار القسطنطينية، فأرسل إلى أسوارها البيلربيه الروميلي ميخال أوغلو محمد بيه الذي برز في الكفاح ضد مصطفى وساند مرادًا، اجتاح الجيش العثماني كل ضواحي القسطنطينية وبعد برهة وصل إلى هناك مراد نفسه مع جيشه الإنكشاري وفرسان البلاط السباهيين.

في الحصار المذكور للعاصمة البيزنطية كان الإنكشاريون يقتحمون أسوار الحصن مرارًا لكن اليونانيين كانوا يسقطونهم من فوق السور.

كان مراد في حاجة ماسة إلى نصر حربي كبير، وذلك بغية تأكيد حقوقه في السلطة العليا فوعد مقاتليه بغنائم كثيرة إذا تحقق النصر.

كان الاستعداد للهجوم الرئيسي دقيقًا، أحيط سور المدينة بسياج من الخوازيق لقصفها من خلفها بمدافع الحصار، تمكن الأتراك من وضع أبراج الحصار قرب الأسوار مباشرة، في صباح الرابع والعشرين من آب عام ١٤٢٢، بدأ الأتراك الهجوم وهم يرددون «الله» «محمد»، ثم بدأ هدير المدافع وامتلأ الهواء بآلاف من السهام. من الطبيعي أن الدور الرئيسي في الهجوم وقع على الإنكشاريين، فتمكن بعضهم من الصعود على أسوار الحصن، كان أهل القسطنطينية ـ بما فيهم النساء ـ يقصفون المهاجمين في تهور بكل ما يقع بأيديهم، وعلى الرغم من قوة المحاصرين الكبيرة لم ينجح الهجوم، فالمحاصرون كانوا يسقطون من أعالي سور الحصن على الدوام، وبعد أن أخفق الهجوم الحاسم رفع الأتراك الحصار ليلاً وابتعدوا عن أسوار القسطنطينية.

لم يحقق مراد فتح القسطنطينية إذ إنه، من غير شك، لم يقدّر قوته حين قرر الاستيلاء على العاصمة البيزنطية، ففي تلك الآونة لم تكن بحوزة الجيش التركي مدفعية قوية قادرة على تدمير أسوار حصينة ومتينة كأسوار القسطنطينية، ولم تظهر لدى الأتراك مدفعية كهذه إلا في عهد ابن مراد الثاني محمد الثاني، كما لم يكن بحوزة العثمانيين أسطول قوي قادر على محاصرة المدينة من جهة البحر حصاراً أكيداً، ولم يكن عدد الجيش الإنكشاري كافيًا.

وقف مراد الثاني الذي تولّى السلطة حديثًا أمام مسألة توحيد الدولة وتعزيزها من جديد، وهذا ما لم ينجح به محمد الأول، كانت هذه المسألة تتضمن إخضاع البيلكات التركية في آسيا الصغرى الساعية لاسترجاع استقلالها السياسي، استطاع مراد أن يخضع لإمرته البيلك الأيضيني وبيلك مينتيشي، حيث بدأت تلقى الخطب وتسك النقود باسمه، صعبت الأحوال مع البيلك الكرماني طالما أنه كان قويًا في المجالين الحربي والإديولوجي على حد سواء، وكان العامل الأخير هامًا وخطراً إذ إن الكرمانيين كانوا يرون أنفسهم ورثة تقاليد تنظيم الدولة السلجوقية في آسيا الصغرى، فلم يخضعوا لسيادة «المتحشر السياسي» كما كانوا يسمون الدولة العثمانية، كان البيه الكرماني آنئذ يمارس سياسة هجومية، فقام بحملة على أنطاليا حيث استشهد ونال واحد من أبنائه وهو إبراهيم بيه من مراد الثاني أمراً باستلام الراية والتحزم بالسيف، كان هذا يرمز إلى التبعية التي أكّدتْ بزواج إبراهيم من شقيقة مراد الثاني، لم يبق على الحاكم العثماني إلا أن يترقب علاقات طيبة مع مالك البيلك الكرماني الجديد، بيد أن ذلك لم يحدث.

هجم صهر مراد الثاني على الممتلكات العثمانية مراراً منتهزاً أية حالة صعبة يقع بها منافسه السياسي في أوروبا، في كل مرة حاول البيه الكرماني فيها الهجوم على العثمانيين الآسيويين كان الأمر ينتهي بالصلح وعقد معاهدة سلام بين الحاكمين من جديد، بعد أن كان مراد يوجه سلاحه إلى الخائن الذي كان في الظاهر قد حافظ

على شيء من استقلاله، ولكن في حقيقة الأمر أصبح تابعًا للحاكم العثماني، كان شقيقا إبراهيم بيه يخدمان في بلاط مراد الثاني، وكان بمقدور الحاكم العثماني أن يضع في أية لحظة واحداً منهما على عرش إبراهيم، كان البيه الكرماني يوجه مفارزه العسكرية على جيش مراد حين كان الأخير يخوض حربًا كبيرة في أوروبا، بيد أن مراداً الثاني كان منشغلاً جداً بأوروبا مما كان يحول دون توطده الكلي في آسيا الصغرى، كانت روميليا مصدراً أساسيًا للنزاعات الداخلية حيث تمر الحدود مع العالم المسيحي.

منذ أن استلم مراد الثاني السلطة بدأ يحقق آمال الجيش الروميلي، كان بيكوات السناجق الحدودية يتمتعون باستقلال كامل تقريبًا فيقومون بغارات على الأراضي البيزنطية والصربية والمجرية وغيرها، ولم يمنعهم مراد من ذلك، في عام ١٤٢٣ حاول توراخان بيه الاستيلاء على سالونيك ولكنه أخفق في ذلك، وأدرك البيزنطيون أن دفاعهم عن هذه القلعة شاق فقرروا تسليمها للفينيسيين مقابل ٥٠ ألف دوكات، وفي عام ١٤٢٦ عقد الفينيسيون معاهدة السلام مع مراد تبقى بموجبها سالونيك بحوزتهم مقابل ١٠٠ ألف آقجة يدفعونها للأتراك سنويًا، أما البيزنطيون فقد كانوا آنذاك ضعفاء فلم يتمكنوا من الدفاع عن المدينة بأنفسهم، وبما أن بيزنطة باعت سالونيك لفينيسيا القوية استطاعت بفضل ذلك تأسيس مركز المقاومة ضد الهجوم التركي وأضحى ذلك المركز أكثر قوة.

لم يكن هدف البيكوات الحدوديين من سياستهم الحربية النشيطة التوسع بل كان الهدف الأساسي لدى السباهيين الحدوديين الغنائم، فالطمع بالغنائم هو ما كان يدفعهم إلى القيام بغزواتهم المستمرة والتسلسل إلى قلب الأراضي المجاورة، لأجل ذلك قام توراخان بيه بغارة على موريا مستفيداً من ضعف التحصينات ـ التي وضعها مانويل الثاني على البرزخ الكورينثي ـ وحمل معه آلاف الأسرى.

بعد محاولة فاشلة للاستيلاء على القسطنطينية عام ١٤٢٣ عقد مراد الثاني اتفاق سلام مع الإمبراطور البيزنطي.

تم عقد المعاهدة على شروط صعبة بالنسبة لبيزنطة، ففي بحر مرمرة كانت الممتلكات البيزنطية تنتهي خلف خندق المدينة مباشرة كما وجب على اليونانيين أن يدفعوا للأتراك إتاوات سنوية قدرها ٣٠٠ ألف آقجة.

على الرغم من الغارات على أراض الملاك البلقانيين، والمشاركة الدورية في العمليات الحربية مع أية جهة من الجهات المتحاربة في البلقان امتنع الأتراك بدءًا من عام ١٤٠٢ عن سياستهم الاستعمارية السافرة، ولم يكن سبب ذلك الفتن الداخلية في الدولة العثمانية فحسب، بل توطّد عدويها الرئيسين في أوروبا وهما المجر وصربيا، فلازار استيفان (١٣٨٩-١٤٢٥) ابن المنهزم على حقل كوسوفو سنة ١٣٨٩ اعترف في بادئ الأمر بالسيادة التركية عليه، ولكن في عام ١٤٠٨ انتهز سياسة سليمان السلمية وصار تابعًا للملك المجري سيغيزموند، ولعل ذلك ما دفع السباهيين الحدوديين إلى معاودة غاراتهم على المناطق الجنوبية للمجر، اضطر سيغيزموند إثر ذلك في عام ١٤١٩ إلى عقد معاهدة هدنة مع الأتراك لمدة خمس سنوات، وفي عام ١٤٢٤ مدد مراد الثاني فترة الهدنة لعامين إضافيين.

كانت الأراضي البلقانية مطمعًا للجيش الروميلي الذي كان يحلم دومًا بغنائم جديدة، وأكثر ما كانوا يشتهونه هو سالونيك الغنية التي كانت بيد الفينيسيين، فوجودهم في هذه المدينة كان يمثل عائقًا كبيرًا لخطط الأتراك على هذه الأراضي، فلم يكن مفاجئًا أن مراد الثاني سعى للقضاء على هذه العوائق.

في عام ١٤٣٠ قام الأتراك بحملة بهدف احتلال سالونيك، وسبق هذه الحملة استعداد طويل لم يجهله أعداء الأتراك المسيحيون، كان الاستطلاع من الجانبين يعمل على أحسن وجه، فلما عرف الغينويزيون استعدادات الأتراك للحرب

أسرعوا إلى تقوية غالاتا، أما الفينيسيون ـ الذين علموا كذلك عن استعدادات الأتراك للحرب ـ فبدأوا المشاورات الدبلوماسية مع مراد، ولكن في هذه المرة لم تفد كل الوسائل التي كانت فيما مضى تأتي بنتائج، وفي هذه المرة ألقى الأتراك أحد السفراء الفينيسيين في السجن، وهذا ما أسفر عن استعداد الأتراك الحقيقي للحملة، أسرع الفينيسيون بإرسال أسطولهم لدعم سالونيك.

جهز مراد الثاني الجيش بصورة جيدة، كان الجيش مجهزاً بآلات القذف وغيرها من آلات الحصار، وكلما كان جيش مراد يقترب أكثر إلى سالونيك كانت تنضم إليه مفارز الآقينجي والغازيين الروميليين، في بادئ الأمر لم ينجح الأتراك في اقتحام المدينة المحصنة تحصيناً ممتازاً على الرغم من أن سالونيك لم يبق فيها سوى بضعة آلاف من السكان، فقد هرب أكثرهم من المدينة قبل مجيء الأتراك، وأثناء الحصار فضل الكثير من سكان المدينة الانحياز إلى جانب الأتراك، كانت حامية سالونيك ضعيفة، إضافة إلى ذلك كان أهل المدينة يعدّون الفينيسيين غرباء، بيد أن الحامية كانت تدافع عن المدينة جيداً، من المحتمل أن الأتراك كذلك لم يبذلوا قصارى جهدهم في الحرب محاولين بذلك أن يظفروا بإصدار المرسوم الذي سيسمح لهم بنهب المدينة بعد الاستيلاء عليها، إذ كان ذلك الدافع الوحيد للجيش الذي يطمع أفراده بالغنائم الثمينة، أدركت القمة العسكرية ذلك فنصحت لمراد بأن يوعد الجيش بأنه سيسمح لهم بنهب المدينة، خلافاً لدوافع الأتراك الدينية في الحروب. من الجدير أن يعرف أنه لم يكن الدافع الديني هو الذي يحرك شعور المقاتلين الأتراك ويشجعهم على القتال، بل تصورهم التقليدي عن الحرب كمصدر الغنائم، ولما سمع المقاتلون إعلان حقهم النهب اندفعوا دون تردد إلى سلالم الحصار فتسلقوا أسوار المدينة وفي آخر الأمر استولوا عليها.

كان ذلك انتصاراً كبيراً بالنسبة للأسلحة التركية، فصارت سالونيك مجتاحة ومقفرة وأسر أهلها، أما البيوت الفارغة فأسكنت بالمستوطنين الأتراك، حولت أغنى كنائس المدينة إلى مساجد بما فيها مقدسة سالونيك الرئيسية وهي كنيسة القديس «دميتري» التي حولت إلى مسجد خاص باسم «قاسمية جامي»، ولو أن هذا لم يحدث في الحال ففي بادئ الأمر منحت الكنيسة المجتاحة كليًا للمسيحيين القلائل من الذين ظلموا في المدينة. على الرغم من فقدان الفينيسيين لمدينتهم استطاعوا أن يظفروا لأنفسهم بالحق في ممارسة التجارة فيها وأن يكون فيها قنصلهم الفينيسي، كما وجب على الفينيسيين أن يدفعوا للأتراك إتاوات على أملاكهم التي بقيت على الأراضي اليونانية.

بعد احتلال سالونيك أحس مراد من نفسه أنه سيد الموقف على البلقان، ولو أن توسعاته على الأرض كانت آنئذ قليلة أصبح مراد يتدخل في أمور وراثية وسياسية لدى ملاك موريا واليونان الوسطى دون مغادرة عاصمته أدرنة، فكان يكتفي بأن يعطي أمراً لأحد بيكواته الحدوديين، عندئذ كان خطر هجوم المفارز التركية الحدودية على أية مدينة يرغم ملاكها على الخضوع لإرادات الحاكم التركي.

في عام ١٤٣٨ وجه مراد أنظاره إلى المجر، علمًا أنه قام في عام ١٤٣٢ وفي عام ١٤٣٨ بالهجوم على ترانسلفانيا، وفي عام ١٤٣٧ قام المجريون بهجوم على تروشيفاتس التركية فدمروا السفن النهرية التابعة للأسطول التركي.

في عام ١٤٣٩ قام الأتراك بمحاولة احتلال بلغراد ولم ينجحوا في ذلك لكنهم لم ييئسوا من ذلك لأن الحملة على الرغم من إخفاقها جلبت لهم غنائم كثيرة وعدداً كبيراً من الأسرى.

في تموز عام ١٤٤٣ انطلق فلاديسلاف بجيش من بودا، كان في جيشه فيما عدا يانوش خونيادي، الطاغية الصربي غيورغي برانو كفيتش، شارك في الحملة

الصليبيون من تشيكيا وبولندا وفرنسا وألمانيا، اختلف المؤرخان التركيان عاشق باشا زاده ومحمد نشري في وصف هذه الحملة، فوصفا بصورة غامضة جدًا ذلك التضاد الحربي بين الجيش العثماني والجيش الصربي المجري الموحد، بل تحدّثا فقط وبصورة مختصرة عن نتائجه، وبمقتضى السلام المعقود بين مراد الثاني وأعدائه تنازل الأتراك للصرب عن كل الأراضي الصربية التي سيطروا عليها سنة ١٤٣٩، ومن الواضح أن ذلك كان عجزًا كبيرًا بالنسبة للأتراك أسفر عن مقدرة أوروبا على مواجهة الخطر التركي.

بعد أن أحرز فلاديسلاف نصرًا على مراد الثاني دخل بودا في شباط عام ١٤٤٤ بصورة حافلة، وفيما بعد تم عقد معاهدة سلام بين الملك المجري والحاكم العثماني في سيغيدينا لمدة عشر سنوات، انتقلت بموجب شروط المعاهدة كل صربيا إلى حكم غيورغي براتكوفيتش، وانتقلت فلاخيا إلى الحماية المجرية. بعض المصادر التركية تشير إلى أن غيورغي براتكوفيتش لم يسترجع الأراضي الصربية بموجب المعاهدة المعقودة في سيغيدينا، بل بحكم معاهدة منفردة بينه وبين مراد تم عقدها بعد التوقيع على السلام في سيغيدينا.

من المعروف أن مرادًا الثاني بعد هزيمته في كونوفيتسا وإرجاعه الأراضي المكتسبة حديثًا إلى الصرب غادر عاصمته أدرنة وانتقل إلى مانيسا وعين مكانه ابنه محمدًا حاكمًا على الدولة بعد أن استحضره من مانيسا.

ولكن أكان هذا يعني تنازل مراد عن العرش بإرادته؟ لم يكن بمقدور أحد استخدام ذلك الموقف إلا لفئة اجتماعية حائزة على سلطة حقيقية، وهي قمة السباهيين العسكرية الروميلية المرتبطة أكثر من غيرها مع السياسةالحربية، وحدث كثيرًا أن مرادًا كان يتخاصم مع أحد ممثليها، وأكثر ما سخط عليه السباهيون في روميليا هو عقد معاهدة السلام بين مراد الثاني والمجر، التي حرمتهم لفترة عشرة

أعوام من إمكانية خوض الحروب ضد هذه الدولة المسيحية واشترطت عدم عبور الدانوب، وعدم القيام بغارات على الأراضي المجرية، فحرم السباهيون الروميليون بذلك من الغنائم، كما أدى ذلك إلى تعطل قوات آقينجي الحدودية.

على أية حال لم تتطور الأحداث إلى درجة تنازل مراد الثاني عن العرش كليًا، فابنه البالغ الثالثة عشرة من عمره ـ الذي حل محله ـ لم يعلن رسميًا حاكمًا جديدًا، أضف إلى ذلك أن مرادًا ـ الذي انغمر في الحياة الصوفية ـ رأى أن بمقدوره الآن القيام بحملة ضد البيه الكرماني الذي أراد أن يأخذ فرصة كاملة لينشط سياسته المضادة للعثمانيين.

استفز تسليم مراد الثاني السلطة لابنه الحركات المضادرة للعثمانية في بيزنطة كذلك، فقد دس البيزنطيون إلى روميليا أخا مراد الثاني أورخان الذي كان يعيش في بلاط الإمبراطور البيزنطي كرهينة شرف، فأورخان ـ وفقًا لنظام الدولة التركي القديم ـ بوصفه الأخ الأكبر للحاكم المطاع كانت له حقوق كبيرة على العرش، وكانت هذه التقاليد معمولاً بها بين الأتراك الآقينجيين في روميليا. توجّه إليهم أورخان آملاً بأن ينال منهم مساعدة ومساندة، عندئذ وجه إليهم مراد جيشًا بقيادة شاهين باشا (خادم شهاب الدين باشا) أرغم أورخان على العودة إلى القسطنطينية.

خلق الوضع الصعب ـ الذي حلّ بالأسرة الحاكمة العثمانية ـ ظروفًا صعبة ملائمة لتنظيم حملة صليبية جديدة ضد الأتراك، قرر فلاديسلاف أن ينقض معاهدة السلام مع العثمانيين، ورفع البابا يفغيني السادس عنه القسم الذي أداه الملك المجري منذ مدّة وجيزة عند عقد المعاهدة السيغيدينية.

في ٢٠-٢١ أيلول من عام ١٤٤٤ عبر الجيش المجري الدانوب عند أورشوفا، وانطلق بطول الضفة اليمنى عبر «فيدين» و«نيكوبول» و«ينيبازار» و«شوملا» و«طيرنوفو» واصلاً حتى «فارنا»، وبعد أن اجتاز الجيش المجري الحدود اتجه إلى قلب

الأراضي العثمانية، استولى الجيش الصليبي بسهولة على قلعة «شولين»، وبعد ذلك احتل المجريون «فارنا» و«كالياكرا» و«كافارنا» التي لم تقاومهم، وحده البيه النيكوبولي محمد هو الذي قام مع آقينيجيه بهجومات على مؤخرات الجيش المجري حيث كانت ـ كما أفاد لطفي باشا ـ عربات كثيرة تحمل مدافع مربوطة بها رآها الأتراك آنئذ لأول مرة.

لما دنا جيش فلاديسلاف من فارنا ظهر أمامه فجأة جيش من ٤٠ ألف مقاتل برئاسة مراد، فقد علم مراد عبر وزراء ابنه محمد عن توغل جيش الملك المجري إلى الأراضي العثمانية، فأدرك الوزراء أن المواجهة العسكرية ضد فلاديسلاف لا بد أن يرأسها مراد لكونه قائدًا حربيًا كبيرًا وخبيرًا لا محمد. عبر الأتراك البوسفور بواسطة السفن الغينويزية، كانت تلك مساعدة ثانية قدمها الغينويزيون للأسرة العثمانية، كما نرى لقد ظهر مراد على المسرح السياسي من جديد وفي أخطر المراحل التي مرت بها الدولة العثمانية.

بعد أن عبر مراد بمساعدة الغينيزيين البوسفور ولم يلق أية مقاومة لحملته من جهة الإمبراطور البيزنطي إيوان الثاني باليولوغ، اتجه إلى أدرنة حيث توحد مع السباهيين الأناضوليين والروميليين في أواسط تشرين الأول عام ١٤٤٤، فقد أدى الخطر الزاحف من الأعداء نسيان التناقضات والخصومات الماضية.

التقى الجيشان قرب فارنا، رأس الهجوم على الجناح ـ حيث الجيش الأناضولي ـ يانوش خونيادي، ففقد الجيش الأناضولي إثر الهجوم عليه بيلربيهه الذي قتل، كما استشهد الكثير من سنجبيكوات، أما الجيش الروميلي فلم يتحمل انقضاض العدو فولى أدباره، بقي السلطان في ساحة القتال في أكناف جيش البلاط «كابيكولو» فقط، بدى أن التاريخ قد كرر نفسه وأن مرادًا سيكون مصيره مصير جده بيازيد الأول، فالأتراك انهزموا على الجناحين، ولكن الإنكشاريين تدخلوا

بالأحداث، ففي المساء تظاهر الإنكشاريون بالانسحاب، وفي الحقيقة تحصنوا في ثغر صغير أما مراد فتركوه ضمن حلقتهم ولم يسمحوا له بالرحيل، ولما ظن خونيادي أن الإنكشاريين ومرادًا قد انسحبوا حقيقة نصح لفلاديسلاف بمطاردة بقايا الجيش التركي الذي بدا لهم مدمرًا تدميرًا كاملاً أما الإنكشاريون فتركوا الأفواج برئاسة الملك المجري تدخل الثغر ومن ثم أخذوا يوجهون إليهم ضرباتهم من الجهتين، قام مشاة البلاط بتدمير أفضل الأفواج المجرية، في هذا الهجوم قتل الملك المجري فلاديسلاف. يخبرنا لطفي باشا أن الإنكشاريين و «العذبيين» تمكنوا من التسلل إلى عربات العدو الحاملة للمدافع وسلبها منه.

تفيد المصادر العثمانية أن فلاديسلاف قد قطع رأسه بأمر ياياباشي إنكشاري يدعى خوجا خيزير، ثم ثبت رأسه على الرمح وسير به بين الجنود الأتراك الباقين، وهذا ما زاد من قوتهم ومعنوياتهم فدمروا جيش العدو كليًا، استطاع بعض المقاتلين المجريين الفرار إلى ألبانيا حيث ساعدهم «إسكاندربيغ» على الرحيل إلى فينيسيا.

نتيجة المعركة حصل الأتراك على عدد كبير من الأسرى لدرجة أنهم أرسلوا إلى سلطان مصر هدية أربعة وعشرين فارسًا بصحبة آغا العذبيين الروميليين الذي حمل معه إلى سلطان مصر خبر الانتصار على الملك المجري، ومن الجدير ذكره أنه بعد إحراز النصر قرب فارنا ـ الذي رفع من سمعة الحاكم العثماني من جديد ـ أعلن مراد نفسه حاكمًا وأعاد ابنه محمدًا إلى مانيسا.

كان على مراد لأجل تعزيز منزلته وإعادة السلطة العليا لنفسه أن ينال تأييدًا من إنكشاريي العاصمة، تفيد الروايات أنه عند ذهاب مراد إلى الصيد في ضواحي عاصمة العثمانيين الأوروبية سأل الإنكشاريين المرافقين له إذا كانوا يريدون أن يروه على العرش ـ الذي هيّأه لابنه لينوب عنه عليه فرد الإنكشاريون بالموافقة.

بعد هذه المعركة كشف الإنكشاريون عن طبعهم الجديد وهو الطمع في الثروة والاهتمام المستمر بمصالحهم المادية، أضحى السعي وراء المصالح المادية هدفًا أساسيًا لدى هذا التنظيم الاجتماعي من المجتمع الغثماني، في عام ١٤٣٢ أشار أحد تقارير أهل «دويروفنيك» إلى سخط الإنكشاريين، فقد عبروا عن عدم رضاهم بأعباء الخدمة العسكرية وقلة الأجور، ولم يذهب عنهم ذلك السخط إلا بإرسال المال والهدايا الثمينة لهم.

أسفرت معركة فارنا لأول مرة عن جانب قوي في الآلة الحربية العثمانية وهو وجود المشاة المدربين والمحترفين القادرين على المبادرة في القتال، في حقيقة الأمر تشير كل المصادر إلى أن الفضل في الانتصار في غزوة فارنا يعود إلى الإنكشاريين، ففي تلك المرحلة من تطور الدولة العثمانية كان الإنكشاريون يستجيبون استجابة تامة للأهداف التي نظم من أجلها الجيش الإنكشاري، ويحتمل أن عودة مراد إلى العرش في شتاء عام ١٤٤٤-١٤٤٥ كان بسبب رضا الإنكشاريين من هذه التبدلات في السلطة.

من الصعب تفسير ابتعاد مراد الثاني عن أعمال الدولة ثانية، فقد حدث ذلك سريعًا بعد موقعة فارنا، تقول المصادر العربية إنه في ٢ كانون الأول عام ١٤٤٥ قدم إلى القاهرة السفراء الأتراك بهدايا لسلطان مصر وبخبر تنازل مراد عن السلطة لابنه محمد، يحتمل أن تخلي مراد عن العرش كان بإرادة الجيش الروميلي.

لم يتدخل مراد قط في أعمال ابنه الإدارية، وهنا ظهر على المسرح السياسي الجيش الإنكشاري الذي استغلّ الحريق الناشب في أدرنة عام ١٤٤٦ وأقام تمردًا، كانت أجرة الإنكشاريين آنئذ قد تأخر دفعها لمدة نصف سنة، فلذا غضب الإنكشاريون ودمروا كل بيوت الوجهاء والأسر الغنية.

يفترض بعض المؤرخين الأتراك أن سبب تمرد الإنكشاريين كان انخفاض سعر العملة، ويستند ذلك الرأي على أخبار مدوني التاريخ العثمانيين في القرون الوسطى، يفيد سعد الدين أن محمداً بعد أن تولى زمام السلطة من جديد أمر بسك عملة جديدة باسمه، في تلك الآونة نشب في أدرنة حريق احترق على أثره سوق أدرنة المسقوف (بادستان) وضاحي «تحتكاله» وبعض الأسواق الأخرى، وفي أعقاب هذا الحادث نشب تمرد الإنكشاريين الذين قاموا بهجوم على منزل خادم شهاب الدين باشا، أنقذ شهاب الدين نفسه بالهرب إلى «القصر القديم» حيث آواه السلطان، اجتمع الإنكشاريون على ربوة «بو تشوك تيبي» وانتهوا من تمردهم فقط بعد أن وعدوهم بزيادة أجورهم، يظهر أن خليل باشا والبيلربيه الأناضولي ـ النصيران للحاكم الأسبق ـ انتهزا ذلك التمرد وقررا معًا دعوة مراد الثاني إلى العودة إلى السلطة، ومن الجدير بالذكر أن مراداً بعد انتقاله إلى الساحل الأوروبي أقبل إلى أدريانوبول واستقر حيث الإنكشاريون مجتمعون أي على «بوتشوك تيبي» وبعد أن كشف ما في نفوسهم تولى السلطة من جديد.

الراجح أن طلبات الإنكشاريين لم تنحصر فقط في المادية منها، فأولئك الذين انتهزوا تمردهم كانوا يسترشدون بالحسابات السياسية. تجدر الإشارة إلى أن الإنكشاريين اجتاحوا بيت عدو خليل باشا البيلربيه الروميلي كول شاهين باشا محسوب السلطان محمد، وهذا ما يشير إلى أن كول شاهين باشا ـ الذي كان يرأس كل الجيش الروميلي ـ كان خصمًا لمراد الذي لا يحبه السباهيون الروميليون، ويحتمل أن سبب ذلك المقت كان سياسة السلطان غير التوسعية في أوروبا، والسجية المسالمة لدى الحاكم العثماني الميال للخرافات، ما جعلهم يلقبونه بدرويش. في ظل هذه الظروف وجد خليل باشا نصير مراد دعمًا له في شخص البيلربيه الأناضولي أوزغور أوغلو عيسى بيه والوزير ساروج باشا، وأخيراً الآغا

الإنكشاري كورجو دوغان، انتهز خليل باشا تمرد الإنكشاريين ـ الذي كان، على الأرجح، منظمًا سلفًا ـ فأرسل إلى مانيسا ساروج باشا بغية إعادة مراد إلى الحكم، كتب سعد الدين أن مرادًا أقبل إلى مكان اجتماع الإنكشاريين إذ لم يكن باستطاعته الدخول إلى القصر إلا بمساعدتهم.

كان ذلك الحدث الأول في تاريخ الدولة العثمانية حين استُخْدِم الإنكشاريون لأغراض سياسية، في هذه الحالة استغل في النزاع على السلطة العليا في البلاط العثماني سخط الإنكشاريين لأسباب مادية فقط، الأرجح أنه إذا أخذنا في الحسبان احتراق «بادستان» في أدرنة وغيرها من الأسواق، وأن التمرد قد اندلع في شباط، وأن أجور الإنكشاريين قد ازدادت، يمكننا الافتراض أن التمرد قد حل نتيجة غلاء المواد الغذائية في العاصمة، وهذا يحدث فقط عند قلتها.

إن قصة انتقال السلطة إلى محمد تارة وإلى مراد تارة أخرى تحمل في طياتها بعض الغموض، أكان سبب ذلك بعض الجوانب الغريبة في شخصية دفعته إلى تقدير فشله في أعماله الإدارية بطريقته الخاصة، أم أن حقيقة ذلك الأمر نزاع خفي على النفوذ في أمور الدولة من قبل القمة العسكرية الروميلية، يبقى ذلك السؤال من غير جواب، ومن المحتمل أن العاملَيْن كليهما أثرا في ذلك، على أية حال إن عودة مراد إلى الحكم عام ١٤٤٦ بمعاونة الإنكشاريين ينبئ عن عدم رغبته في التخلي عن العرش كليًا منذ البداية، وهجوم الإنكشاريين على البيلربيه الروميلي بالذات يشير إلى وجود معارض لمراد من لدن روميليا، ومع ذلك لا بد من الإشارة إلى أن النزاع قد تم في العاصمة بمشاركة كبيرة من قمة البلاط التي اكتسبت لذلك الحين أهميتها المستقلة ومصالحها غير المرتبطة مع تشكل السياسة العسكرية.

بعد عودة مراد الثاني إلى الحكم بقليل قام بحملتين كبيرتين على الأراضي الأوروبية: في عام ١٤٤٧ على ألبانيا وفي عام ١٤٤٨ على موريا، أقيمت الحملة

على ألبانيا لأجل الاستيلاء على «آقجا خيسار» (كرويا) بتوجيه من ابن أخي «إسكاندر بيغ» المشهور ويدعى حمزة بيه، الذي أشار إلى توافق الظروف في ألبانيا حيث ظهرت إمكانية انتهاز فرصة التناقضات التي حلت بين الأشراف الإقطاعيين فيها، كان الأتراك على مدى كل فتوحاتهم دومًا ينتهزون التناقضات والخلافات داخل معسكر العدو.

انطلق إلى ألبانيا السلطان نفسه ومعه ابنه محمد، تعرضت قلعة آقجا خيسار لحصار استمر شهرين، منذ زمن ليس ببعيد سلب هذه القلعة من الأتراك إسكاندر بيغ، نظم إسكانر بيغ انتفاضة في ألبانيا بدعم من روما وفينيسيا ونابولي، فاستطاع أن يخضع لسلطته جزءاً لا يستهان به من هذا البلد الجبلي، وفي مجلس كبار الإقطاعيين السلافين والألبان ـ الذي عقد في مدينة أليسيو التابعة للفينيسيين عام ١٤٤٦ ـ انتخب إسكاندر بيغ حاكمًا على ألبانيا، وعلى مدى العامين ١٤٤٤-١٤٤٦ أحرز إسكاندر بيغ انتصارات عديدة على الجيوش التركية الحدودية، وهذا ما مس مصالح السباهيين الأتراك المحليين، وعلى الرغم من محاولات جيوش السلطان العديدة في الاستيلاء على قلعة آقجا خيسار إلا أنها لم تنجح، وبعد أن وجد الأتراك منابع المياه التي ترتوي منها المدينة وقطعوها عنها تمكنوا من احتلال القلعة، ومن ثم الكثير من الأراضي المجاورة لها.

في عام ١٤٤٨ نظم يانوش خونيادي جيشًا موحدًا من ٣٠ ألف مقاتل مجري وبولوني وفالاخي وألماني وتشيكي، وضم ذلك الجيش الفرسان والمشاة كذلك، بعد أن جهز خونيادي الجيش بمعدات حربية ممتازة والمورتير والمدافع المثبتة على العربات وغيرها، اتجه إلى حقل كوسوفو ماراً بالأراضي الصربية ومعرضًا إياها للنهب والنيران، ولما علم مراد أن يانوش خونيادي اخترق الحدود أسرع من ألبانيا

لمواجهته معلنًا الحملة العظيمة في سبيل الدين، وفي صوفيا جمع مراد كل جيشه الذي ضم حتى فرسان البيلك الكرماني، وهنا أجرى استعراض الجيش.

لم يسفر اليوم الأول من القتال على حقل كوسوفو عن أية نتيجة، ولو أن الأتراك قد استطاعو سلب بعض رايات العدو، وفي اليوم الثاني تكبدت الجهة التركية خسائر فادحة، كما قتل بعض البيكوات، وفي اليوم الثاني من المعركة تراجع جناحا الجيش التركي تحت ضغط المسيحيين إلى الخلف وحاول الأتراك إظهار انسحابهم فجردوا وسط الجيش حيث كان ـ كالعادة ـ الإنكشاريون، فانهالت عليهم كل قوات العدو الهجومية، لكن الإنكشاريين ومعهم العذبيين دافعوا عن أنفسهم بأتراسهم وعرضوا المسيحيين لنيران المدافع والبنادق، وبعد هذا بدأوا ينسحبون ببطء إلى الخلف جاذبين خلفهم أعداءهم، في تلك اللحظة انهالت على المسيحيين ضربات أجنحة الجيش التركي من الجهتين، فهرب يانوش خونيادي على الرغم من أن جيشه قد استأنف المقاومة، وبعد أن علم المسيحيون عن هروب قائدهم الحربي توقفوا عن المقاومة.

في خريف عام ١٤٤٨ قام مراد ـ بتوجيه من توراخان بيه ـ بحملة على موريا، وطلب الشي نفسه من الحاكم العثماني حاكم أثينا «نيريو» الذي كان يدفع الإتاوات لمراد الثاني، وكما نلاحظ اتخذت الحملة بمبادرة أحد أكثر الممثلين نفوذًا للقمة العسكرية الروميلية التي كانت معنية بصورة عميقة بإجراء السياسة الحربية، فبينما كانت هذه تؤدي خدمتها في المناطق الحدودية من الدولة العثمانية كانت تعقد بنفسها العلاقات الدبلوماسية مع الحكام والملاك المسيحيين المحليين لإرضاء مصالحها.

كان العائق الكبير في طريق الجيش التركي التحصينات الدفاعية على البرزخ الكورينثي البالغة من الطول ستة أميال التي شيدت خصيصًا لمواجهة الهجوم التركي المحتمل، كان يدافع عنها الإمبراطور البيزنطي قسطنطين، استعمل الأتراك

والبيزنطيون المدفعية على نطاق واسع، وفي مساء اليوم الرابع من وجود الأتراك قرب خط الدفاع الكورينثي بدأوا يستعدون للانقضاض الحاسم، فشعلوا في مخيماتهم الشعلات النارية الكبيرة وأخذوا يؤدون أناشيد دينية في مدح محمد، مثل هذا التهيؤ ـ المظهر للروح القتالية لدى الأتراك ـ يبدأ قبل الهجوم بيومين. وبمساعدة الجنود الأتراك الاحتياطيين «السيراخوريين» ـ الذين لا يشاركون في القتال ولكن يستعملون كقوة عاملة ـ سحب الأتراك آلات المدافع من كلّ الأنواع إلى حافة الخندق، ولم يكن لدى اليونانيين عدد كاف من المقاتلين لحماية كل الأميال الستة من خط الدفاع، أرسل قسطنطين إلى مراد «خالكو كونديلا» محاولاً حل النزاع بطريقة سلمية، لكن الحاكم التركي كان مصممًا كل التصميم ليفتح للآقينجي الأتراك طريقًا إلى موريا، فأمر بإلقاء «خالكو كونديلا» في السجن، ونتيجة القصف المدفعي المركز استطاع الأتراك في آخر الأمر هدم جزء من السور ولم يكن في ذلك المكان إلا ثلاثمئة يوناني صمدوا لفترة ثم اضطروا إلى الهرب.

في كانون الأول عام ١٤٤٨ سقطت كورينث المحاصرة من جيش مراد، ولأجل احتلال المدينة كان لا بد من الاستيلاء على خمسة مجادل صغيرة محيطة بها، وكان ذلك يحتاج إلى مدافع الحصار الخاصة، أحضر الأتراك إلى أسوار كورينث النحاس على الجمال وصبوا منه المدافع في الميدان، في اليوم الثالث عشر من الحصار ظهرت في سور كورينث ثغور كبيرة كافية ليتسلل عبرها الإنكشاريون إلى المدينة، أول من صعد الأسوار ـ كما تقول الروايات ـ الإنكشاري الصربي الأصل الذي يسميه المؤرخون البيزنطيون «خيتيريس» فتابعه الباقون، وبعد أن استولى الأتراك على خط الدفاع الكورينثي فتح أمامهم الطريق للقيام بغارات مستمرة على موريا.

لم يشارك مراد الثاني في الأعوام الأخيرة من حياته في أية حملة، وتوفي سنة ١٤٥١ وبقي جثمانه غير مدفون ثلاثة عشر يومًا في قصر في أدرنة، بقي خبر وفاته مكتومًا عن الجميع إلى أن أتى من مانيسا ابنه محمد الذي كان في التاسعة عشرة من عمره.

أكثر ما كان يقلق محمدًا في ذاك الحين هو أفعال البيه الكرماني إبراهيم الذي حاول عقب موت مراد الثاني إثارة ممثلي الأسر التركية القديمة في آسيا الصغرى ضد السيادة العثمانية، فبعد أن دعا إبراهيم إلى بلاطه ممثل أسرة غيرميان أوغلو وأسرة مينتيشي أوغلو وأيضين أوغلو أمر بتنظيم غزوات للنهب بمشاركتهم في مناطق مينتيشي وغيرميان وأيضين ومنحهم مفارز من الفرسان الترك، فقاموا بغارات على مناطقهم، أما إبراهيم نفسه فرأس حملة على «آلايا»، فاضطر محمد أن يرد على ذلك بأن يرسل إلى الأناضول البيلربيه الأناضولي إسحاق باشا، في الوقت نفسه جمع محمد كل جيشه واتجه بنفسه إلى الأناضول في أثر إساق باشا، كان في الجيش كذلك الإنكشاريون الذين ـ كما يقول خالكو كونديلا ـ أجرى لهم محمد استعراضًا في غيليبولو، فتبين من ذلك أن التركيب الإنكشاري لم يكن كله موجودًا في السرايا الإنكشارية، فاضطر محمد إلى أن يكمل مفارز المشاة الإنكشاريين بصقاريه، أما آغا الإنكشاريين فعوقب بالضرب بالعصا.

انطلق الجيش العثماني باتجاه آكشهير وبيشهير فأعلن سكانهما عن خضوعهم للسلطان العثماني، بعد قليل دنا الجيش من أسوار قونيا، أما البيه الكرماني إبراهيم ـ فبعد أن هرب من عاصمته ـ أرسل إلى محمد رسالة عبر فيها عن خضوعه له ولجأ بذلك إلى طريقة معتادة لتسوية النزاعات، فطلب منه الرحمة ووافق على طلبه بإرسال النقود الذهبية للباشاوات العثمانيين، بذل أشراف محمد قصارى جهدهم لإقناع الحاكم العثماني بضرورة الموافقة على طلبات إبراهيم، ووعد إبراهيم بأنه

سيزوج ابنته من محمد وسيرسل للجيش العثماني مفارزه العسكرية عند الضرورة، وأنه سينفذ كل ما يأمره محمد دون اعتراض، أرسل محمد الثاني إلى إبراهيم رسوله، فأقسم إبراهيم أمامه بأنه لن يقوم بعد ذلك بأية ثورات ضد الحاكم العثماني وسيطيع كل أوامره، كما قام البيه الكرماني ببعض التنازلات الأرضية، وحسب الاتفاق خضعت المدن بيشهير وسيديشهير وكيرشهير - وهي المدن الواقعة على حدود ممتلكات البيه الكرماني - للسلطة العثمانية.

في طريق العودة لما كان جيش محمد متجهًا إلى بروصا حصل في أحد التوقفات تمرد من الإنكشاريين فأخذوا جميعهم يطالبون بمكافأة مالية على الحملة التي قاموا بها، فوقفوا في صف واحد والسيوف على أحزمتهم والقِسِيُّ والسهام في أيديهم وانتظروا مجيء محمد، ولما جاء السلطان عبّروا بصوت واحد عن رغبتهم في استلام الذهب والفضة مكافأة على الحملة التي قاموا بها، كان بصحبة محمد شهاب الدين وتوراخان بيه، فأخذ الاثنان يؤنبان الإنكشاريين متّهمين إياهم بسوء السلوك أمام «حاكم العالم». وقد أظهر مع ثباته ورفض طلبات المتمردين ناظراً إليها أنها سفاهة لا يسلم بها، ولما عاد إلى خيمته أمر بعزل الآغا الإنكشاري كورتشي دوغان ومعاقبة ضباط السرايا الإنكشارية بالضرب بالعصى، ثم طرد كل اليايباشي من الجيش الإنكشاري، وعين مكانهم غيرهم، أضحى تمرد الإنكشاريين الأسبق في أدرنة - حين اغتصبوا المدينة إبان الحريق - وهذا التمرد مقدمة للتمردات الإنكشارية الكثيرة المقبلة المنطلقة كلها من أهداف مادية.

باتت معاقبة الإنكشاريين الأخيرة مثالاً وحيداً لاستعمال السلطة الحاكمة العنف تجاه الجيش الإنكشاري الذي - كما يبدو - أعطى ثماراً، ففي عهد حكم محمد الثاني كان الإنكشاريون يظهرون إخلاصهم الكامل تجاه السلطان، أضف إلى ذلك أن السلطان كان بارعًا في معاقبة ومكافأة البلاط وكان عادلاً في ذلك.

كانت عاقبة أفعال البيه الكرماني الهادفة إلى إحياء الاستقلال السياسي الغابر لإمارته وتحريضه ممثلي الأسر التركية في آسيا الصغرى المغلوبة من قبل العثمانيين على التمرد، اضطرابات في البيلك الأسبق مينتيشي، فقد أثار واحد من ممثليها يدعى إلياس بيه تمردًا ضد السلطان العثماني، فأرسل السلطان لقمعه الجيش الأناضولي بقيادة إسحاق باشا الذي نجح في إخماد التمرد، نتيجة ذلك أعلن محمد عن قضاء تام على أسرة مينتيشي أوغلو، وامتلأت كل قلاع هذه المنطقة بالحاميات العثمانية، أما إلياس بيه فاضطر إلى الهرب.

خلافًا لنصائح خليل باشا بدأ محمد الثاني يستعد لأكبر تدبير عسكري وسياسي في عهده ألا وهو فتح القسطنطينية، وعلى الساحل الأوروبي من مضيق بوسفور مقابل القلعة التي شيدها محمد الأول على الساحل الآسيوي من المضيق ابتدأ تشييد قلعة جديدة، زار السلطان أعمال البناء في آذار عام ١٤٥٢، وتم البناء بإشراف أربعة من وزراء السلطان، أطلقت على هذه القلعة تسمية «بغاز كيسين» (وفيما بعد سميت «روميلي خيساد») نصبت في القلعة المشرفة على أضيق أماكن من المضيق مدافع تطلق قذائف ضخمة.

تعرضت ضواحي القسطنطينية للنهب من قبل مفارز القائد الحربي الأسبق للبيه الكرماني آقجالي أوغلو محمد باشا الذي يظهر أنه بقي في خدمة العثمانيين منذ القتال بين مراد الثاني ويانوش خونيادي عام ١٤٤٨، كان محاربو شيخ القبيلة التي غادرت كرمان منذ عهد قريب يطعمون في غنائم مفضلة لديهم وهي قطعان الماشية، وانضم علماء الدين الإسلامي إلى الإعداد الإديولوجي للاستيلاء على العاصمة البيزنطية فكانت الخطب الداعية إلى فتح القسطنطينية تلقى في كل المساجد.

استأنف محمد الاستعدادات للعمليات الحربية، استولى جيش البيلربيه الروميلي دايي قاراجا بيه على المدن البيزنطية الواقعة على ساحل البحر الأسود ـ وهي «ميسيفديا» و «أنخيلاوس» و «فيزوس» ـ دون أن يواجه مقاومة من سكانها، كما استولى على بعض المناطق على بحر مرمرة وهي «سليمفريا» و «بيرفينوس»، وفي ٤ نيسان عام ١٤٥٣ دنا الجيش التركي من أسوار القسطنطينية، فأسرع اليونانيون إلى ذبح كل الأتراك القاطنين في العاصمة البيزنطية، وحوصرت القسطنطينية من البر والبحر، وأقبل الإنكشاريون على عملهم المعتاد وهو حفر الخنادق، فكانوا يجعلون التراب في السلال بغير توان مكونين متاريس وقواعد للمدافع.

أخبر «سفراندزي» ـ أحد سكان العاصمة البيزنطية ـ أن عدد الجيش الذي وصل إلى أسوار القسطنطينية بلغ ٢٠٠ ألف، كان لدى الجيش التركي مدافع ممتازة والكثير من المدافع المصنوعة في أدرنة، جهز محمد في غيليبولو أسطولاً من أربعمئة سفينة (بما فيها السفن الكبيرة والمتوسطة والزوارق) كان على متنها إضافة إلى الجدافين عشرون ألف «عذب» من المشاة البحريين، رأس الأسطول التركي سليمان بالطا أوغلو، أما محمد فنصب مع ١٥ ألف إنكشاري معسكره مقابل باب «رومان» كما وضع هناك المدفع الرئيسي ـ الذي كان مفخرتهم ـ جانب البطارية الرئيسية، ضم الجناح الأيمن الجيش الأناضولي بقيادة إسحاق باشا، ووقف في الجناح الأيسر الجيش الروميلي بقيادة دايي قاراجا بيه، واستقر في البحر مقابل أسوار القسطنطينية أسطول تركي كبير.

قام بالدفاع عن القسطنطينية قوات قليلة جدًا، فكما بيّن سفراندزي «لم يكن بحوزة المدينة سوى ٤٧٧٣ شخص يدافعون عنها باستثناء الأجانب الذين كان يصل عددهم إلى مئتين أو أكثر بقليل» كانت هذه البيانات الدقيقة بحوزة سفراندزي،

ذلك لأن قسطنطين أمر بتسجيل كل القادرين على الدفاع عن المدينة «الدنياويون والرهبان» وإحصائهم، وقد شارك سفراندزي في ذلك الإحصاء الذي أجري سراً، أمر قسطنطين بإحضار المؤن من الضواحي إلى المدينة سلفًا تحسبًا لطول الحصار، ولإصلاح بعض الأماكن من سور الحصن.

لم تتلق العاصمة البيزنطية أية مساعدة من الغرب، واكتفى البابا فقط بإرسال الكاردينال «إسيدور» اليوناني الأصل الذي كان مطرانًا لموسكو، فأقام في كنيسة القديسة صوفيا بالقسطنطينية خدمة دينية «أونياتية» رمزاً للتسامح بين الكنيسة الشرقية والغربية، وهذا ما أثار سخط السكان، ففي ذاك الحين بالذات نطق الأرستقراطي البيزنطي المشهور «لوقا نوتارا» بعبارته المشهورة: «لو حكمت مدينتنا العمامة التركية لكان ذلك خيراً من تاج البابا اللاتيني».

شارك في الدفاع عن القسطنطينية الفينيسيون والغينويزيون، وجاءت لمساعدة المدينة سفينتان من جزيرة «خيوس» بقيادة الغينويزي «جوفاني جوستنياني»، ولكن كان من الصعب أن تواجه هاتان السفينتان الأسطول التركي الكبير، ولو أنه في ٢٠ نيسان استطاعت أربع سفن غينويزية وواحدة يونانية أن تخترق الأسطول المعادي وأن تلقي مرساها في خليج «القرن الذهبي»، كانت جوانب تلك السفن أعلى من جوانب السفن التركية فلذا لم يقدر الأتراك على أخذها بالمصادمة. إلى ٢٢ نيسان لم تكن في خليج القرن الذهبي سفينة تركية واحدة، ويزعمون أن سبب ذلك كان السلسلة الممتدة بعرض الخليج التي كانت تمنع السفن من المرور، بيد أنه ثمة رواية تقول إن الأتراك استطاعوا في إحدى الليالي نقل سبعين من سفنهم إلى القرن الذهبي براً، وهكذا تجنبوا ذلك العائق، حاول حماة القلعة إحراق السفن التركية ليلاً لكن الخطة هذه كشفت للأتراك مما حال دون نجاحها.

ساعد على فتح المدينة على وجه الخصوص المدفعية التركية القوية التي بدأت قصف المدينة في ١٢ نيسان، وكانت بحوزة الأتراك الكثير من المدافع البرونزية المتطورة كبيرة الحجم وكانت تطلق قذائف حجرية ضخمة فتهدم أسوار القسطنطينية، كل الأنقاب والأنفاق التي حفرها الإنكشاريون تحت أسوار الحصن لم تعد لها حاجة لأن المدافع عملت كل شيء، كان لدى الأتراك صانع المدافع «أوربان» المجري الأصل الذي سعى وراء حياة أفضل، فعرض خدماته في بادئ الأمر للإمبراطور البيزنطي ثم لمحمد الثاني، فنظم أوربان عمليات صب المدافع كبيرة العيار التي كانت قذائفها قادرة على أن تلحق بأسوار الحصن أضرارًا بالغة، كان الأتراك يطلقون حوالي مئة طلقة يوميًا من المدافع كبيرة العيار التي كانت تهدم الأسوار بسهولة، هذا إلى جانب الرماة الذين كانوا يطلقون آلاف الأسهم.

خلال أربعة وخمسين يومًا من الحصار كان الأتراك يردمون الخندق بالتراب والحجارة ليمهدوا لأنفسهم سبيلاً ـ بعد هدم الأسوار ـ للقيام بالهجوم الرئيسي، كان التوجيه الديني والوعظ دائمين في معسكر الأتراك إذ شارك في عملية الحصار علماء الإسلام المعروفون مثل آق شمس الدين وولي الدين وغيرهما.

منذ ١٨ نيسان حاول الأتراك القيام بالهجوم الحاسم من جهة البر حيث شارك الإنكشاريون وغيرهم من المشاة، اندفع الجنود الأتراك إلى الثغور المنقوبة في أسوارها إثر القصف المدفعي، لكن المدافعين كانوا يصدونهم بحذاقة وذلك بواسطة الحجارة والأسهم والرماح والزفت المغلي، استمر القتال يومًا كاملاً، وفي الليل حفر اليونانيون الأماكن المردمة من الخندق من جديد وسدوا الثغور في الأسوار، جرت بعد ذلك محاولتان للاقتحام: في ٧ و ١٢ أيار ولكنهما لم تنجحا، لم يفد بأي شيء النقب تحت القصر الفالاخرني لأن حماة المدينة قد كشفوه وطردوا منه الأتراك بواسطة الدخان، أوصل الأتراك إلى السور الملاصق لباب «رومان» أبراجًا خشبية

مغطاة بالجلد، وكان واحد منها أعلى من أسوار الحصن مددت منه المنقلات المعلقة بالحبال، وكان عليه كبش قوي استطاع الأتراك باستخدامه هدم الأسوار بسهولة، جرت محاولة التسلل إلى المدينة عبر هذه الثلمة بيد أن هذا الهجوم قد صُد أيضاً فاضطر الأتراك إلى التراجع في الليل تاركين البرج قرب أسوار القلعة، فأحرقه حماة المدينة ليلاً وسدوا الثغر.

وأخيراً أعلن الهجوم الحاسم، أشعلت غداته في معسكر الأتراك شعلات نارية كثيرة، أدرك محمد أنه لم يبق لجيشه إلا أن يزداد حماساً، فأعلن بأنه سيمنحهم المدينة لثلاثة أيام لينهبوها كما يروق لهم، كان إعلان «يغما» يؤثر في الجنود تأثيراً أكثر بكثير من الدعوات الدينية للنضال ضد الكفار، وهذا لم يمنع الخطباء الإسلاميين من جهتهم من رفع معنويات المقاتلين وتشجيعهم بدعوتهم بأنهم سيؤدون صلاة الصبح داخل أسوار القسطنطينية، دار البشراء بكل الجيش معلنين موافقة السلطان على «اليغما»، في الصباح الباكر من ٢٩ أيار عام ١٤٥٣ اتجه الأتراك صفاً واحداً في هجوم شارك فيه المشاة والفرسان على حد سواء، امتلأ الجو بأصوات الدفوف وقرع الطبول، كان الأتراك يقتربون إلى الثغرات الثلاث التي سدت على عجل بالأخشاب والتراب، ابتدأ بالقرب منها القتال بالسلاح الأبيض حيث تكبد الأتراك خسائر جسيمة، لكن الإنكشاريين كانوا يهجمون واحداً تلو الآخر، إضافة إلى ذلك كانت المدافع تقصف الأسوار محدثة فيها ثغرات جديدة ولم يكن أحد ليسدها.

كان حماة المدينة يناضلون على الأسوار نضال اليائس، بيد أن أفواج الجنود الذين كانوا يصعدون إلى السور لم تتوقف إذ لم يهتم أحد بالخسائر، وأول من تسلل إلى داخل القلعة هم الإنكشاريون، فانتشر في أوساط الجيش التركي خبر الاستيلاء على القسطنطينية. قام بالاقتحام من جهة «القرن الذهبي» «العذب»

المتطوعون وجنود «كابودان باشي» وكان الأتراك يتسللون إلى المدينة عبر ثغرات جديدة.

كان حماس الجيش التركي سر نصره إذ إن الهدف من ذلك النصر كان خلابًا جدًا: تعرضت القسطنطينية لاغتصاب رهيب وسرعان ما امتلأت سوق الجيش ببضاعة حية والأملاك المنهوبة التي كانت من بينها مصنوعات ذهبية وفضية ومجوهرات، استمر نهب المدينة نهاراً كاملاً، وفي المساء دخل السلطان العاصمة البيزنطية بصحبة السرايا المكونة من خيرة أقسام الحرس الإنكشاري، وتوقف السلطان قرب الحرم الرئيسي للمدينة وهو كنيسة القديسة صوفيا حيث ترجل ـ حسب الروايات ـ ونثر بعض التراب على عمامته تواضعًا لله تعالى، بعد هذا دخل الكنيسة حيث وقف طويلاً ملازمًا الصمت، ثم أطلق سراح بعض الأسرى الموجودين هناك رضاء لله، وفي اليوم التالي بدأ تقسيم الغنائم.

بعد أن فتح محمد الثاني الفاتح القسطنطينية أسرع في إضفاء مظاهر المدينة الإسلامية عليها، فابتدأ فيها تشييد المساجد والمدارس الإسلامية والرُّبُط، كما شيدوا بناءً تذكاريًا حيث وجدوا قبر أبي أيوب الأنصاري أحد صحابة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

إن فتح المدينة المسيحية العالمية رفعت كثيراً من سمعة محمد الفاتح وشهرته بوصفه حاكمًا مسلمًا، في القاهرة عُدَّ فتح العاصمة البيزنطية نصراً للمسلمين أجمعهم، لكن مصر المملوكية لاحظت إلى جانب ذلك ظهور منافسها السياسي المعادل لها بالقوة في الشرق الأوسط وهذا ما زرع فيها قلقًا عدائيًا، أشار المؤلفون المماليك بهذا الصدد في مؤلفاتهم أن الحكام العثمانيين لم يحملوا قبل ذلك لقب «الملك» و «السلطان»، وكان السلاطين المماليك يلقبونهم في رسائلهم بالأمراء أو

«خنكار» (خدافنديكار)، كان محمد الثاني أول حاكم عثماني نال رسميًا لقب السلطان المساوية لمنزلة سلطان المماليك في العالم الإسلامي.

كما أضحى فتح القسطنطينية انتصاراً عسكريًا كبيراً للدولة العثمانية، وكشف الجيش التركي عن قوته وتنظيمه النادرين وقدرته على القيام بالمهمات الحربية الكبرى، وعمليًا لم يكن لها عصرئذ مثيل، وكان سرّ قوة الجيش التركي وجود جيش المشاة المحترف فيه والمدفعية التي لم تقلّ في مستواها التكتيكي عن مدفعية أوروبا المسيحية، طبعًا كانت للخيالة السباهية الممتازة كذلك أهميتها البالغة، ففي هذه المرحلة من تطور الدولة العثمانية لم تفقد الخيالة بعدها علاقاتها مع تنظيم السلطة العليا، فكانت متعلقة بها ليس فقط لأسباب اقتصادية (ولو أن هذا العامل كان أيضًا من جملة العوامل الهامة) ولكن بحكم الإديولوجية القديمة التي لم تفقد وقتذاك أهميتها، فكانت الخيالة تنظر إلى حاكم الدولة (الخان أو السلطان) أنه قائدها الحربي، فكان الخضوع له وتبجيله شيئًا طبيعيًا ومألوفًا وواجبًا على كل الأشراف الحربيين المعنيين بالفتوحات والغنائم، كان محمد الثاني يتفق مع هيئة الحاكم الحربي القوي تمام الاتفاق، ففتح القسطنطينية أصبح أكبر نصر عسكري زاد من سمعته بين السباهيين وخلق ظروفًا مواتية لاستئناف الفتوحات.

❋ ❋ ❋

الفصل الرابع ..

السلطة العليا وحروب القرنين
الخامس عشر والسادس عشر

الفصل الرابع
السلطة العليا وحروب القرنين
الخامس عشر والسادس عشر

كان من أهم منجزات السلطان محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية الاستيلاء على المدينة الساحلية «إينوزا» المشهورة بإنتاج الملح، كانت تلك واحدة من الإجراءات الحربية القليلة التي أسفرت عن مكنونها الاقتصادي، فالدّخل الوارد من إنتاج الملح كان مصدرًا ماديًا هامًا جدًا، حوصرت المدينة ـ التي كان يحكمها قبل مدة قليلة دورينو الثاني الإيطالي الأصل ـ من قبل الأتراك برًا وبحرًا، وقد جرت الحملة العسكرية عام ١٤٥٤ في ظروف صعبة جدًا، فقد حل محل الحر الشديد البرد القارص، وكان الطقس في بداية الشتاء لطيفًا ومعتدلاً لدرجة أن الأشجار قد أثمرت، ولكن الطقس المعتدل سرعان ما تحوّل إلى تساقط شديد للثلوج، تراكمت الثلوج على الطرقات الجبلية وشكلت طبقة سميكة على الأرض، كان الإنكشاريون المشاة و «العذب» على وجه الخصوص يتأذون من السدود الثلجية، ولكنهم أظهروا صبرًا عجيبًا وإخلاصًا للسلطان، فتجشموا عبور الطرقات الصعبة المرور، وأظهر الجيش إخلاصه الكامل تجاه الحاكم، كانت سمعة محمد الثاني بعد فتح القسطنطينية عالية جدًا، علاوة على ذلك فقد نال الإنكشاريون درسًا جيدًا في الأخلاق أثناء الحملة الكرمانية قريبة العهد حين قمع السلطان تمردهم بيده الحديدية، كان الإنكشاريون يمشون أمام السلطان ينظفون له الطريق من الثلج الذي كان يغمرهم إلى صدورهم، وعلى الرغم من كل هذه المشقّات لم يتراجع السلطان

عن هدفه، فبلغ الجيش «إبسالا» بأمان وسلامة حيث أجرى ترتيب الجيش، ومن ثم استأنفت القوات طريقها، كانت كل القلاع والبلاد التي صادفوها في طريقهم تستسلم لهم من غير مقاومة، ولما بلغ الجيش التركي «إينوزا» لم يكن حاكمها وقتذاك موجوداً فيها بل كان في جزيرة «ساموفراكيا» في قصر أبيه، لم يؤد دورينو أية مساعدة للمحاصرين الذين اضطروا إلى تسليم مدينتهم من غير قتال، ولم يكن محتملاً انتظار نتائج أخرى بعد ذلك النصر الباهر الذي ظفر به جيش محمد الثاني قرب أسوار القسطنطينية.

من البديهي أن الفتوحات التركية كانت كلها تجلب مزيداً من الغنائم لبيت المال، الذي لم يكن يعتمد على جمع الضرائب من الرعايا بالدرجة الأولى، بل على حساب الإتاوات التي كان يدفعها الحكام التابعون، في عام ١٤٥٤ أجرى محمد الثاني محاولة فتح صربيا، وكان يحرضه على ذلك بشتى الوسائل البيه الحدودي عيسى (إيفرينوز أوغلو) الذي حاول انتهاز الظروف السياسية المهيأة لصالحه، تشهد مثل هذه الإصرارات من جديد على علو نفوذ قمة الجيوش الروميلية الحدودية «سباهي» العسكرية، المعنية حيوياً بالسياسة التوسعية النشيطة، فلم تكن تلك السياسة تمنحهم الغنائم والمصادر الجديدة للأرباح فحسب بل كانت تزيد من سطوتهم ونفوذهم بين قوات الفرسان التركية الحدودية، في ذلك الحين انتهت فترة الهدنة التي عقدها محمد مع غيورغي برانكوفيتش لثلاث سنوات بغية تفرغه للاستيلاء على القسطنطينية، كانت يدا الحاكم التركي مطلقتين تماماً، ويبدو أن محمداً الفاتح كان على علم من تجهيز حملة صليبية ضده سيشارك فيها غيورغي براتكوفيتش دون شك.

توحدت جيوش محمد الثاني مع فرسان عيسى بيه السباهيين الحدوديين في منطقة «إسكوب» حيث أمر عيسى بالقيام بغارة على «نوفو بوردو»، كما نال

البيلربيه الأناضولي إسحاق باشا أمرًا بحصار القلعة الصربية «أورستروفيتسا» حيث كان بيت مال غيورغي برانكوفيتش الذي هرب مع عائلته إلى المجر، واتجه محمد نفسه مع الجيش الروميلي إلى قلعة «سيميديريفو» المحصنة تحصينًا قويًا، استخدم الإنكشاريون المدفعيون مدفعيتهم القوية لهدم جدران القلعة والباقون منهم قاموا بردم الخندق بالتراب والحجارة، بيد أن هذه الأعمال كانت عديمة الجدوى، فقد جاء جيش يانوش خونيادي في وقته فاضطر الجيش التركي إلى التراجع، لم يتم الاستيلاء على القلعة، فلذا اكتفى جيش السلطان فقط بنهب الأراضي الصربية، وفي ١٦ تشرين الثاني عام ١٤٥٤ لم يتمكن السلطان محمد قرب نوفو بوردو إلا من هزيمة مفرزة صربية صغيرة اتسمت بشجاعتها النادرة، كان الأتراك أنفسهم يتعجبون من رباطة جأش الصرب، ويقولون: لو توحد الصرب وهجموا على جيش محمد لهزموه، بعد اغتصاب الأراضي الصربية واقتسام الغنائم ـ التي كان من جملتها عدد كبير من الأسرى ـ عاد محمد الثاني إلى أدرنة وعقد معاهدة سلام مع الطاغية الصربي غيورغي برانكوفيتش.

بعد هذه الأحداث بقليل توفي غيورغي برانكوفيتش، فانتهز محمد الفرصة المواتية وقام بحملة ثانية ضد صربيا، والذي كان يدفعه إلى ذلك المحاولات المستمرة في تنظيم الحملة الصليبية التي كان يرأسها الملك المجري، لما اقتحم محمد الثاني صربيا احتل نوفو بوردو وكراتوفو ومناجم الفضة الغنية، كما أخذ غنائم ثمينة، وسلم أهل نوفو بوردو مدينتهم بشروط المعاهدة المعقودة مع الأتراك، وعد السلطان بأنه لن يسلب أملاك السلطان ولن يستعبد النساء والفتيان، ولكنه لم يوف بوعده، فلما تسلل الأتراك إلى المدينة ـ وحدث ذلك في ١ حزيران عام ١٤٥٥ ـ أمر محمد كل أشراف نوفو بوردو بالخروج إلى خلف أبواب المدينة وبأن يأخذوا معهم كل خدمهم من الرجال والنساء وأن يقفوا قرب خندق المدينة، أما أملاكهم فيتركونها

في بيوتهم، قسم محمد الرابض قرب أبواب المدينة السكان إلى أربعة أجزاء: الرجال والنساء والفتيان والفتيات، ثم أمر بنهب السكان الأشراف، أما غيرهم فأطلق سراحهم، ثم جرى اصطفاء ٣٢٠ فتى و ٧٠٤ فتاة وتوزيعهم على مقاتلي الجيش التركي، وجند بعض الشباب في الجيش الإنكشاري، إبان الحملة نفسها قام عيسى بيه ـ بعد أن اغتصب ضواحي نوفو بوردو ـ مع جيشه الحدودي بغارة على البوسنة فعاد منها بغنائم ثمينة من المجوهرات والماشية والأسرى.

في صيف عام ١٤٥٦ حاول محمد الثاني احتلال بلغراد بغية درء الحملة الصليبية التي كانت تعد ضده، ولأجل الاستيلاء على ذلك الحصن المنيع كان لا بد من عدد كبير من مدافع الحصار، وخصيصًا من أجل ذلك جرى في «أسوكوب» صنع المدافع، كما صنعت المدافع للحملة نفسها في «غروشيفالي» كذلك، ثم أحضرت تلك المدافع عبر الأنهر إلى حيث تتم العمليات الحربية، ولكن على الرغم من كل هذه التدابير اتضح أن بلغراد صعبة المنال بالنسبة لجيش محمد، فعلى الرغم من محاولات الانقضاض الكثيرة لم يستطع الإنكشاريون الاستيلاء على هذه القلعة الممتازة، كانت بلغراد محاصرة من جهة البر بالجيش التركي الذي امتد لعدة أنساق، كان يبلغ عدده مائة ألف مقاتل، وعلى الدانوب كانت تحارب السفن التركية النهرية، وكالعادة حفر الإنكشاريون أنقابًا كثيرة ونصبوا المدافع التي كانت تقصف أسوار القلعة باستمرار، تمكن الأتراك من إحداث ثغور كبيرة، ومرة واحدة استطاع بعض الإنكشاريين التسلل عبرها إلى المدينة، بيد أن الهجوم الحاسم لم ينجح، في غضون ذلك كان محمد الثاني مواظبًا ونوى تمديد فترة الحصار لأسبوعين آخرين من القصف المتواصل، ذات مرة نصح الآغا الإنكشاري إسماعيل للسلطان بوقف القصف والقيام باقتحام حاسم، فأدى ذلك إلى مقتل عدد هائل من الإنكشاريين. في الغالب كانت الأمور تسير في غير صالح الأتراك: فمثلاً استطاع حماة المدينة من إحراق المعدات الحربية التي كان الأتراك يغطونها ليلاً بالقش.

كان حماة بلغراد يدافعون عن مدينتهم بمنتهى الإتقان، فحدث كثيراً أنهم كانوا يقومون بغارات فجائية من القلعة كاد في أحدها أن يقع محمد الثاني نفسه أسيراً بيدهم لأنه بقي في تلك اللحظة من غير الحراسة الإنكشارية، ولم ينقذه من ذلك إلا شجاعته واعتماده على نفسه، فلما وجد السلطان أنه بقي وحيداً مع الآغا الإنكشاري، شق لنفسه طريقًا بسيفه بين صفوف المهاجمين، أما الآغا الإنكشاري ـ وكما كتب أحد مدوني التاريخ العثمانيين ـ فلما أحس بذنبه أمام السلطان وخاف من العقاب المحتوم اندفع بنفسه إلى الهجوم ولقي مصرعه تحت سيوف المسيحيين، وفي آخر الأمر سقطت القلعة بيد الأتراك، ولكن جاء لنجدة بلغراد يانوش خونيادي، وقد توقع البيلربيه الروميلي دايي قاراجا باشا أن الأحداث ستسير بهذه الصورة، فطرح في المجلس العسكري اقتراحًا بمنع نقل الجيش الروميلي إلى الضفة المقابلة من الدانوب، وكان هذا سيؤمن الجيش التركي من هجوم خونيادي المحتمل، ولكن هنا أيضًا برزت الطبيعة الجديرة بالقمة العسكرية، إذ إن البيكوات الروميليين قد أبوا ذلك لعدم رغبتهم بضياع فرصتهم لاحتلال بلغراد والحرمان من الغنائم، في غضون ذلك جاء يانوش خونيادي بجيشه إلى حيث اقترح دايي قاراجا باشا نقل الجيش الروميلي، إبان ذلك اقترب إلى بلغراء أسطول خونيادي النهري، فاستطاع خونيادي دخول القلعة بجنوده من القوات المدنية، وفي ٢١ تموز رد هجوم الأتراك، وفي اليوم التالي دمر معسكرهم فاضطر جيش محمد الثاني الانسحاب ليلاً.

بعد أن ابتعد محمد الثاني عن أسوار بلغراد استاء كثيراً مما فعله الإنكشاريون الذين ـ بنظره ـ لم يظهروا شجاعتهم، وبعد هذه الغزوة بقليل توفي يانوش خونيادي (في ١١ آب عام ١٤٥٦) ففقدت المجر قائدها الحربي البارز الذي كان ينجح دومًا في كفاحه ضد الخطر التركي، بعد ذلك لم يكن هنالك شيء ينقذ صربيا من الاحتلال النهائي.

في عام ١٤٥٨ أرسل جيش كبير بقيادة محمود باشا وزير محمد الثاني الأعظم لاحتلال بعض الحصون الصربية، وفي خريف عام ١٤٥٨ جرت بين «نيشا» و «إسكوبين» مشاورات الوزير الأعظم مع سفراء دوبروفنيك التي خيم عليها الخطر المباشر من لدن الأتراك، قدم السفراء لمحمود باشا هدايا ثمينة من ضمنها بعض الزينات الفضية ووعدوه بأن يدفعوا لمرة واحدة مبلغ ٥٠٠ دوكات وتقديم ٢٠٠ دوكات سنويًا هدية له، كانت نتيجة هذا استلام دوبروفنيك الشهادة المرغوبة من السلطان محمد التي يسمح له بموجبها بممارسة التجارة الحرة، عند ذلك أوجب على دوبروفنيك بدفع إتاوة سنوية قدرها ألف وخمسمئة دوكات، بهذا الشكل كان ممكنًا إنقاذ البلاد من العدوان والاغتصاب التركي، وفي عام ١٤٥٩ خضعت صربيا للأتراك نهائيًا بعد استيلائهم على «سيميديريفو».

في عام ١٤٥٨ نفسه أقيمت حملة على موريا، فاستولى الجيش التركي بسهولة على المنشآت الدفاعية على البرزخ الكوريتشي، ومن ثَمَّ حاصرت كورينث، بعد أن أدرك الأتراك أهمية مدافع الحصار، صبوا قرب أسوار المدينة مدافع نحاسية قوية، كانت القذائف ـ التي صنع بعضها من رخام المباني القديمة ـ تقصف جدران القلعة باستمرار، ولكن اتضح أن الاستيلاء عليها ليس بسهل، صمدت المدينة أمام الحصار عدة أشهر ولم تفتح أبوابها للعدو إلا بنصيحة أسقف كورينث، بعد ذلك استولى الأتراك على مدينة «باتراس» ـ حيث لم يواجه الأتراك سوى ستة آلاف شخص ـ ثم استولوا على «ليونتاريون». بعد احتلال كل مدينة سرعان ما كانت تنصب بها الحاميات حيث كان ينضم إليها الإنكشاريون على الدوام، ففي مرحلة الفتوحات لم تكن واجباتهم العسكرية تنحصر فقط في الاستيلاء على الحصون، بل كان عليهم حماية الأراضي المحتلة والمحافظة عليها، وكان هذا شيئًا لا غنى عنه في ظروف توسع الإمبراطورية.

كانت فتوحات السنوات الأولى من حكم محمد التي صاحبها الاستيلاء على القلاع بالجملة بمشاركة الإنكشاريين، تؤدي دومًا إلى خسائر كبيرة في الأرواح وعلى وجه الخصوص بين الإنكشاريين، وكان ذلك يدفع محمداً إلى الاعتناء بتكميل الفيلق، وكان الهدف من أخذ الأسرى بأعداد هائلة الزيادة في صفوف الإنكشاريين، فبعد الاستيلاء على قلعة واحدة في موريا وهي «سالمينيكون» أضاف محمد إلى الفيلق الإنكشاري ٩٠٠ صبي.

بعد أن أنجز محمد كل الفتوحات في أوروبا الممكنة طبقًا لظروف تلك المرحلة، وجه أنظاره إلى آسيا الصغرى، وبدا أن البيلكات في آسيا الصغرى التي حافظت على استقلالها الغابر ستكون سهلة المنال في ظروف ظهرت فيها قوة الجيش الحربية وقد ارتفعت سمعة محمد الفاتح كثيراً بعد الفتوحات التي ظفر بها، كان النظام الحكومي السياسي العثماني المتشكل على أسس ومبادئ الإديولوجيا التقليدية التوسعية في حاجة إلى التدعيم المستمر بواسطة الانتصارات الحربية، وكان ذلك النظام قادراً على إثبات نفسه عند ممارسة السياسة الحربية النشطة فقط، لما وجه محمد أنظاره إلى الشرق ـ حيث لم يكن يواجهه «الكفار» بل الملاك المسلمون (باستثناء اليونانيين في طرابيزوند) ـ خضع في البداية لسلطانه ما تبقى من بيلك «جانيك» بمركزيه في كاستامونا وسينوب، كما فتح الإمبراطورية الطرابيزوندية وبدأ بمحاربة دولة الترك «آك كويونلو».

كان محمد يترقب انتصاراً كبيراً عام ١٤٦٢ في أوروبا حيث نظمت غارة حربية كبيرة على فالاخيا، فلما دنا السلطان من أسوار نيكوبول نظم عبور الإنكشاريين الدانوب في مكان أعلى بقليل من المكان الذي أقام فيه جيش «فلاد تشيبيشي»، أمر السلطان بمنح الإنكشاريين ثمانية عشر زورقًا مجهزاً بمعدات مضافة إلى معدات أخرى كالمدافع والبنادق العادية والثقيلة، منها الكبير ومنها الصغير،

ولما أتى الليل ركب الإنكشاريون الزوارق ومخروا بهدوء إلى أسفل مجاري النهر، ثم نزلوا على الضفة المقابلة أسفل بقليل من جيش «فلاد»، وهنا تخندق الإنكشاريون ونصبوا أسلحتهم وغطوها بأتراس كبيرة، ونصب المدفعيون القلائد ليحموا بها أنفسهم من هجوم خيالة العدو، ثم عبر النهر باقي الجيش الإنكشاري على الزوارق نفسها، بدأ الإنكشاريون القتال ولكنهم لم ينجحوا فمنوا بخسائر كبيرة، وفقط بفضل تدخل المدفعيين ـ الذين بدأوا قصف العدو بعنف ـ نجا المشاة الأتراك من الهلاك الكامل، هب لنجدة الإنكشاريين عبر الدانوب «العذب» بمعدات حربية إضافية، وهذا ما أرغم الجيش الفالاخي على التراجع، وبعد هذا فقط انتقل محمد مع الجزء الباقي من الجيش إلى الضفة المقابلة من الدانوب، وفي آخر الأمر حل الإنكشاريون المسألة الحربية الهامة، فتكرم السلطان بمكافأتهم فوزع عليهم ٣٠ ألف قطعة من العملة الذهبية، ومن الجدير بالذكر أنه في غضون ذلك نال الكثير من الإنكشاريين حريتهم، أولئك الذين جُنِّدوا بعد أسْرِهم وليس بنظام «ديوشيرمه».

في عام ١٤٦٢ رأس محمد الثاني الحملة ضد البوسنة التابعة اسميًا للسلطة المجرية، استسلمت للأتراك بغير قتال مدينة «بوبوفاتس» المحصنة تحصينًا جيدًا، كما قال قسطنطين من أوستروفيتسا إن محمد الثاني لم يأخذ معه إلى الحملة المدافع (ويظهر أن سبب ذلك هو صعوبة نقلها عبر الطرقات الجبلية) فصنعت المدافع قرب أسوار بوبوفاتس من النحاس المحضر سلفًا. بعد مضي ستة أسابيع أخضع الأتراك لسلطتهم البوسنة وجزءًا من الهرسك، أسر الملك استبيان توماشيفيتش في قلعة «كلوتش»، فقد غدر به أحد خدمه وأخبر الأتراك أن الملك موجود في القلعة، حاصر محمود باشا وهو قائد مفرزة تركية حربية القلعة وأقسم أنه في حال سلم استبيان توماشيفيتش القلعة لهم فسيبقى حيًا، وُضعتْ حامية إنكشارية من خمسين

شخصًا في القلعة البوسنية «زفينتشاي»، إلى جانب هذا نال إنكشاريو الحامية أجورهم لستة أشهر مقدمًا، كما نلاحظ كانت الخزينة التركية في تلك المرحلة تقوم بواجباتها المالية تجاه الإنكشاريين بنجاح، وبعد مضي شهر ونصف من حملة جيش محمد الثاني، وقعت البوسنة برمتها وجزء من الهرسك تحت الإمرة التركية.

لم يكد محمد الثاني يسوي أموره في مستعمراته الأوروبية حتى وقع على عاتقه هم جديد وهو إعادة إقامة نفوذ سلطته في آسيا الصغرى، فبعد أن نصب محمد الثاني «بير أحمد» على العرش الكرماني قام الأخير بالعديد من الغارات على القلاع التي تتولاها الحاميات العثمانية، ونتيجة لذلك انطلق جيش محمد الثاني في حملة تأديبية باتجاه قونيا، كل شيء كان يشهد ظهور حلف معاد للعثمانيين في وسط الأناضول انضم إليه بشكل أو بآخر مالك «آك كويونلو» أوزون حسن ومالك دويلة ذو القادرية شيخسوفار بيه، لما علم بير أحمد بزحف جيش محمد نحوه، هرب إلى «لاريندا»، ودخل محمد قونيا دون تأخير مرسلاً لقمع تمرد البيه الكرماني جيشه بقيادة محمود باشا، انهزم بير أحمد وهرب، ووضعت الحاميات التركية القوية في عاصمة البيلك الكرماني وفي قلاع أخرى.

كانت المهمة الحربية التالية التي ظهرت أمام محمد هي احتلال جزيرة «إيفبيا» (نيغروبونت) التي كانت لها أهمية كبيرة لأمانة وسلامة المستعمرات العثمانية في الشطر الأوروبي والاتصالات البحرية في بحر إيجو وطرق المواصلات التجارية، بما أن محمد الثاني قد حاز في ذلك الحين على أسطول قوي كلف محمود باشا قيادة السفن التركية المتجهة إلى «إيفبيا»، واتجه بنفسه سنة ٨٧٤هـ (١٥٦٩م) بجيش قوي إلى اليونان ليستقر في المكان الواقع مقابل أهم مدن جزيرة إيفبيا، حاصر محمود باشا المدينة من جهة البحر، وحسب ما ورد عند عاشق باشا زاده استطاع الأتراك تمديد معبر عائم عبر المضيق الفاصل بين الجزيرة والجزء القاري من اليونان عبر به

الجيش والسلطان نفسه، فتم حصار قلعة إيفبيا من جهة البر كذلك، نصبت حول القلعة مدافع كثيرة، ولكن هبت لنجدة «نيغروبونت» السفن الفينيسية، فأسرع محمد إلى تنفيذ طريقته المجرَّبة وهي إعلان «يغما» أي الوعد للمقاتلين بتسليم المدينة لهم في حال فتحها لينهبوها، فزاد هذا من قوة المحاصرين عشرة أضعاف فتم الاستيلاء على المدينة، واستمر النهب ـ الذي أذن به السلطان ـ ثلاثة أيام بلياليها.

إذا كانت الأسلحة التركية تحرز في أوروبا انتصارات دائمة وتمهد سبيل النجاح الراسخ بشكل أو بآخر، فقد كانت الأراضي الكرمانية تحتاج إلى عمليات حربية جديدة لإقامة سلطة السلطان العثماني فيها.

كانت مصالح محمد الثاني السياسية تحتاج إلى توجيه ضربة للمناصر الأساسي للأسرة الكرمانية وهي دولة آك كويونلو التي يحكمها أوزون حسن، ولأجل القيام بحملة عليه جمع محمد جيشًا ضخمًا من روميليا والأناضول، وكان يجب أن يشمل هذا الجيش عشرة آلاف إنكشاري وعشرة آلاف فارس من جيش البلاط وعشرين ألف «عذب» دون حساب السباهيين الروميليين والأناضوليين، وإجمالاً بلغ عدد الجيش العثماني مئة ألف شخص، وشارك في الحملة ابنا محمد الثاني مصطفى وبيازيد (كان بيازيد حاكمًا على أماسيا) وبقي ابنه «جيم» في أدرنة لحمايتها، توجّه جيش محمد من سيواس ـ حيث أجري التفتيش «يوقلاما» للمقاتلين المشاركين في الحملة ـ إلى أرضنجان محاولاً إيجاد العدو ليجبره على القتال، كانت الأراضي المحيطة بأرضنجان المسكونة بالأرمن قد استولى عليها سلفًا نتيجة غارة الآقينجيون الروميليون، بيد أن أوزون حسن كان يتهرب من القتال، كانت الدورية العثمانية الأمامية تراقب المنطقة بيقظة، حدث مرة أن اصطدمت المفارز الأمامية العثمانية مع أقسام من جيش أوزون حسن فنشب القتال واضطر مقاتلو أوزون حسن أن يولوا أدبارهم، وبعد إحراز هذا النصر عبر قائد

الجيوش آقينجي ميخال أوغلو علي بيه وبيلربيه روميليا «حص مراد» الفرات بلا هموم فوقعا في كمين العدو، انقطعت أخبار مراد أثناء القتال ووقع الكثير من الأتراك في الأسر، ومن جملتهم عمير بيه توراخان أوغلو ابن العالم الإسلامي العثماني المشهور فناري أحمد باشا، إلى جانب الكثير من قواد (صوباشي) جيوش آقينجي، ولكن حتى بعد كل هذا لم يجرؤ أوزون حسن على ابتداء المعركة الرئيسية فلم يبح بمكان وجود جيشه، اضطر محمد الثاني إلى أن يتجه بجيشه إلى «بايبورت» (شمال شرق أرضنجان) وهناك (قرب بلدة تيرجان) التقى الجيشان وجهًا لوجه، كان في جيش أوزون حسن ابناه زاينيل وأوغورلو محمد اللذان قاتلا على الجناحين في مواجهة ابني محمد الثاني مصطفى وبيازيد، ومقابل وسط الجيش العثماني حيث كان السلطان نفسه استقر مقاتلو حاكم آك كويونلو، استطاع «العذبي» شيخزاده مصطفى قائد كل الجيش الأناضولي أسر ابن أوزون حسن زاينيل، فتم إعدامه فورًا، ومن ثم هزم «العذب» المتنشطون كل الجيش المرؤوس لزاينيل وغنموا غنائم كثيرة، أما ابن أوزون حسن الآخر محمد الموجود في الجناح الثاني فهرب من ساحة القتال تحت ضغط الجيش الروميلي الذي قاده شيخزادة بيازيد، في غضون ذلك لم يتعجّل وسط الجيش العثماني، حيث محمد الثاني مع إنكشارييه وغيرهم من أقسام حرس البلاط دخول القتال، ولم يجرؤ أوزون حسن على الهجوم ولو أن الإنكشاريين كانوا بحوزته كذلك، ففضل عن ذلك الهروب من ساحة القتال، ولما لاحظ قواده ذلك ولوا أدبارهم أسوة به، انتهت المعركة بانتصار السلطان التركي. ومن أسباب هزيمة جيش أوزون حسن (١٤٧٣) ـ كما ورد عند عاشق باشا ـ كثرة عدد الجيش الإنكشاري الكبير البالغ عشرة آلاف، ذكر «نشري» أن محمد الثاني استقر بجيشه الإنكشاري على مرتفع صغير، كان بمقدور صفوف المشاة الإنكشاريين أن تترك انطباعًا مؤثرًا، فأغطية رأس الإنكشاريين كانت مزينة بالريش فيخيل للناظر من بعد أن صفوف أفواجهم أكثر بكثير مما هي في

الحقيقة، ولكن على ما يبدو، كان للمدفعية التركية الأثر الأكبر في حسم المعركة، كما تعلم كان أوزون حسن يحصل على أسلحته من فينيسيا، ومع ذلك لم يحصل على المدافع الأوروبية المرغوبة، أسر الأتراك عدداً هائلاً من الناس وذبحوهم باستثناء العلماء والحرفيين منهم، هرب أوزون حسن إلى أذربيجان حيث لقي حتفه سنة ١٤٧٨، أما دولته فتفككت إلى أجزاء إثر اندلاع الفتن الداخلية، وفي آخر الأمر خضعت للصفويين الذين تغلبوا على أهل السُّنَّة في آك كويوتلو بدعوتهم الشيعية، وبعد أن تخلصت الدولة العثمانية من منافسها الحربي والسياسي الخطر خُلِقت لها ظروف سانحة للتوسعات المقبلة، كما كان لذلك النصر أهمية كبيرة، فالقضاء على العدو القوي أظهر مقدرات الحاكم العثماني، وهذا ما رفع من سمعته الحربية السياسية بين أقيال أتباعه والدول المجاورة.

نتيجة الحملة الصيفية على القرم عام ١٤٧٥ صار الخان القرمي مينغلي غيراي قَيْلا تابعًا للحاكم العثماني، تم فتح القرم بقيادة القائد الحربي الموهوب أحمد غيديك باشا الذي انطلق إلى الحملة على ثلاثمئة سفينة ويجيش من سبعين ألف مقاتل، كان فيه خيرة الإنكشاريين والمدفعية القوية، كانت الظروف السياسية تسنح لتوطيد فتوحات الأتراك، وبعد إخضاع محمد الخانية القرمية سنة ١٤٧٥ لإمرته صار بوسعه أن يلعب الورقة «القرمية التترية» على الخلفية الدبلوماسية الأوسع. في ربيع عام ١٤٧٦ عقد الملك البولوني كازيمير الرابع اتفاق سلام مع محمد الثاني، كل هذا حتم الحملة التركية التأديبية ضد مولدافيا التي حدثت سنة ١٤٧٦، وبما أن السلطان التركي كان متأكدًا من أن نتائج الحروب تعود إلى عدد الجيش، جمع جيشًا لا يقل عدده عن مئة ألف، شارك في هذه الحملة حوالي ١٠-١٢ ألف تتري وألفي فالاخي، جمع حاكم مولدافيا جيشًا من أربعين ألف مقاتل، ولكن إلى حين بدأ القتال الرئيسي قرب «رازبويني» - في ٢٦ تموز عام ١٤٧٦ - لم يبق بحوزة الحاكم

المولدافي سوى ١٠-١٢ ألف مقاتل، نجح الحاكم المولدافي استيفان في هزيمة التتر، ولكنه تراجع أمام قوة الجيش العثماني، حدثت بالقرب من «نيامتس» في «الوادي الأبيض» الموقعة التي خسرها استيفان وانهزم جيشه، أحرق محمد ضواحي «سوتشانا» ولكنه عجز عن أخذ حصن المدينة، كذلك لم يفلح الأتراك في الاستيلاء على حصني «خوتين» و «نيامتس»، كما حل في أوساط الجيش التركي الجوع لعدم كفاية الغذاء، وانتشر فيهم الوباء، في غضون ذلك أخذ استيفان مع ما تبقى من جيشه يلاحق الجيش التركي الذي قرر العودة، كان يصد زحفه الإنكشاريون الذين قضى عليهم أثناء عبور الدانوب، استرجع المولدوفيون من عدوهم الكثير من أسراهم، ومن المحقق أن ذلك لم يكن هزيمة، بيد أن استيفان فضل عقد السلام مع السلطان التركي وأخذ على عاتقه دفع إتاوة سنوية له، كان ذلك نصراً سياسيًا للسلطان محمد الفاتح؛ لكونه الحاكم الإسلامي الذي أرغم «الكفار» على دفع الجزية، ومن المحقق أن هذا كله زاد في نفوذ دولته السياسي، لما أدرك محمد الأهمية المتزايدة لدولته وأهمية عظمته على الصعيد السياسي، أمر ببناء قصر جديد في إستنبول عرف فيما بعد بقصر «توب كايا ساراي» ورمز مقر السلطان الجديد من حيث فخامته وعظمته إلى علو جبروت الحاكم العثماني الإسلامي.

استأنف سياسة محمد الفاتح التوسعية ابنه بيازيد الثاني (١٤٨١-١٥١٢) الذي تسلم مقاليد الحكم نتيجة النزاع الحاد في أوساط الأسرة الحاكمة، كان وزير السلطان الأعظم كرماني محمد باشا نصيراً سريًا لابن محمد الأصغر «جيم» الذي - كما ورد في الروايات - كان ابنًا محبوبًا للسلطان الراحل، فعلى الرغم من أن الوزير الأعظم قد نفذ ظاهريًا العملية التقليدية لتوريث العرش؛ أي أرسل لبيازيد وهو في أماسيا خبر وفاة والده، حاول إبان ذلك أن يبلغ نفس الخبر لجيم آملاً بحضوره السريع إلى إستنبول، بيد أن الرسالة هذه حجزها البلربيه الأناضولي سنان باشا

وأعدهم حاملها، في غضون ذلك لما علم الإنكشاريون المقيمون في الضفة الآسيوية من إستنبول «أوسكودار» عن وفاة السلطان أرادوا أن يروا بيازيد محله فأثاروا الفتنة، فضربوا محمد باشا ونهبوا المدينة، توفي محمد الثاني في أول حملته المقررة، ولم يكن آنئذ في العاصمة بل في مستعمراته الآسيوية، حاول كرماني محمد باشا إخفاء خبر وفاة الحاكم الأعلى عن الجيش فأشاع عن رغبة محمد الثاني في الاستحمام، وبهذه الحجة نقل جثمان السلطان الراحل إلى القسطنطينية، أمر الوزير الأعظم بمنع الجنود من الانتقال إلى الضفة الأوروبية بتاتًا، استطاع الإنكشاريون الحصول على سفينة فعبروا المضيق إلى الضفة الأوروبية، ولما حاول كرماني محمد باشا منعهم من ذلك قتل وهو في الديوان، بعد أن بلغ الإنشكاريون إستنبول على الزوارق التي حصلوا عليها ونهبوا منزل الوزير الأعظم ومنازل غيره من الوجهاء، ولأجل وقف عمليات النهب هذه أرسل الخبر إلى إسحاق باشا أحد الوجهاء القدامى الذي خدم في عهد مراد الثاني ومنذ مدّة طويلة تخلى عن أعمال الدولة واستقر في سنجق سالونيك، كان نفوذه وسمعته في الجيش عاليين لدرجة أن الإنكشاريين أوقفوا التمرد بمجرد استلام أمره في ذلك، ومن المحتمل أن السبب الأول في وقف التمرد أن إسحاق باشا وعدهم على لسان السلطان الجديد بيازيد الثاني بزيادة أجورهم.

الذي كان يحل مسألة نقل السلطة هم أفراد حاشية السلطان الراحل، فهم بالذات وبرئاسة كرماني محمد باشا الذين وقع اختيارهم على بيازيد وأرسلوا له رسولاً بخبر موت والده محمد الثاني، بيد أن الوزير الأعظم أرسل سرًا ـ كما ذكر آنفًا ـ رسالة إلى جيم ـ الذي كان يتولى وقتذاك الولاية الكرمانية ـ حثه فيها على الحضور العاجل إلى إستنبول، وقد حال البيلربيه الأناضولي دون تحقيق نية كرماني محمد باشا حين منع وصول الرسالة، لكن بيازيد بعد استلامه دعوة بالمجيء إلى

العاصمة تردد ولم يتوجه إلى إستنبول إلا بعد مضي ثلاثة أيام من استلامه الرسالة، وفي صحبته جيش يتضمن أربعة آلاف مقاتل. ما يهمنا نحن هو أنه بعد وفاة محمد الثاني، كان الدور الحاسم في توريث العرش للإنكشاريين أي القوة الاجتماعية البعيدة في ذاك الوقت عن بنية المجتمع العثماني، إذ إن تأييدهم هو الذي حدد اختيار «أعلام الدولة» وهو بيازيد كوريث عرش السلطان الراحل، إن مشاركة الإنكشاريين في توريث السلطة يشهد ـ على ما يبدو ـ على نضوج ذلك التنظيم الحربي السياسي وتكميله الكافي في النظام السياسي للدولة العثمانية، استغلّ تمرد الإنكشاريين ليس فقط بسبب انتقال السلطة، حلم إسحاق باشا بالوصول بمعاونة الإنكشاريين إلى منصب الوزير الأعظم، فأعلن للإنكشاريين أن المتولي المحتمل لذلك المنصب مصطفى باشا أحد مقربي شيخزاده بيازيد الآتي معه إلى إستنبول لن يرفع أجورهم في حين أنه هو سيرفعها حالما يرتقي السلطان الجديد العرش، وفي ٢٠ أيار عام ١٤٨١ أعلن بيازيد حاكمًا جديدًا، في يوم التتويج اصطف الإنكشاريون على طول الطريق الذي كان يسلكه السلطان وأخذوا يعتذرون على ما أحدثوه من التشويش والشغب، وعبروا عن رغبتهم في رفع أجورهم إلى جانب بقشيش التتويج المعتاد، كما طالب الإنكشاريون بإعادة مصطفى باشا ـ الذي أقبل إلى العاصمة في صحبة بيازيد ـ إلى أماسيا، فلبى طلبهم، ظفر إسحاق باشا بما كان يرغب فيه فصار هو الوزير الأعظم، ولكن بعد فترة وجيزة وبطلب من الإنكشاريين أعيد مصطفى باشا من أماسيا وعين وزيراً ثانيًا في الديوان، شارك الجيش الإنكشاري في النزاع على السلطة داخل الأسرة الحاكمة بنجاح محققًا مصالحه المادية، وقد كان ذلك درسًا سواء للسلطة العليا أو للإنكشاريين أنفسهم الذين بدأوا يحسون بقوتهم السياسية الكبيرة.

لم يسكت جيم على فقدانه العرش، فجمع جيشًا من أنصاره وأسرع باتجاه بروصا، من الذي كان يدعمه؟ دعم جيم الأشراف الكرمانيون الغاضبون من فقدان البيلك الكرماني استقلاله السياسي، ومن المحتمل أن جيم قد وعدهم بإعادة الاستقلال لهم بشكل أو بآخر، فليس من باب المصادفة أن يكون أحد أنصاره المنحدر من كرمان وهو «كرماني محمد باشا»، وجه بيازيد إلى أخيه الوزير إياس باشا مع ألفي إنكشاري، ويشهد هذا العدد الصغير على أن جيم لم يكن بحوزته جيش كبير، استقر الجيش العثماني في بلدة «كابلوجا» قرب بروصا، كما ورد عند «منجم باشي» رفض أهل بروصا السماح بدخول الإنكشاريين مدينتهم بسبب الإساءات والاضطرابات التي سببها الإنكشاريون قبل فترة وجيزة في العاصمة، ومن البديهي أن هذا لم يكن إلا حجة، لأن بروصا الغنية فضلت أن تنظر أي من المتنافسين سينتصر، أرسل جيم لقتال الإنكشاريين القادمين من العاصمة مفرزة عسكرية بقيادة «غيديك ناسوخ»، هجم جنود إياس باشا على أنصار جيم، ولكنهم هُزموا شرّ هزيمة، فقد قتل وأسر أغلب الإنكشاريين، فسمح أهل بروصا لجيم المنتصر وأنصاره بدخول مدينتهم حيث أخذ يشكل جيشًا، ولكنه بات عاجزًا أمام جيش بيازيد النظامي الذي قاده قائد حربي كبير وخبير أحمد غيديك باشا، انهزم جيم وتم إطلاق سراح الإنكشاريين المأسورين في بروصا، فطلبوا من السلطان معاقبة أهل بروصا على إهانتهم وظفروا بذلك، إذ نالوا من المدينة تعويضًا ماليًا على الإهانة المعنوية التي تلقوها.

مع حلول عام ١٤٨٤ وطد بيازيد سلطته على الدولة لدرجة كافية واستأنف السياسة التوسعية التي مارسها والده، إن امتلاك «كافا» والسيادة على الخان القرمي زرعت في بيازيد طموحًا بأن يجعل البحر الأسود بحيرة تركية خاصعة له دون شريك، ولأجل ذلك كان لا بد من وضع رقابة على القلعتين المولدافيتين وهما

«كيليا» و «بيلغورود»، كانت الحملة الفاتحية على مولدافيا ـ كما يصور ـ خياراً واقعيًا بين شيئين في سياسة السلطان التركي الحربية، شارك بيازيد بنفسه في الحملة التي تمت في صيف عام ١٤٨٤، كان للمدفعية التركية الممتازة الفضل الكبير في الاستيلاء على كيليا وبيلغورود (أكرمان)، فاستسلمت كيليا لرحمة المنتصرين بعد حصار لم يستمر طويلاً، أخرج السكان من المدينة حيث ظهر مكانهم المستوطنون الأتراك، وزعت الضواحي على المقاتلين وخدم السلطان وبدأت الخطب في المدينة تلقى باسم بيازيد، أنقذت كيليا نفسها من التدمير والنهب ولم يتم أسر سكانها بحكم شروط التسليم، أما أكرمان فبعد أن حوصرت من جهة الخندق، اتضح أنها صعبة المنال على الجيش التركي، في غضون أيام كثيرة كان الإنكشاريون يحملون التراب بنشاط وهمة ويردمون به الخندق محاصرين كل مخارج القلعة، فاضطرت المدينة في آخر الأمر إلى الاستسلام، صودرت كل أملاك السكان لصالح بيازيد، أما السكان أنفسهم فأسروا وسلم السلطان بعض الأسرى لمقاتليه والبعض منهم أعدموا، شغلت البيوت الفارغة بالمسلمين، كالمعتاد كانت في جملة الأسرى الكثير من الفتيات اللواتي أرسلن إلى الحرم الإستنبولية، وانضم مئات من الصبيان المولدافيين إلى صفوف الإنكشاريين، حاول الحاكم المولدافي تحرير كيليا بعد أن غادر جيش السلطان مولدافيا، ولكن هجومه لم ينجح، فقد صدت الحامية التركية الهجوم وقتل على أثره عدد هائل من المولدافيين، شاركت في حملة بيازيد هذه مفارز الخان القرمي.

كان النشاط الحربي لدى الدولة العثمانية في تلك السنوات على مستوى عال جداً، كان الإنكشاريون في عهد بيازيد يستخدمون قدر المستطاع، وكانت الحاجة إليهم ـ بوصفهم جزءاً محايداً من المجتمع ـ تزداد في مراحل الفتن التي يمر بها عهد حكم السلطان التركي هذا الذي بذل الكثير من جهوده وقوته في إخماد النزاع داخل

الأسرة الحاكمة، بدأ النزاع على العرش العثماني هذه المرة ابن بيازيد سليم، كان سليم يتولى محافظة طرابزون، وكان على يقين من الوضع الداخلي في الأناضول، كان بيازيد مريضًا ولم يكن بمقدوره قيادة الكفاح العسكري ضد دسائس الشاه الصفوي إسماعيل المعادية للعثمانيين، ويفسر هذا الظرف أن سليمًا جذب الكثير من الأنصار من عداد السباهيين الروميليين والأناضوليين، وسعى سليم إلى جذب القمة العسكرية إلى طرفه، ولكن بما أنه لم تكن لديه أية حقوق في العرش إذ لم يكن الابن الأكبر لبيازيد لم يستخدم سليم الشعارات الدينية بل الدعوة الاجتماعية التي استجاب لها السباهيون الأتراك، لقد كان ينقد الأنظمةفي البلاط حيث ـ كما قال ـ القوة والنفوذ بيد الأشخاص الطماعين الذين لا يحلمون إلا بالمال والجاه وهم غير قادرين على إدارة الدولة ويعبدون الأرباح، كان يصرح بغضب بأن أفضل السباهيين يُنحَّوْن جانبًا ولا ينالون المناصب التي يستحقونها، حاول سليم أن يوحي إلى أن العيوب المخيمة على البلاط هي التي جعلت السكان يميلون إلى المذهب الشيعي، وعد سليم السباهيين الأتراك مساعدته وعنايته بهم إذا ساعدوه هم في كفاحه في سبيل العرش، لقد أحس سليم برقة مزاج المجتمع، فجاء إلى روميليا عبر القرم وأكرمان بجيش من ثلاثين ألف، بعد مشاورات طويلة مع رسل بيازيد الثاني ـ التي لم توصل إلى أية نتيجة ـ بدأ سليم القتال مع جيش أبيه، ولكنه انهزم واضطر إلى الهرب إلى كافا، وهذا ما زاد من توتر الموقف، لا شك أن العاصمة العثمانية لم تخل كذلك من أشخاص مؤيدين لتولّي شيخزاده سليم العرش، بيد أن ابن بيازيد الآخر أحمد له الحق الأول في السلطة العليا لكونه الابن الأكبر للسلطان، كما كان له فضل كبير أمام الأسرة الحاكمة لأنه شارك في قمع انتفاضة شاه كولو في الأناضول، بيد أن نزاع سليم المسلح أظهر للجميع أنه سيستأنف نضاله في سبيل العرش في حال استلام أحمد مقاليد الحكم، حاول بيازيد وضع الأحداث تحت

رقابته؛ فعقد اجتماعًا مع كبار رجال الدولة، صوت أكثر الوجهاء لصالح إعلان أحمد سلطانًا، فأعلن بيازيد أحمد خليفة.

علم الإنكشاريون أن الأمور سارت على هذه الصورة، وبما أنهم كانوا إلى جانب سليم، فقد أعلنوا العصيان، اتَّهم الإنكشاريون أحمد بالضعف عند قمعه انتفاضة شاه كولو (ولو أن هذا لم يكن مطابقًا للواقع) وصرحوا أنه لا يصلح لأن يكون سلطانًا، واقترحوا سليمًا لهذا المنصب، استعمل الإنكشاريون طريقتهم المجربة فعرضوا المدينة للنهب، وهجموا على بيوت أنصار شيخزاده أحمد من الوجهاء، كما نهبوا بيوت السكان الأبرياء، استمر النهب ليلة كاملة، وفي الصباح أتى الإنكشاريون إلى باب قصر السلطان واعترفوا بما ارتكبوه من فظائع وجرائم ليلاً، ثم بسطوا طلباتهم لبيازيد، فطالبوا السلطان بعزل الوجهاء الذين لا يرضونهم فنفذ طلبهم، ولم يُعْفَ منهم إلا الناصر القديم لبيازيد مصطفى باشا، لم يترك الإنكشاريون زمام المبادرة من أيديهم، فحجزوا كل موانئ المدينة لمنع قدوم أحمد إلى الضفة الأوروبية، ولم يبق أمام الشيخزاده إلا العودة إلى البيلك الكرماني، فضل بيازيد العجوز إرسال رسالة إلى ابنه الأصغر مقترحًا عليه فيها تولي العرش، فذهب بالرسالة إلى سليم أربعة من كبار ضباط الفيلق الإنكشاري (يایاباشي)، بيد أن أحمد كان مستعدًا لمنع منافسه سليم من استلام السلطة بأي ثمن، فلذا أرسل أحمد رسالة إلى شيخزاده «كور كودا» شقيقه الذي لم يتحد على العرش بسبب تفضيل بيازيد لأحمد، اقترح أحمد في رسالته لكور كودا تولي العرش العثماني بدلاً منه، أقبل الباحث الجديد عن العرش إلى إستنبول بصحبة ثلاثة خدم فقط أخذهم معه من الولاية الساروخانية التي كان يتولاها، وفور وصوله ذهب إلى الإنكشاريين وقال لهم إنه هرب من أحمد، استقر كور كودا في «أورتا جامع» مسجد الثكنات الإنكشارية، تكرم كور كودا في تقديم الهدايا لجيش البلاط، وهكذا

رجحت كفّته، كان الإنكشاريون يحرسونه جيدًا ويمنعونه من مخالطة الأشخاص غير المعروفين، وأخيرًا استدعى كور كودا إلى قصر السلطان للاستفسار، فصرح أنه جاء إلى العاصمة خوفًا من نبذ طاعة أحمد، بعد قليل جاء إلى إستنبول سليم، ولم تحل مسألة توريث العرش بل تعقدت أكثر، استقر ابن بيازيد الأصغر في خيمته في بستان العاصمة «يني باخجا» ولم يأت أحد ليدعوه إلى تولي السلطة، وهذا ما دفعه إلى أن يتصرف بحزم أكثر، فدعا لمقابلته قواد جيش وبيكوات روميليا، فعرض لهم مشاريعه الحربية والسياسية الخارجية، كان واضحًا أن الإنكشاريين الذين اشتراهم أخوه بماله لن يؤيدوه، وعد سليم أنه في حال استلامه زمام السلطة سينظم حملة ضد «الشراكسة» (السلاطنة المماليك) وسيسلب منهم المدن العربية التي يتولونها، وأنه سينجز حملة استعمارية ضد الشاه الصفوي، وأقسم أنه لن ينقطع عن الحملات لحظة واحدة.

ولكن رغم تأييد القمة العسكرية الروميلية، لم يرض وجهاء البلاط مع تولي العرش شيخزاده الأصغر خسارة للأكبر تلبية لإرادة السلطان، اقترح الوجهاء على بيازيد إرسال سليم إلى الأناضول وتعيينه هناك قائدًا على الجيش للكفاح ضد الفتن الشيعية، ثم عرض الاقتراح سليم فوافق على ذلك دون تردد وأسرع في الانطلاق بجيشه من العاصمة، لكن الإنكشاريين عارضوا فجأة المشروع، وطالبوا بتولي سليم العرش فورًا، وصرحوا أنهم بعد تنفيذ هذا الشرط فقط سينطلقون إلى الأناضول، لكن بيازيد الثاني بقي ثابتًا فأعلن بحزم أنه لن يسلم السلطة لأحد ما دام هو حيًا، هذه المرة توغل الرعب الحقيقي إلى قلوب الوزراء وهم متصورون العواقب الوخيمة إذا تمرد الإنكشاريون، فقالوا لبيازيد إن إعلانه هذا سيؤدي حتمًا إلى التمرد الإنكشاري الذي قد يعرضهم إلى خطر التنكيل الجسدي في حال رفض نقل السلطة إلى سليم، رفض الوزراء قطعًا مقابلة الإنكشاريين وإجراء المشاورات

معهم بتاتًا ولو حكم عليهم بيازيد بالإعدام، وهكذا بعد أن وجد السلطان العجوز نفسه في حالة لا خلاص منها اضطر إلى التنازل عن العرش.

إن العهد الذي استغرق ثمان سنوات من حكم سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) الذي تولى السلطة ووالده على قيد الحياة بمساعدة الإنكشاريين والجيش الروميلي، يشهد على مدى نشاط دور الفيلق الإنكشاري في حياة الدولة، خلال هذه الفترة عصى الإنكشاريون السلطة العليا أكثر من مرة وأرغموها على تغيير قراراتها السياسية، ظفر الجيش الإنكشاري في عهد سليم الأول ببعض التغيرات في أسس الحياة الداخلية، إذ نال الإنكشاريون القدماء تصريحًا رسميًا بالزواج والعيش خارج الثكنات الإنكشارية، وهذا ما أثر فيما بعد على تداول ذلك التنظيم الحربي السياسي على وجه العموم، بعد أن ساعد الإنكشاريون سليمًا في تولّي العرش رأوا أن السلطان لا بد أن يكافئهم على الخدمة التي أدوها له، لقد اندمج الجيش الإنكشاري وأدرك قوته السياسية معززًا روح الطائفية أكثر وأكثر، وكشف تدخلهم الناجح في قضية توريث العرش عن مقدرة الفيلق الإنكشاري على أن يكون قوة حاسمة في النزاع على السلطة داخل الطبقة الحاكمة.

بعد أن تخلص سليم الأول من خطر أخويه كور كودا وأحمد ـ اللذين اعترضا على توليه للعرش ـ بإعدامهما، قام في صيف عام ١٥١٤ بحملته الأولى ضد أكثر أعداء الدولة العثمانية خطرًا وهو الشاه الصفوي إسماعيل، كانت الحملات على المناطق الشرقية تشق على الحكام العثمانيين، وهذا ما اتضح منذ عهد بيازيد الأول، فالطرقات الصعبة العبور والمرور الحتمي بالمناطق الأكثر فقرًا، كان ذلك يسبب نقصًا في الغذاء والعلف، كان الصيف الحار والجاف وبرد الخريف المبكر في المناطق الجبلية يشكلان ظروفًا غير مواتية للقيام بالحملات العسكرية.

لما توقف الجيش الإنكشاري المرهق من المسير الطويل قرب أسوار أرضنجان، أبدت القمة العسكرية الروميلية سخطتها، فجيش العدو لم يكشف مكان وجوده، لذا لم يكن معروفًا كم سيطول مسيرهم على الطرقات الشاقة في جبال الأناضول الشرقية، كانت قمة روميليا العسكرية تعبر عن خشيتها من دخول الجيش مناطق غريبة عليه اجتاحها الشاه الإيراني، وهذا ما قد يؤدي إلى النقص في المواد الغذائية والمجاعة والخسائر في الأرواح، في تلك الفترة لم يكن الشاه يتعجل لمقابلة جيش سليم الأول إذ إنه كان على يقين من قوته، شعر جنود سليم بإرهاق شديد إثر مسيرهم الطويل على الطرقات الجبلية تحت حر الصيف القاتل، بعد قليل صار النقص في المواد الغذائية فاجعة، وفيما بعد كان يجب أن تصل إليهم المؤن بحرًا عن طريق طرابزون، ولكن هذا لم يحل المشكلة عمومًا، تعرضت خطة سليم للمناقشات الساخطة، وكما أورد سعد الدين، أخذت القمة الروميلية تحرض الإنكشاريين على التمرد ونجحت في ذلك، بعد أن جاءت النيابة الإنكشارية إلى السلطان طالبت بالامتناع عن استئناف زحف الجيش إلى قلب ممتلكات إسماعيل، عَلّلَ الإنكشاريون طلبهم بأن مكان وجود الشاه وجيشه ما زال مجهولاً ولم تكن بحوزة الاستطلاع أية بيانات عنه، صرح الإنكشاريون أن الجيش قد ضعف إثر الزحف الطويل ولا يريد ضياع عزة نفسه، فطلبوا من السلطان العدول عن فكرة مواصلة البحث عن جيش العدو لكي لا يعرض جيشه لمتاعب لا تطاق، لم يوافق سليم على رأي الإنكشاريين وأعلن عن عزمه على مواصلة الزحف نحو عاصمة إسماعيل تبريز، فأدى هذا القرار إلى اعتراض القمة الروميلية التي حاولت إيجاد طريقة أخرى لإقناع السلطان، وذلك عبر محبوب سليم الأول البيلربيه الكرماني، لكن تنبيهه إلى المتاعب المحتملة من الزحف المقبل على الأراضي الإيرانية لم تجعل السلطان يغير رأيه، ودفع البيلربيه الكرماني منصبه ثمن تدخّله، ولم يؤد تدخله إلى أية نتيجة، مكث سليم في أرضنجان أكثر من أسبوع ريثما وصلت المؤن من

طرابزون، في غضون ذلك كان يجري استطلاع نشيط للمناطق المجاورة، ولأجل القبض على أحد أفراد الجيش المعادي لكشف أسراره كانت ترسل مفارز بقيادة القادة البارعين، فقد حاول سليم بشتى الوسائل أن يعرف، ولو على وجه التقريب، مكان وجود الشاه، وأخيراً توجت هذه المحاولات بنجاح، علم سليم الخبر بأن إسماعيل في تبريز، فأمر الجيش بمواصلة الحملة، حاول الإنكشاريون في بلدة «كولا» من جديد الضغط على سليم بغية إيقاف الزحف إلى قلب الأراضي الإيرانية، فجاؤوا إلى السلطان وأخذوا يبيّنون له صعوبة استئناف الزحف بسبب المعابر الصعبة للغاية، فطلبوا من السلطان إلغاء الحملة على تبريز، فرد السلطان عليهم بغضب واتهم الإنكشاريين بعدم إخلاصهم وعدم خضوعهم لإرادة سيدهم، فاضطر الإنكشاريون إلى الخضوع.

كانت تلك أول مرة يخالف فيها الجيش الإنكشاري النظام العسكري في الحملة، ومن المحتمل أن الإنكشاريين قد أخطأوا حين ظنوا أن بوسعهم التأثير على صنيعتهم السلطان، لقد بالغ الإنكشاريون في تقدير قدراتهم، كما بالغت في تقديرهم القمة العسكرية الروميلية المتأكدة بأن السلطان لن يستطع معارضة جيش البلاط كونه أجلسه على العرش، إن مسألة المعارضة الشديدة من لدن الجيش الروميلي والإنكشاري تحمل في طياتها أسباباً أعقد مما يبدو، من الجائز ألا يكون الباعث الأساسي لهذه المعارضة الخوف من المصاعب الحربية المحتملة بل الميول الشيعية في أوساط الجيش التركي، فالأخوية الشيعية «بكتاشي» ـ التي لم تخف عن أحد مذاهبها ـ كان لها أنصارها في عداد الإنكشاريين وروميليا، ومن الجدير بالاهتمام أن الوسيط في المحادثات بين سليم والجيش البيلربيه الكرماني كان قائداً حربيًا لمنطقة تميل إلى التشيع.

بعد أن علم سليم علم يقين مكان وجود جيش إسماعيل والطرقات التي سيسلكها، أسرع لمقابلته، فالتقى الجيشان على السهل التشالديراني (شرقي بحيرة «وان») وخلال فترة من الزمن بقي الجيشان يتقاربان وهما يتعرفان على بيانات من مفارزهما الطليعية ويتخذان مواقع صالحة للتصفيف الحربي النهائي، وضع سليم مقره على مرتفع صغير وأحاط نفسه بصفوف متينة من الإنكشاريين المسلحين بالبنادق، تم حشد العدد الأساسي من عشرة آلاف إنكشاري في المقدمة وهم محاطون بالعربات الحربية، وقف على الجناح الأيسر الجيش الروميلي بقيادة حسن باشا، وعلى الجناح الأيمن الجيش الأناضولي بقيادة سنان باشا، أعطي الجناح الأيمن لكونه جناح الشرف للسباهيين الأناضوليين لأن الحملة كانت تجري في الأناضول، وقف أمام الخيالة السباهية في الجناح الأيمن والأيسر على السواء المشاة «عذب» وأحيطت صفوفهم بخمسمئة عربة حربية تحمل المدافع، أحيط سليم بحرس خيالة البلاط المكون من السباهيين و «سلاحدار» و «ألوفجي» و «غريب».

أجرى الهجوم الأول على جنود إسماعيل الجناح الأيمن من الجيش التركي حيث وقفت الخيالة الأناضولية، كان سنان باشا يراقب برزانة تقدم العدو حتى صار على مسافة طلقة المدفع ومن ثم أعطى الإيعاز بإطلاق النار، جعل قصف المدافع التركية القوية صفوف خيالة الشاه تتفرق بعض الشيء، فاندفع إلى داخلها الفرسان الأتراك، نتيجة الحومة التي نشبت تكبد عدو الأتراك خسائر كبيرة في النفوس، قام بالهجوم على الجناح الأيسر ـ حيث وقف الجيش الروميلي الممجد ـ الشاه نفسه، فاجتاح فرسانه صفوف المشاة «عذب» مباشرة مع السباهيين الروميليين، غدت المعركة طويلة وعنيفة، لم يستطع الجيش الروميلي الصمود أمام ضغط فرسان الشاه إسماعيل، ولما لاحظ ذلك سليم أمر بإرسال نجدة من بيلوكات حرس الخيالة والبلاط الإنكشاريين إلى الجناح الأيسر، بيد أن مقاتلي إسماعيل كانوا يقاتلون

بحماس عجيب يريدون اقتحام وسط الجيش التركي حيث يمكث سليم نفسه، استخدم لمواجهة جنود العدو المندفعين إلى وسط الجيش التركي الإنكشاريون الذين قاموا بإطلاق النار معًا من البنادق والأسلحة اليدوية التي تطلق قذائف محرقة، وهذا ما أوقف من تقدم خيالة الشاه، ولكن لم تمض برهة وجيزة حتى تعرض الجناح الأيسر للهجوم من جديد، فتمكن الأتراك من صده، صار واضحًا أن النصر لن يحالف إسماعيل، وبعد أن أدرك ذلك الشاه ولى مدبرًا مع ما تبقى من جيشه باتجاه تبريز، فأرسلت على أثره جماعة المطاردين، بقي الجيش التركي يحتفل بنصره طوال الليل.

بعد المعركة التشالديرانية مباشرة أرسل سليم إلى تبريز مفرزة إنكشارية عددها خمسمئة شخص، وأسند إلى الإنكشاريين مراعاة النظام العام في المدينة ريثما يصلها سليم مع سائر الجيش، سك السلطان التركي في تبريز النقود باسمه وأمر بإلقاء الخطب في المساجد باسمه، ولأجل استمالة أهل المدينة أمر سليم بإصلاح مساجد المدينة، بعد أن مكث سليم الأول في عاصمة الشاه ثلاثة أشهر قابل صوفية المدينة وحضر حلقات ذكرهم المهيبة في مسجد «أوزان حسن» وزار مراقد المجاهدين الغزاة المسلمين الأمجاد.

كان السلطان التركي يعلم أن الأحداث الأخيرة لم تنه الكفاح ضد إسماعيل، فقرر قضاء الشتاء مع جيشه في أذربيجان، بيد أن القادة والوجهاء الموجودين في الجيش أفصحوا عن رغبتهم في قضاء فترة الشتاء في أوطانهم، عندئذ عقد السلطان مجلسًا حضره الوزراء الذين تجرؤوا على القول بأن الجيش لا بد له أن ينال قسطًا من الراحة لأنه يعاني من نقص في المواد الغذائية، وقد عبروا عن خشيتهم من أن يكشف العدو المتاعب التي يعاني منها الجيش فيستغلها، اعترض سليم على ذلك وقال إنه سيقضي شتاءه في منطقة غنية بالغذاء وهي «قره باخ»، لكن الإنكشاريين

أفصحوا عن عدم رغبتهم في قضاء فصل الشتاء في قره باخ، فعقب انطلاق الجيش من تبريز تقدم الإنكشاريون إلى سليم بطلب تغيير المشروع وقضاء الشتاء في أراضي الروم معلّلين ذلك بأن قوتهم قد نفدت تمامًا، حاول الإنكشاريون إقناع السلطان أنه في حال قضى الجيش فترة الشتاء في أماسيا فهذا سيوفر له غذاء رخيص الثمن، وعمومًا لم يعترض الإنكشاريون على استئناف الكفاح المسلح ضد إسماعيل في الربيع ووعدوا السلطان بالطاعة التامة في حال سمح هو لهم بقضاء الشتاء في أماسيا، كانوا يتكلمون مع السلطان بجسارة معلنين له بكل حزم بأنهم لن يقضوا الشتاء في قره باخ ولا بأي حال من الأحوال، فاضطر السلطان إلى التنازل.

بعد الوصول إلى أماسيا قام الإنكشاريون بالهجوم على البيوت، حيث أقام دفتر دار بيري شلبي ومعلم السطان حليمي شلبي، ولكن المتمردين عوقبوا على تصرفاتهم فأعدموا جميعًا، كما أعدم دوكاتين زاده أحمد باشا الذي حرم من قَبْلُ من لقب الوزير.

أثار تصرف الإنكشاريين في الحملة على إيران ـ التي اضطر سليم إلى الامتناع عن استئنافها ـ أثار غضب السلطان إلى أقصى الحدود، وبعد عودته إلى إستنبول دعا إلى قصره الإنكشاريين القدامى وأقام معهم التحقيق ليعلم من الذي حرض الإنكشاريين على العصيان، أدرك سليم أن فكرة استخدام الإنكشاريين أداة للضغط ليست فكرته هو وحده، أشار الإنكشاريون الذين كانوا مضطرين إلى ذكر الأسماء إلى إسكندر باشا وقاضي عسكر الأناضول تاجي زاده جعفر شلبي وسكبانباشي «بال يمز آغا»، فتم إعدام إسكندر باشا وسكبانباشي فورًا، أما قاضي عسكر العالم البارز فلم يجرؤ سليم في البداية على إصدار أمر بإعدامه ولكن في آخر الأمر فعل ذلك.

بعد هذه الأحداث أنشئت وظيفة الآغا الإنكشاري الخاصة المختلفة عن سكبانباشي الذي كان في السابق آغا الفيلق الإنكشاري بأسره. من اللافت للانتباه أن منصب الآغا الإنكشاري قد تولاه شخص من أفراد البلاط، وهذا ما سيقضي على استقلال ذوي الدرجات والمقامات الوظيفية الإنكشارية المكملة من البيئة الإنكشارية. من المحقق أن سليم هو أول من قام بإصلاح الفيلق الإنكشاري في التاريخ العثماني وذلك بغية تعزيز رقابة الدولة على الإنكشاريين الذين أظهروا خطر الاعتماد عليهم.

لم تكن المصاعب والمتاعب ـ التي عانى منها الإنكشاريون في الحملة على إيران ـ سببًا وحيدًا لانتشار الفوضى وانعدام الانضباط العسكري في الفيلق، إذ كانت تمرداتهم تسفر عن التوتر الذي حل في نسق السلطة الأعلى، ففي إحدى جهات النزاع وجدت طبقة السباهيين، على الأغلب، الروميليين الذين لم يرضوا بأن يغدو دُمىً بيد سلطة السلطان، وفي الجهة الثانية بيروقراطية البلاط العليا التي بدأ أفرادها يدركون أهميتهم السياسية في الدولة، حاولت كلتا الجهتين استخدام الإنكشاريين لصالحهما، فعند استلام سليم مقاليد الحكم استهانة بالوريث القانوني للعرش استُخدم الإنكشاريون من الطبقة السائدة المعنية بأن يتولّى السلطة الحاكم القوي القادر على إجراء الفتوحات في أوروبا، ومنح السباهيين الأراضي والوظائف طبقًا لاستحقاقاتهم الحربية، فإبان الحملة على الشرق سنة ١٥١٤ استغلت القمة الروميلية الإنكشاريين لتغيير اتجاه سياسة سليم التوسعية وتوجيهها من الشرق إلى الغرب، فما عدا البواعث الدينية لم تكن الحرب مع إيران تمثل أية مصالح مادية.

تفيد الروايات المحفوظة في الأوساط الإنكشارية أن سليمًا بعد عودته إلى العاصمة فكر بأن يلغي نهائيًا جيش مشاة البلاط، لكن أشرافه صرفوه عن ذلك معللين له بأن التنكيل البدني بهذا الجيش الكثير العدد ضرب من المحال.

في حزيران عام ١٥١٦ قام السلطان التركي بحملة ضد السلطان المصري، ففي ٢٤ آب وقعت في مرج دابق شمال حلب معركة بين الجيش التركي والمصري، نصبت في مقدمة الجيش العثماني كالعادة العربات الحاملة للمدافع بمنزلة سياج. تصف المصادر العربية هذه الحواجز بالتفصيل بأنها كانت عبارة عن عربات مربوطة معًا بسلاسل وأكوام من جذوع الأشجار، وقف الإنكشاريون في وسط تركيب الجيش حائطًا منسقًا سد الطريق إلى مقر السلطان، مسلحين ببنادق شطف مجهزة بالفتائل اللازمة لإطلاق النار فور سماع الإيعاز، ونصبت أمام الإنكشاريين المدافع.

كان قانصوه الغوري في وسط جيشه المكون من ٢٠ ألف مقاتل، بدأ الجيش المصري الهجوم موجهًا ضرباته إلى جناحي الجيش المعادي ووسطه في آن واحد، بيد أن الهجوم لم يتوج بنجاح على الرغم من أن الخيالة التركية تكبدت خسائر كبيرة، وعقب ذلك الهجوم المعاكس من جهة الخيالة الروميلية المدعمة بنيران المدافع والمشاة الإنكشاريين، كان صوت المدافع قويًا لدرجة أن قانصوه الغوري جفل وهرب مع أحد عبيده من ساحة القتال متوقعًا هزيمته، يورد المؤلفون العرب أن مقاتلي الجناح الأيمن من الجيش المصري استاءوا من أن المماليك لا يشاركون في القتال فغادروا ساحة المعركة، فكان النصر حليف الأتراك، وكان الفصل فيه للمدفعية التركية القوية وأسلحة الإنكشاريين النارية.

بعد الانتصار المهيب على المصريين دخل الجيش التركي حلب دون تعويق، وقد سلمها أهلها للأتراك من غير قتال، وفي اليوم التالي أعلن سليم في مسجد المدينة «خادم الحرمين الشريفين» ولكي يغدو رئيسًا مكرمًا لعموم المسلمين في أقرب وقت، وفي أيلول عام ١٥١٦ أعلن سليم نفسه قائدًا للحج محددًا فترة بدايته، ويفيد المؤرخون العثمانيون أن سليمًا أعلن فريضة الحج وأرسل كسوة إلى مكة فور

استيلائه على القاهرة، وبالقرب من حلب حدث لقاء بين سليم والخليفة المتوكل الأسير، فاستقبله سليم استقبالاً مكرمًا، وبعد ذلك ظهر سليم في دمشق.

في حلب امتلأت الخزينة السلطانية بثروات هائلة قدرها مليون دينار ذهبي بالعملة الصافية، بالإضافة إلى الجواهر والأنسجة والفراء وغيرها، وقعت بأيدي سليم خزينة السلطان المصري الذي توقف في حلب، كما وزع السلطان في فترة وجوده في حلب العطاءات على جيشه عدة مرات وبسخاء، غدت حملة سليم العسكرية - التي كانت تحمل في طياتها طابعًا سياسيًا - مشروعًا مربحًا جلب له دخلاً لا يستهان به، مثله مثل أغلب حملات السلاطين الأتراك.

عقب احتلال حلب استولى على حماه فحمص فدمشق، وهكذا تم الاستيلاء على سوريا بأسرها بعد أن كانت تابعة للسلطان المصري، وقف سليم يتساءل: ماذا سيفعل هو في المستقبل القريب، مكث سليم في دمشق شهرين منتظرًا الأخبار من القاهرة، فبعد معركة مرج دابق انقطعت أخبار قانصوه الغوري، وصار بديهيًا أن ابن أخيه طومان باي - الذي تولى مكانه في القاهرة - كان يستعد لمجابهة جيش سليم. أغلب الوجهاء وقادة جيش السلطان لم يدركوا ضرورة استئناف الحملة والسعي نحو الاستيلاء على القاهرة، إذ كانوا يخشون الإخفاق المحتمل للعملية الحربية، بيد أن سليمًا كان يسترشد بمصالحه السياسية الخاصة، فأدرك ضرورة قهر المنافس الخطر والحليف المحتمل لإيران الصفوية، فسعى إلى إخضاع كل مصر للسلطة العثمانية، وهكذا قرر الذهاب إلى القاهرة.

أحاط الجواسيس السلطان سليمًا علمًا أنهم في غزة كانوا ينتظرون مجيء جيش السلطان المصري الجديد طومان باي، أراد سليم أن يقهر العدو على مراحل فأسرع بإرسال بضعة آلاف من المقاتلين إلى غزة تحت قيادة خادم سنان باشا الذي انتصر في ٢٥ كانون الأول عام ١٥١٦ في بيسان على قائد الجيش المصري ويدعى

جانبردي، كان في جيش سنان باشا بعض الإنكشاريين الذين بدأوا الهجوم قبل سائر المقاتلين، رمى المشاة الإنكشاريون المصريين بوابل من نار البنادق والسهام، فضعفت عزيمة مقاتلي جانبردي.

كان السباهيون الأتراك يجيدون استعمال الحبال المربوطة بالخطاطيف يسقطون بها الفرسان المماليك عن صهوات خيولهم، ومن ثم يقضون عليهم بالفؤوس الحربية واليقطان[1].

بعد أن استولى سنان باشا على غزة سارع في إبلاغ خبر انتصاره لسليم الذي بدأ الزحف مع سائر الجيش نحو هذه المدينة، ورغبةً منه في أن يترك انطباعًا جيدًا عن نفسه في نفوس السكان المحليين، قام بزيارة الأماكن المقدسة وأظهر عطفه تجاه السكان المدنيين، ولما حضر سليم إلى غزة قرر أن يزور مرقد النبي إبراهيم عليه السلام، فاتجه إلى هناك بصحبة حاشية جليلة تتضمن ألف إنكشاري وألف فارس من جيش البلاط واثنين من قواد جيشه، يشير مدونو التاريخ العثمانيون على وجه الخصوص أنه إلى جانب مرقد إبراهيم عليه السلام زار سليم مراقد إسحاق ويعقوب ويوسف.

استأنف الجيش التركي زحفه نحو القاهرة، كان الجواسيس يخبرون أن طومان باي يقوم بتدابير لازمة لنصب مواقع دفاعية حصينة قرب القاهرة، تمكن الحاكم المصري من جمع جيش من ثلاثين ألف وأمر بحفر الخنادق ونصب المدافع الكبيرة التي تولاها المدفعيون الأوروبيون، آخذًا ذلك في الحسبان قرر سليم الالتفاف حول جناح وتحصينات طومان باي، كان بحوزة المصريين مئتا مدفع أحضرت من القاهرة والإسكندرية، بيد أنهم لم يتمكنوا من استعمالها إلا التي في الجناح الأيسر، وكانت قليلة الفائدة.

---

(١) اليقطان: سيف محدب ذو حدين. المعرب.

أحرز الجيش العثماني النصر الذي فتح لسليم سبيلاً إلى القاهرة إلى حيث أرسلت الحامية الطليعية، أما السلطان فبعد أن مكث يومًا واحدًا في ساحة القتال انتقل إلى بولاق حيث أقام مقرًا مؤقتًا لنفسه، وهنا سمح سليم بنهب القاهرة، إلا أنه أمر بأن يقتصر النهب على بيوت المماليك المصريين، استقبل أهل المدينة الجنود الأتراك المرسلين إلى القاهرة بعداوة قصوى، فكانت السهام تنهال عليهم من نوافذ البيوت فصرعت وجرحت عددًا هائلاً من الفاتحين، اضطر سليم أن يرسل نجدة إلى القاهرة، بيد أن عصيان أهلها لم يتم القضاء عليه إلا بعد ثلاثة أيام، وبعد أن تأكد سليم من الأمن وطأ أرض القاهرة بجيشه حيث قضى نهائيًا على الثائرين، بعد ذلك بدأ صيد حقيقي لمقاتلي طومان باي، قبض على أربعة آلاف وثمانمئة شخص وأحضروا إلى سليم، وألقوا في نهر النيل.

على الرغم من النصر الظاهر لم يَرَ سليم أن مصر قد خضعت تمامًا للسيطرة العثمانية، فطومان باي لم يتم القبض عليه، وكل محاولات القبض عليه أو إرغامه على القتال لم تنجح، في غضون ذلك كان سليم يتنقل على الأراضي المصرية ويشاهد الآثار ويتعرف تاريخ البلاد بمساعدة المخبرين المحليين. وفي آخر الأمر تعب سليم من انتظار أية أخبار عن مكان وجود طومان باي، فقرر العودة إلى العاصمة.

لم يتوقف الحاكم المصري عن التفكير في العودة إلى الحكم، ففي أثناء وجوده في مصر الوسطى، جمع تحت رايته البدو ومن بقي من المماليك، فحاول بمساعدتهم محاربة المفارز التركية، لكن المدفعية التركية - التي استخدمت في الحرب ضد الحاكم المصري الأسبق - كانت تفزع العرب البدو، لدرجة أنهم كانوا يتفرقون هاربين بمجرد سماعهم أول طلقة مدفعية، وهذا ما ساعد الأتراك على إحراز نصر نهائي وأسر طومان باي، وفي نيسان عام ١٥١٧ أعدم.

في غضون زيارة سليم للإسكندرية رسا في مينائها الأسطول التركي الصغير القادم من إستنبول يحمل الغذاء والأجور للحامية التركية التي استقرت في القاهرة، شحنت السفن التركية بغنائم الحرب والبضاعة المصرية واتجهت إلى طريق العودة، عاد سليم إلى القاهرة حيث أجرى للجيش استعراض «يوقلامه» وأعلن عن زيادة الأجور لحراس البلاط الإنكشاريين والسباهيين، وزيادة الدخول لأصحاب التيمار السباهيين، وقد نال الإنكشاريون زيادة على أجورهم.

خضعت مصر كليًا لسيطرة سليم، وأكثر من تكبد الخسائر هم المقاتلون المماليك الذين فقدوا الكثير من امتيازاتهم السابقة، لم تتغير البنية الإدارية في مصر، نتيجة لبعض التدابير الاقتصادية فرضت على السكان مؤقتًا ضرائب أقل من ذي قبل، فقد طمح سليم بأن يظهر أمام الفلاحين المصريين مدافعًا وراعيًا لمصالحهم، وأكبر نجاح ناله سليم هو اعتراف شريف مكة به فقد أرسل إلى القاهرة ابنه بهدايا ثمينة ومفاتيح الكعبة.

ترك سليم مكانه خاير بيه ـ الذي أظهر إخلاصه للسلطان التركي ـ نائبًا على مصر وانطلق إلى سوريا، وفي الطريق استلمت المفرزة الإنكشارية المصطفاة ـ المكونة من «صولاك» (حراس السلطان الشخصيين) ـ أمرًا بإعدام يوسف باشا بسبب مخالفات وقعت منه أيام كان الجيش التركي في مصر، وهكذا نفذ الإنكشاريون في هذه الحالة الوظيفة التأديبية مؤدين دور الجلادين الحكوميين، ومن الجدير بالاهتمام أن الإعدام قد نفذه أكثر أفراد الجيش الإنكشاري سمعة، وهم حراس السلطان الشخصيين.

توفي سليم في بلدة «تشورلو» في أيلول عام ١٥٢٠، فسارع وجهاء الحاشية في إرسال خبر وفاته إلى مانيسا للشيخزاده سليمان، الذي كان الولد الوحيد الباقي للسلطان الراحل، ففي عام ١٥١٤ أمر سليم الأول بإعدام ثلاثة من أبنائه، وهم

عبد الله، ومحمود، ومراد، والراجح أن السلطان قد أراد بذلك درء النزاع في داخل الأسرة الحاكمة الذي رآه هو بأم عينيه وعرفه حق المعرفة، وهذا ما سهل لسليمان وراثة سلطة والده دون تعويق، ولهذا السبب لم يخف عن أحد خبر وفاة سليم، ومع ذلك كانوا في القصر يخشون من إساءة الإنكشاريين، لكن هذه المرة ليس بصدد انتخاب السلطان، فقد أفصح أمين بيت المال عن قلقه من هجومهم المحتمل على القصر بقصد نهب الخزينة، على أية حال كان هذا القلق غير مبرر، ارتقى سليمان العرش بأمن وسلام، وذلك في ٢٢ أيلول عام ١٥٢٠، ومع ذلك فإن الحادثة نموذجية جدًا تشهد على مدى تعود المجتمع الإنكشاريين وعربدتهم، بعد مراسم دفن السلطان منح جيش البلاط ـ طبقًا للنظام المعتاد ـ البقشيش بمناسبة تولي السلطان الجديد العرش، كما أعلنت علاوة على أجورهم.

بعد فترة وجيزة قام سليمان بحملة على المجر، فبعد انتهاء مدة الهدنة المحددة بثلاث سنوات التي وقّعت سنة ١٥١٨ ولم يرغب المجريون في تمديدها، أرسل «شاوش» من سليمان إلى بلاط الملك المجري «لايوش الثاني» يطلب منه دفع الإتاوة، لكن المجريين استقبلوه بصورة مهينة للسلطان العثماني وقتلوه، الراجح أن استقبالاً مثل هذا كان يحمل في طياته الانتقام على الأفعال العدوانية التي كان يرتكبها الآقينجيون الحدوديون، ففي الأيام الأولى من عهد السلطان الجديد احتل الآقينجيون «سربرنيك» و «تيسنا» و «سوكول» و «كنين» التابعة لهنغاريا، وبخلاف الوعود السابقة تم القضاء على كل حاميات تلك المناطق.

بهذه الأفعال المتعمدة في بداية حكم سليمان وتر القادة الآقجينيون العلاقات التركية المجرية بتعسف محاولين توجيه خطط السلطان الشاب لاحتلال أوروبا، ولما وجد السلطان سليمان نفسه وجهًا لوجه أمام الواقع اضطر إلى إعلان الحرب على الملك المجري وذلك في ربيع عام ١٥٢١.

بعد أن أرسل سليمان وزيره الأعظم بيري باشا بمدافع إلى أسوار بلغراد، اتجه بنفسه إلى أسوار «شاباتش» إلى حيث سبقه الجيش الروميلي بقيادة أحمد باشا، ولكي يزيد من معنويات جيشه وحماسه أعلن السلطان «يغما»، وهذا ما أثار حمية المقاتلين لدرجة أنهم اندفعوا في الهجوم على أسوار الحسن قبل أن تطلق المدافع نيرانها، وبمساعدة الحبال والخطاطيف والسلالم، وبغض النظر عن النيران ـ التي كان حماة القلعة يطلقونها على الأعداء ـ تسلقوا الأسوار وهم مسلحون فقط بسيوفهم العادية، انتهى الهجوم بنجاح، فسقطت قلعة «شاباتش» بأيدي الأتراك بسهولة، بعد ذلك وجه السلطان الجيش إلى أسوار بلغراد، كانت المدينة الصربية الكبرى هذه تتبع آنذاك للتاج المجري، وكانت تمثل حصنًا منيعًا على ملتقى النهرين: سافا والدانوب، ومقابلها كان مجدل صغير «زيملين» واقعًا، فاقترب الجيش التركي إلى أسواره، ولم ينتظر الأتراك وصول سليمان، واستولوا بسهولة نسبيًا على «زيملين» فدخلها السلطان التركي دخول الفاتحين. ورد في الروايات أن سليمان لما شاهد حصن بلغراد المنيع ذهل، ومع ذلك أمر بحصاره، ولأجل دفع معنويات الجيش جرى في زيملين توزيع البقشيش على المقاتلين.

بعد احتلال الأتراك لزيملين انسد طريق الملك المجري إلى بلغراد حيث كان عليه أن يتجه لنجدة المدينة المحاصرة، في غضون ذلك وصلت إلى أسوار بلغراد المدافع من بيري باشا، فبدأ القصف المنتظم لأسوار القلعة، في البداية استولى الأتراك على الحصن الخارجي، ثم بدأوا يقصفون بانتظام الحصن الداخلي، كان السكان يقاومون بعنف، بيد أنهم لم يتمكنوا من سدّ الثغرات التي كانت تفتح في السور بفضل المدافع لتزايد عددها بشكل مثير، ومع ذلك دافع السكان عن كل ثغر بشجاعة، وفي آخر الأمر أدرك أهل بلغراد أن لا فائدة من استئناف المقاومة فطلبوا الرحمة، وعد سليمان بعدم قتل أو إيذاء أحد من السكان، وبعد أن خضعت بلغراد

للأتراك في آب عام ١٥٢١ لم تتعرض للنهب، تلبية لأوامر السلطان تم إصلاح كل أسوار المدينة وأقيمت حامية فيها من ثلاثة آلاف إنكشاري.

أضحى الاستيلاء على بلغراد انتصاراً حربيًا وسياسًا كبيراً ظفر به الحاكم الجديد، وفي أيلول عام ١٥٢١ عقد بين الدولة العثمانية وفينيسيا ـ التي أدركت تماماً ضرورة التوافق مع الأتراك ـ معاهدة سلام أثبتت بموجبها الاستسلامات السابقة، بدأ سليمان الإعداد الدبلوماسي لفتوحاته الجديدة في أوروبا، وأكثر ما تشوق إليه الأتراك هو جزيرة «رودوس» التي طمع في احتلالها سليم الأول كما ذكر آنفًا، ومع احتلال مصر أضحى السلطان العثماني ظهيرًا وحاميًا للحجاج، كانت الدولة العثمانية معنية بسلامة السفن التركية في البحر المتوسط، ومع ذلك كانت رودوس دولة بحرية قوية يتصرف بها فرسان أخوية القديس إيوان (يوحنا) الأورشليمي. أسست هذه الأخويةمنذ عام ١٠٢٣ حين شيد التجار من «أمالفا» (إيطاليا الجنوبية) مشفى ورباطًا للمرضى والمقدسين المتجهين إلى القدس، في عام ١٣٠٦ احتل أعضاء هذه الأخوية جزيرة رودوس التي كانت آنذاك تتبع لأحد القراصنة الغينويزيين، ولو أنها كانت تابعة اسميًا للإمبراطورية البيزنطية، منذ ذاك الحين صارت جزيرة رودوس تحت سيطرة أخوية القديس إيوان وأضحت قاعدة بحرية قوية بيد الفرسان المسيحيين، فكر سليمان في السيطرة على ذلك المخفر الأمامي التابع للمسيحيين.

استعداداً للقيام بالحملة على رودوس شيد السلطان أسطولاً من ٦٦٤ سفينة، كما انطلق من إستنبول وغيليبولو أسطول من سبعمئة سفينة منها الكبيرة ومنها الصغيرة، أبحر من ميناء في الأناضول يقع مقابل جزيرة رودوس الجيش الروميلي والأناضولي، بعد كل هذه الإجراءات انطلق السلطان سليمان بنفسه إلى سواحل رودوس بصحبة جيش البلاط، كانت ثلاثمائة سفينة تركية مجهزة بالمدافع لصد

الهجوم المحتمل من السفن التي قد تأتي لنجدة الفرسان الرودوسيين من جهة البحر، نصبت تجاه أسوار القلعة الرئيسية على الجزيرة مدافع بعيدة المدى قادرة على تدمير الأسوار من المسافات البعيدة، وطبقًا للعادة انشغل الإنكشاريون بحفر الخنادق ووضع الحواجز الترابية وغرس المجان فيها، كانت فاعلية نيران المدافع العالية تعود إلى وضع المدافع المزدوجة بمسافة عشر خطوات بين المدفع والآخر، كان بعضها يلقي قذائف ضخمة، اصطف في كل مكان الرماة الإنكشاريون حاملين البنادق، كما أسند الجيش التركي بالتموين المادي حيث جاءت من مصر السفن المليئة بالغذاء والذخيرة.

حاول حماة القلعة منع حدوث الحصار عدة مرات مدبرين غارات مفاجئة على مواقع العدو، بيد أن المحاولات كلها لم تنجح، حفر الأتراك في عدة أماكن أنقابًا تحت أسوار القلعة كما أحدثت عدة انفجارات، ومن ثم أجريت محاولات الهجوم الأولى، لكن المدافعين دافعوا عن أنفسهم بحذق، فكانوا يسقطون الجنود الأتراك من أعالي الأسوار باستمرار، تكبد الجيش التركي خسائر كبيرة، لم يستفد الأتراك من الثغور التي أحدثتها قذائف مدافعهم في الأسوار إذ كان من ضمن حماة القلعة أهل القرى المجاورة الذين أخذوا على عاتقهم سدّ الثغور.

صارت تتوضح أكثر وأكثر استحالة الاستيلاء على القلعة من الموقع المختار، اضطر سليمان إلى أن يعقد مجلسًا عسكريًا حيث قرر إعادة إقامة الجيش ومعدات الحصار في مكان آخر، لكن الطريق إلى هناك كان يمر عبر مرتفع، انتهت هذه الإجراءات بنجاح، بيد أن هذا التدبير لم يسهل المسألة، استمر الحصار خمسة أشهر أخر، شارك في العمليات الحربية التركية مائة ألف شخص، في آخر الأمر أدى طول الحصار إلى إنهاء المسألة، فقد عانى الفرسان الرودوسيون من نقص في الغذاء والذخيرة فاضطروا إلى طلب الرحمة.

كان من ضمن شروط المعاهدة التي فرضها أهل المدينة ابتعاد الجيش التركي مسافة ميل واحد عن أسوار المدينة، ولكن بعد مضي خمسة أيام من عقد الاتفاق سخط الإنكشاريون كونهم حرموا من الغنائم وهم على بعد خطوتين من القلعة التي استسلمت فاحتجوا بضرورة استقبال رفاقهم الذين سيأتون إلى رودوس مع فرخاد باشا من الحدود الإيرانية، فغادروا مواقعهم، ثم تسلحوا بالهراوات وتوغلوا إلى المدينة ونهبوا بيوت السكان الأكثر وجاهة مقترفين الكثير من أعمال العنف، وأكثر ما تعرض لحقدهم وغيظهم كنيسة القديس إيوان المقدس الرئيسي في رودوس.

في شتاء عام ١٥٢٤ حين لبث الوزير الأعظم في مصر والسلطان سليمان في أدرنة حيث كان عادة يقضي شتاءه، أثار الإنكشاريون فتنة في العاصمة، فهجموا ونهبوا بيوت الوزير الثاني إياس باشا ودفتر دار عبد السلام وغيرهما من وجهاء العاصمة، ونهبت بعض بيوت السكان الآمنين، أسرع سليمان في المجيء إلى إستنبول حيث عقد جلسة مستعجلة وأمر بأن يحضر إلى القصر كل أفراد جيش البلاط، أشار الإنكشاريون الذين استجوبوا عن سبب الفوضى إلى الآغا مصطفى، عرف سليمان اثنين من الذين حرضوا على التمرد وهما رئيس الكتاب حيدر أفندي مع اثنين من الكتخدا المرؤوسين له، وقربان بالي مصطفى باشي، فتم إعدامهم جميعًا بأمر السلطان. يسكت مدونو التاريخ العثمانيون عن دوافع زعماء العصيان الإنكشاري، وليس أمامنا إلا أن نخمنها، يظهر أن السلطان قد أجرى بعض التدابير المرتبطة مع «دفاتر» الإنكشاريين التي من البديهي أن يعلم عنها رئيس الكتاب، الراجح أن الأمر كان ينحصر ضمن إعادة تسجيل الإنكشاريين، وهذا غالبًا ما كان يغضّه إلى جيش البلاط بسبب خطر انكشاف الحواشي والحيل المرتبطة مع الأجور، من المعلوم أن الخزينة كانت آنئذ تعاني من مشكلات مالية، وهذا ما يوضحه اعتناء

الحكومة بجمع الإتاوات من مصر فوراً، كما يوضح ذلك الظرف أن الإنكشاريين نهبوا بيت دفتردار، وهذا ما يجعلنا نفترض أن هدف الإنكشاريين كان الدفاع عن مصالحهم المادية.

لكي تحافظ سلطة السلطان على مستوى نفوذها كان لا بد من ممادسة السياسة التوسعية الناجحة، فعدم وجود مثل هذه السياسة بالذات في السنوات الأخيرة من حياة بيازيد الثاني هي التي أثرت سلبيًا على سمعته وهذا ما حال دون رضاء الجيش عنه، وهذا ما انتهزه سليم الأول للاستيلاء على السلطة، لم ينس سليمان ذلك فوجه جيشه إلى المجر سنة ١٥٢٦، فاستولى جيشه على «سلافكاشين» و «بيترفاراد»، وبعد الاستيلاء على بيترفاراد انطلق جيشه ببطء نحو موخاتشا واحتل في طريقه، بمساعدة بعض المفارز، القلاع الصغيرة والنقاط المأهولة.

في ذلك الحين جاء الخبر بأن الجيش الذي جمعه الملك المجري عسكر في سهل قريب من موخاتشا، يذكر المؤلفون الأتراك عدداً ضخمًا من الجنود في الجيش المجري تراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠ ألف شخص، لكن هذا الرقم مبالغ فيه، وفي الحقيقة لم يضم جيش لايوش الثاني إلا ٢٤-٢٥ ألف مقاتل كان ثلثه مكونًا من المتطوعين والجنود المأجورين البولنديين والتشيكيين والألمان والكروات.

بدأ القتال بين الجيشين بالمناوشة النارية بين المفارز الطليعية شارك فيها في الجهة التركية الإنكشاريون حاملوا المسكيت والعذبيون والرماة، ثم قام بالهجوم من الجهة التركية المقاتلون الآقينجيون والخيالة التركية المسلحة بسلاح خفيف، بعد ذلك اندفع إلى الهجوم على وسط الجيش التركي ـ حيث اصطف الإنكشاريون ـ الملك لايوش نفسه مع فرسانه، فاستقبله الإنكشاريون بنيران البنادق، كما أطلق الأتراك النار من المدافع المثبتة على العربات أمام الإنكشاريين حاملي مسكيت، اصطف

الإنكشاريون في الوسط في عدة أنساق وهم محاطون بالعربات الحاملة للمدافع المتلاصقة.

لما اصطدم المجريون بنيران الأقسام الإنكشارية المرصوصة ولم يفلحوا في الوسط وجّهوا هجومهم على الجناح الأيسر حيث الخيالة التركية، كان السباهيون الأتراك يسقطون بسهولة الفرسان المعدين بمعدات ثقيلة عن صهوات خيلهم، بيد أن المقاتلين المجريين كانوا يدافعون عن أنفسهم بشجاعة وتفان، أما الجيش الروميلي ـ وهو أفضل أقسام الخيالة التركية ـ فلم يقدر على الصمود أمام ضغط المقاتلين المجريين فتفرقت صفوفه، وهذا ما فتح للعدو سبيلاً للتوغل إلى وسطه، أخذ المجريون يسلبون من العدو كل ما يجدون في طريقهم من المعدات الحربية، في غضون ذلك بدأ الموقف في الجناح الأيسر ـ حيث اصطفت الخيالة الأناضولية ـ يميل لصالح الأتراك، فقد دبر الأتراك للمجريين كمينًا وأخذوا يهزمونهم، أرسل لايوش لنجدتهم قوات إضافية، بيد أن هذا لم يغير الموقف، فتح الإنكشاريون (توفينجي) بأمر السلطان النار على الجناح الأيسر حيث كان العدو، مؤدين بذلك مساعدة للسباهيين الأناضوليين، وهذا ما أقر نتيجة المعركة، فبعد أن جُرح لايوش مرتين وقع في الطوق وقتل في المعركة، ثم بدأ سلب المعدات الحربية التي تركها المجريون.

بعد أن أحرز سليمان النصر قرب موخاتشا في ٢٩ آب عام ١٥٢٦ اقترب في أوائل أيلول من بودا حيث استقبله وفد من أهلها وسلم له مفاتيح المدينة، حظر سليمان نهب المدينة وبقي يتفقدها يومين بصحبة وزيره الأعظم إبراهيم باشا، كل ثروات القصر الملكي وبعض الكتب من مكتبة ماتياش كورفين شحنت على السفن ورحلت إلى إستنبول، تعرضت للنهب فقط ضواحي بودا حيث كسب الجنود الأتراك غنائم كثيرة.

ترك سليمان خلفه الأراضي المنهوبة من المفارز السباهية والآقينجية الروميلية حيث أخذ آلاف الأسرى، وفي المناطق الواقعة شمال «سديم» (سيريمشيغ) لم يترك الأتراك حامية واحدة، لم يخطط سليمان لإقامة السلطة التركية في المجر بل استهدفت الحملة مجرد الترهيب بالإضافة إلى الغنائم، في عام ١٥٢٦ غدت المجر تحت سيطرة فرديناند الأول غابسبورغ الذي تنازع على العرش المجري مع أحد كبار الإقطاعيين المجريين يانوش زابوليا، وقد وقف سليمان في هذا الكفاح ضد طموحات فرديناند بجانب شقيق إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة كارل الخامس.

على الرغم من الفتن المستمرة التي عمت كل المناطق الشرقية من الأناضول في أراضي الإمبراطورية العثمانية - حيث أشعلت الانتفاضات ضد سلطة السلطان لأسباب دينية - ركز سليمان كل اهتمامه على أوروبا، فالتنافس السياسي بين إيران وتركيا خفّت حدّته لبعض الوقت، كانت الدولة العثمانية في أوج قوتها الحربية، وهذا ما لم يفهمه الشاه الصفوي إسماعيل، وهذا التوقف في التنافس التركي الإيراني - الديني والسياسي - مكن للسلطان التركي التهيُّؤ للعمليات الحربية الموجهة إلى الأراضي الأوروبية.

في عام ١٥٢٩ تدخل سليمان في شؤون المجر السياسية، وشنّ حملة جديدة عليها سبقتها مشاورات وتحركات سياسية لصالح يانوش زابوليا المنازع على العرش المجري، فقد تم تتويجه منذ ١٠ تشرين الثاني سنة ١٥٢٦ في مدينة «سيكيشفيخيرفار»، وكان له منافس وهو فرديناند غابسبورغ الذي انتخب في ١٦ كانون الأول عام ١٥٢٦ من البارونات الغربيين ملكًا على المجر، على امتداد عام ١٥٢٧ أحرز فرديناند عدة انتصارات على زابوليا، فاضطر الأخير إلى الهرب إلى بولندا، اضطر يانوش زابوليا أن يطلب العون من سليمان، فوعد سليمان

بمساعدته، وقع نضال دبلوماسي حاد على حقوق المتنافسين على العرش المجري، وقد أجرى سليمان محادثات حول هذه القضية حتى مع فرنسا، وبما أن السلطان كان بجانب زابوليا، قرر استئناف هذه السياسة بالقوة وأعلن أن هدفه النهائي من حملته هي ڤيينا، في أيار عام ١٥٢٨ قدم إلى العاصمة العثمانية سفير فرديناند، لكنه لم يتمكن من أن يتفق مع السلطان الذي كان يؤيد يانوش زابوليا الأضعف.

في ربيع عام ١٥٢٩ جمع الأتراك جيشًا مؤلفًا من ٢٠٠ ألف، كان عليه الهجوم على ممتلكات أسرة غابسبورغ النمساوية، وفي ١٨ آب عام ١٥٢٩ دنا الجيش التركي من موخاتشا حيث التقى سليمان مع جيش حليفه يانوش زابوليا الذي اعترف بسلطة السلطان العليا، وفي ٣ أيلول ظهر الجيش التركي قرب أسوار بودا الخاضعة لفرديناند غابسبورغ الذي تمكن من سلب المدينة من يانوش زابوليا، تعرضت بودا للحصار وعجزت حاميتها عن مقاومة الأتراك، وفي ٨ أيلول استسلمت بودا.

وكما حدث في حملة ١٥٢٦ منع سليمان نهب المدينة من جديد، وهذا ما أثار سخط الفيلق الإنكشاري، قبض الإنكشاريون على الوزير الأعظم إبراهيم باشا وحبسوه في إحدى كنائس المدينة وطلبوا منه بأن يساعدهم في قبض البقشيش من السلطان، ولم يوافق إبراهيم باشا على تنفيذ طلبات الإنكشاريين فترة طويلة ولكنه في آخر الأمر رضخ لهم.

لم تتوقف محاولة الهجوم هذه على الوزير الأعظم (في غضون التمرد جرح الإنكشاريون الشخص الثاني في الفيلق الإنكشاري وهو سكبان باشي، كما رشقوا بالحجارة وجهاء الدولة الآخرين) وهذا ما بين عجز الدولة عن الإشراف على تصرفات الفيلق الإنكشاري في ذلك العهد من حكم سليمان، ومع ذلك تعدّ مرحلة حكم سليمان هي مرحلة سيطرة الدولة بشدة على جيش البلاط، وفي عهد

السلاطين الذين جاءوا من بعد أظهر الإنكشاريون عدم انضباطهم، وكما نرى لم يكن الأمر كذلك، ومن الجدير بالذكر أنه في عهد سليمان أصبح الإنكشاريون يعتنون فقط بمصالحهم المادية، وفي حقيقة الأمر كانت تلك أول الأمارات على نضال الإنكشاريين في سبيل مصالحهم المادية.

قرر السلطان أن يظهر سطوته ورفض دفع البقشيش للإنكشاريين، عندئذ أحدث الإنكشاريون مذبحة في أهل المدينة ودمروا حامية بودا خلافًا لشروط الاستسلام، بات السلطان عاجزاً عن السيطرة على جيش البلاط، أظهر هذا التمرد سمات الجيش المأجور التي برزت فيما بعد في عهود الحكام العثمانيين المتأخرين، بدت على الفيلق الإنكشاري سمات التنظيم الذي يعمل لنفسه فقط، ففي بودا ثار الإنكشاريون لأسباب مادية مستقلة معربين عن نقمتهم على قلة أجورهم وسوء ظروف خدمتهم العسكرية، وعن اعتراضهم لحظر النهب الذي كان مصدراً إضافيًا لمكافآتهم، غدت مصالحهم مناقضة لمشاريع السلطان الذي حاول في حقيقة أمره الخروج عن النظام التقليدي في إجراء العمليات الحربية مانعًا الجيش من النهب.

في ٢٧ أيلول عام ١٥٢٩ دنا سليمان بجيشه إلى أسوار ڤيينا، في غضون ذلك كانت فصائل آقينجي قد نهبت ضواحي العاصمة النمساوية وأحضرت للسلطان الكثير من الأسرى، وقد علم الأتراك منهم عدد أفراد حامية المدينة، صرح سليمان بأن هدفه هو القيام بالمعركة ضد جيش فرديناند نفسه، بيد أن فرديناند لم يستعجل في الرد على دعوة سليمان، أضف إلى ذلك أن الجيش التركي قد وصل إلى ڤيينا متأخراً، فبحكم العادة كانت الحملات العسكرية التركية تنتهي في أيلول وتشرين الأول من كل عام، وكان الجيش يقضي شتاءه في العاصمة، وفي هذه الحالة كان واضحًا أن الحصار سيمتد لفترة طويلة، إذ كان حصن ڤيينا منيعًا جدًا، لم يكن في نفوس الجنود الأتراك أي تحمس، كما أن منعهم من نهب بودا لا يزال ماثلاً في

ذاكرتهم، في حين أن سليمان لم يصرح بكلمة عن نهب ڤيينا في حال الاستيلاء عليها.

ومع كل هذا بدأ الحصار وأخذت المدفعية التركية القوية تقصف، تم حفر عدة أنقاب تحت أسوار القلعة، بيد أن الثغور التي في الأسوار لم تفد بأي شيء، كان المدافعون يتصرفون ببراعة، في حين أن الإنكشاريين لم يظهروا أية حمية قتالية عند قيامهم بالانقضاض، كان حماة ڤيينا يرون من أعالي الأسوار كيف كان الضباط يجبرون الإنكشاريين والعذبيين على الانقضاض مخوفين إياهم بالعصي. أخيراً حدد يوم الاقتحام الحاسم، في ذاك اليوم أصبح الجيش يعاني من نقص في الغذاء والذخيرة، كانت معنويات الجيش ضعيفة لدرجة أن القواد اضطروا إلى تشجيع الجنود بالوعود ودفع المال لهم.

في ١٤ تشرين الثاني بدأ الجيش الهجوم الحاسم على أسوار القلعة، بيد أن دوافع الهجوم كانت ضعيفة، ساق المقاتلين إلى الأسوار الوزير الأعظم إبراهيم باشا والبيلربيه الأناضولي والآغا الإنكشاري مهددين إيّاهم بالعصى والسيوف، بيد أن الجنود فضلوا الموت على أيدي قوادهم على طلقات البنادق الألمانية الطويلة، لم يؤد أي هجوم إلى النتائج المرغوبة، ولما رأى ذلك سليمان أمر بوقف الهجوم.

اتضح أن الجيش التركي المرهق من الحملة الطويلة والشاقة عاجز عن تنفيذ الواجب الذي وضع على عاتقه. إلى جانب «البنادق الألمانية الطويلة» وجسارة المدافعين أنقذ ڤيينا من السقوط بعدُها عن عاصمة الدولة العثمانية، ولم يكن الجيش التركي معتاداً على اجتياز المسافات الطويلة، كما أنه أرهق وسخط على حالته المادية، فأدت هذه العوامل إلى ضعف عزيمته. إلى أي مدىً تعب المشاة الإنكشاريون؟ يمكننا أن نعرف ذلك إذا عرفنا كيف طوى الإنكشاريون خيمهم بعد مضي بضع من الليل وأحرقوا كل ما هو زائد ليخففوا على أنفسهم مشقة طريق

العودة، قرر الجنود أن يخلصوا أنفسهم حتى من جزء من الغنائم فقتلوا من الأسرى العجائز والنساء والأطفال إذ إن الجنود شكوا بأنهم سيصلون إلى سوق العبيد سالمين، رأى أهل ڤيينا بأم أعينهم مشهد المعسكر التركي وهو يحترق ووصل إلى أسماعهم عويل المقتولين، ولأجل تدارك سخط الإنكشاريين منحهم سليمان مبلغًا كبيراً من المال قبل الانطلاق إلى طريق العودة.

أرغمت العديد من الأحداث التي وقعت في أواخر العشرينات من القرن السادس عشر سليمان على أن يلتفت إلى الحدود الجنوبية الشرقية من الدولة العثمانية، ففي عام ١٥٢٩ اندلعت في وسط العراق انتفاضة كبيرة ضد الشيعة بقيادة أحد ممثلي الأشراف «اللوريين» المترحلين (ذو الفقار بيك) الذي دمر جيش النائب الصفوي واستولى على بغداد وأرسل مفاتيحها إلى سليمان ناصر المذهب السني المعترف به، إضافة إلى ذلك أمر ذو الفقار بيك بسك العملة ببغداد وحفر اسم السلطان عليها، كما أمر بذكر اسمه في الخُطَب، بيد أنه في عام ١٥٣٠ رد الشاه الصفوي على هذا التحرش مجدداً التنافس السني الشيعي، فاقتحم العراق ودمر جيش الثائرين واستولى على بغداد، في تلك الفترة تقريبًا لجأ إلى سليمان أحد خدم الشاه الفارسي تاخماسب ويدعى غلام، المنحدر كذلك من قبيلة «تيكيلو»، وبعد أن أنقذ نفسه من الشاه وانتقل إلى خدمة سليمان تولى بأمر السلطان الأعمال الإدارية في الولاية البطلسية، أما الحاكم البطلسي الأسبق شرف خان - الذي لم يرغب في فقدان سلطته - فلجأ بدوره إلى الشاه تاخمساب الذي وجه جيشه إلى بطلس، اضطر الأتراك إلى الابتعاد عن أسوار هذه المدينة، وفي شرق الأناضول بدأت تتطور الأحداث التي وقعت بين سليمان والشاه تاخماسب، تمجدت الدولة العثمانية في العالم الإسلامي ليس لكونها حصن المذهب السني فحسب بل لكونها الدولة القوية على الصعيدين السياسي والعسكري، فمن

البديهي أنه في حال النزاع على السلطة كان يلتجئ إليها الحكام والملاك المسلمون أو الأشخاص الذين يريدون الاستفادة من الرعاية هذه كانت حالة الحاكم الإسلامي العظيم تحتاج إلى رد فعل مناسب.

في أيلول عام ١٥٣٣ انطلق من إستنبول إلى حلب الجيش التركي بقيادة الوزير الأعظم إبراهيم باشا، هدفت الحملة إلى إخضاع أذربيجان الإيرانية لسلطة الأتراك، وتجدر الإشارة إلى أن سليمان فضل البقاء في العاصمة، فإذا حدثت هزيمة عسكرية جديدة في الشرق أيضًا فهذا ما سينال كثيراً من سمعة السلطة العليا، فالحملة على إيران ـ بحكم التجارب السابقة ـ لم تحقق انتصاراً سهلاً، وفي تموز عام ١٥٣٤ بعد أن قضى الجيش التركي بقيادة إبراهيم باشا شتاءه في حلب، اتجه نحو تبريز، آخذًا في الحسبان التجارب السابقة، انطلق الجيش التركي في الخريف لكي يتزود بالقوة خلال الاستراحة الشتوية ويبدأ تنفيذ مهمته العسكرية الأساسية.

لم يكن الجيش متعودًا على أن يقود الحملة أحد غير السلطان، كما أن إبراهيم باشا منع نهب المدينة سلفًا قبل بلوغ الجيش تبريز، فأخذ الجيش يطالب بأن يتولى قيادته سليمان، خاف إبراهيم باشا من قيام التمرد فأرسل رسالة إلى السلطان يطلب فيها حضوره إلى أذربيجان ومن ثم أقبل إلى تبريز، لما علم سليمان أن تاهماسب موجود في بلدة «سلطانية» وأن بحوزته حوالي سبعة آلاف قيزيل باشي وما لا يزيد عن ثلاثة آلاف فرس صالح للقتال، أسرع إلى هناك مع كل جيشه، ولكن في ذلك الحين حلت فترة البرد وتساقطت ثلوج كثيرة ما أعاق تقدم الجيش، كما حل نقص في الغذاء، فأرغمت هذه الظروف سليمان على التراجع عن هدفه والذهاب إلى بغداد لقضاء فترة الشتاء، انتهز تاهماسب وجود سليمان في بغداد فاحتل تبريز، أما الحامية التركية من السباهيين والإنكشاريين فطردت من المدينة، واستولى الشاه الصفوي على مدافعهم ومعداتهم الحربية التي تركوها هناك.

كان سليمان يرغب في ملاقاة تاهماسب، فأبى اقتراح السلام الذي عرضه عليه الشاه، رغب سليمان في أن يشجِّع جيشه ويرفع من معنوياته، فمنحه البقشيش عند الاقتراب من عاصمة الشاه وأعلن بأن أجورهم ومصادر دخولهم ستزداد، بيد أن تاهماسب كان يتهرب من ملاقاة جيش سليمان، كان الجيش التركي يسلك طريق شرقي الأناضول، وحدثت بعض الصدامات مع مفارز فرسان الشاه الإيراني، لكن الشاه نفسه كان مختفيًا عن الأنظار، ولم يبق أمام السلطان إلا العودة إلى إستنبول تاركًا في الأناضول الشرقية نوابه، أصبح برد الشتاء على الأبواب، أدرك الإنكشاريون الكارهون لمناطق الأناضول الشرقية ـ حيث تركوا الحامية قلعة وان ـ أدركوا أن سليمان لا ينوي أن ينجد علام خان، فأثاروا تمردًا فأحرقوا القلعة وضواحيها وأعلنوا عن عودتهم إلى إستنبول، أحيط السلطان علمًا بأن الحامية غادرت المدينة بغير إذن، أظهر الإنكشاريون من جديد عدم خضوعهم لسلطة السلطان مخالفين هذه المرة بصورة مباشرة واجبات خدمتهم العسكرية، كانت مثل هذه التصرفات من أفراد جيش البلاط ممكنة فقط حين كان الإنكشاريون يشعرون بأن العقوبة لن تلحق بهم، ومن الواضح أن الإنكشاريين صاروا يكتسبون قوة مستقلة قادرة على معارضة إرادة الحكومة.

أدرك سليمان ضرورة عودته، وتوقع أن مطاردة تاهماسب ستستمر طويلاً، في حقيقة الأمر خاص تاهماسب ـ الذي لم يكن بحوزته جيش كبير ومنظم ـ حرب الأنصار، فيظهر بغتة في أماكن حيث لا يتوقع أحد ظهوره، كانت المفارز المختلفة من مقاتليه تنجح في توجيه ضربات فجائية على أقسام مختلفة من الجيش التركي، وعقب مغادرة سليمان للأناضول الشرقية أسرع تاهماسب إلى إعادة تنظيم سلطته على الأراضي المسلوبة منه، وقد فهم الإنكشاريون هذا التكتيك جيدًا ولم يرغبوا بأن يصيروا رهائن بعد ذهاب الجيش التركي، وقد يكون هذا هو سبب مخالفتهم لأوامر السلطان.

في ١٣ حزيران عام ١٥٣٨ انطلق سليمان بجيشه إلى مولدافيا، وخلافًا للعادة لم يخبر السلطان أحدًا سلفًا عن سبب الحملة، ولم يعلن ذلك إلا عند الوصول إلى أدرنة، من الظاهر أن سليمان كان ينوي الانتقام من الحاكم المولدافي بطرس راريش على تصرفه المعادي للأتراك، وعلى الأراضي المولدافية انضم إلى الجيش التركي التتر القرميون بخمسين ألف سيف، وبقيادة الخان القرمي نفسه صاحب غيراي، واستنادًا إلى التقارير التركية واجه الجيش التركي التتري الموحد قرب «بوتوشان» ثمانين ألف مولدافي. يورد مدونو التاريخ العثمانيون ـ وهم ليسوا على علم بالخلافات الداخلية في القمة المولدافية ـ أن الحاكم المولدافي لما علم باقتراب الجيش التركي هرب إلى ترانسلفانيا فتفتت جيشه، ومع ذلك لما وجد بطرس راريش نفسه مهجرًا في بوتوشان من النبلاء المولدافيين اضطر إلى الهرب إلى ترانسلفانيا، لم يصطدم سليمان بأية مقاومة، فاقترب إلى «ياسي» ونهبها ثم استولى دون تعويق على العاصمة المولدافية «سوتشانا»، كان سكان «سوتشانا» على علم من «يغما» الأتراك فاختبؤوا في بيوتهم، بيد أن سليمان أمر بعدم النهب، طلب النبلاء المولدافيون وسكان المدينة الأشراف الذين دعاهم سليمان إلى المقر السلطاني تعيين «فويفودا» على مولدافيا استيفان لاسكوتا ابن الحاكم المولدافي الأسبق استيفان العظيم القاطن في إستنبول رهينة، فنفذ السلطان طلبهم، كما تم وضع شروط خضوع مولدافيا للسلطان وهي أن على الحاكم المولدافي الحضور مرة كل سنتين إلى «الباب العالي» مقدمًا للخزينة السلطانية مبلغًا معينًا من الخراج (وفيما سبق كان الخراج يوصل إلى العاصمة العثمانية من قبل رسول الحاكم الخاص) تعهد القيل التابع التركي في مولدافيا الخضوع لكل الأوامر الصادرة من إستنبول.

سارت الأمور في المجر على شكل آخر، ففي صيف عام ١٥٤٠ توفي يانوش زابوليا تاركًا مكانه ابنه الرضيع يانوش جيغموند الذي ولد في قران زابوليا وإزابيل

ابنة الملك البولندي سيغيزموند، أعلن يانوش زابوليا قبل وفاته ابنه المولود وريثًا للعرش، وهكذا خولف الاتفاق المعقود فيما سبق مع فرديناند غابسبورغ حول نقل كل السلطة على المجر بعد موت زابوليا إلى فرديناند، في غضون ذلك أعلن الاجتماع المنعقد في شيغيشفار ابن يانوش زابوليا ملكًا على المجر، وذلك عند تشكل مجلس وصاية العرش، وفي غضون النزاع على السلطة لجأ أوصياء العرش إلى سليمان طالبين منه الموافقة على القرار المتخذ، وإرسال المساعدة العسكرية للكفاح ضد فرديناند، في ٢٧ نيسان عام ١٥٤١ صدق سليمان على أن ابن إزابيل هو ملك المجر، وفي ٢٧ آب عام ١٥٤١ ظهر سليمان قرب أسوار بودا بجيش حيث تمت المحافظة على النظام بتدابير صارمة، وبعد يومين استدعي ممثلو الوجاهة المجرية وأعلن لهم عن تأسيس البيلربيه التركي على الأراضي الممتدة بين نهري الدانوب وتيسا بمركز في بودا، دفعت المجر الثمن غاليًا على المساعدة التركية في النضال ضد أسرة غابسبورغ، فقد حدث في المجر ما لم تستطع مولدافيا أن تقي نفسها منه، فالإنكشاريون الذين دخلوا القلعة جردوا من السلاح الحامية المجرية الموجودة في بودا، انضم ثلاثة آلاف إنكشاري برئاسة سكبان باشي إلى تركيب حامية بودا التركية الجديدة، وإجمالاً كُلِّف عشرون ألفًا لحماية بودا.

في صيف عام ١٥٤٣ قام سليمان بحملة جديدة على المجر، وكان من ضمن أفراد جيشه السباهيون بما فيهم الروميليون والأناضوليون، تميزت هذه الحملة بحسن التموين ونظام الجيش، ادّخرتْ الكميات اللازمة من الشعير والطحين التي أرسلت بحرًا وعبر الدانوب إلى بلغراد وبودا، وكان جزء من المؤونة موجودًا في الجيش مباشرة، قادت القوات الأناضولية الجيش في إقليم بلغراد، كان نفير الجيش وزحفه يحتاجان إلى فترة طويلة من الزمن، بدأت العمليات الحربية في أوروبا بحصار قلعة «فالبوفو» قبل وصول القسم الأساسي من جيش السلطان، قَرَّب

الأتراك إلى أسوارها المدافع المأخوذة من قلعة «إيسيك» المجاورة، شارك في الحصار إلى جانب السنجقبيكوات الحدوديين، السباهيون الروميليون بقيادة أحمد باشا، بيد أن الاستيلاء على القلعة قد تأخر مع أنها كانت عبارة عن مجدل شاقولي الأسوار، في اليوم الثامن عشر من الحصار جرى هجوم شديد قتل على أثره عدد هائل من الجنود في الجهتين، لكن هذا لم يؤد إلى النجاح، عندئذ لجأ الأتراك إلى «الهجوم النفساني»، فقد قام جيش السلطان ـ الذي اقترب وعسكر بالقرب من القلعة ـ باستعراض القوات على مرأى من حماتها، وبعد فترة في ٢٣ حزيران عام ١٥٤٣ فضل المحاصَرون تسليم مجدل «فالبوفو».

بعد أن عبرت قوات السلطان «درافا» دنت من قلعة «شيكلوش» وحاصرتها، حفر الأتراك حول القلعة خنادق ونصبوا المدافع فبدأوا يقصفون الأسوار، انتهى الهجوم باحتلال الأسوار الخارجية، بيد أن المدافعين استأنفوا الدفاع وهم مختبؤون في الصرح، وأخيراً بعد حصار استغرق عشرة أيام تمكن الأتراك في السابع من تموز عام ١٥٤٣ من الاستيلاء على المدينة.

بعد احتلال شيكلوش زحف الجيش التركي متجهًا إلى الشمال على أراضي البيلربيهية البودية، واقترب من بودا حيث استقبله الإنكشاريون من الحامية بقيادة سكان باشي، وقف الأتراك أمام مسألة صعبة وهي احتلال «إيسترغوما» المحمية جيداً بقلعة ذات موقع ممتاز على ضفة الدانوب، كانت هذه القلعة ـ حيث تمكث الحامية النمساوية القوية ـ تستعمل ـ نظرًا لمقربتها من بودا ـ قاعدة عسكرية لإجراء الهجمات على بودا التي يتولاها الأتراك، بعد احتلال شيكلوش أوصل الأتراك أربعين مدفعًا كبير العيار إلى الدانوب ثم نقلوها نهراً إلى «إيسترغوما» وأضيفت إليها ٣٦٥ مدفعية كبيرة وصغيرة مما أحضر من بودا، قضى المشاة ليلتهم في نصب المدافع وزرع الألغام، وما ساعد الأتراك على إحراز النصر هو خيانة أحد خيرة

المدفعيين من الحامية الإيسترغومية، والبيانات حول العدو التي علم بها الأتراك عن طريق غيره من الخونة، أصبح السلطان على يقين بالمكان الأضعف في سور القلعة، لكن رغم كل هذا لم يصدق الأتراك أن الاستيلاء على حصن منيع كهذا سهل إلى هذا الحد، بدأ الهجوم في السادس من آب عام ١٥٤٣، وتميز بقوة وتأثير شديدين، جرى القتال قرب الثغور المحدثة في الأسوار إثر قصف مدافع الحصار، لكن الهجوم لم ينجح، ومع ذلك فبعد يومين من الهجوم الحاسم فضل حماة القلعة الاستسلام، إذ يظهر أنهم أدركوا أن لا فائدة من المقاومة، أما الأتراك فتمكنوا من قطع المياه عن المدينة ووعدوا الحماة بأنهم سيبقون جميعهم على قيد الحياة، رفرفت فوق أسوار إيسترغوما الرايات التركية، لكن الأتراك دفعوا ثمن نصرهم غاليًا إذ كلفهم ذلك خسائر هائلة في الأرواح.

وطأ سليمان أرض إيسترغوما وشاهد المدينة وزار مقر الأسقف ثم الكنيسة المسيحية التي حولت إلى مسجد، فأقيمت فيها صلاة الجمعة وذكر فيها اسم السلطان التركي، ترك في المدينة قاضٍ وحامية كثيرة العدد ومسلحة بكل ما يلزمها من السلاح، وفي هذه الحملة تم الاستيلاء على «سيكيشفيخيرفار» حيث استخدمت المدفعية التركية على أتم قوتها، جلبت بعض المدافع إلى أسوار القلعة من بودا، حفرت حول القلعة الكثير من الخنادق، استمر قصف الأسوار بضعة أيام إلى أن ظهرت فيها ثغور كبيرة، بعد عدة أيام أمر سليمان بالقيام باقتحام حاسم، ولكي يرفع من معنويات جيشه وحميتهم القتالية أعلن أنه سيمنحهم المدينة لينهبوها كما يروق لهم، وفي الليل خيم على الأراضي ضباب كثيف حجب الجنود الأتراك عن أنظار الحماة، فاستطاعوا أن يقتربوا خلسة إلى الثغور، انتهى الاقتحام بنجاح، فقد تسلل الأتراك عبر الثغور إلى داخل القلعة، لكن المدافعين استأنفوا مقاومتهم العنيفة حتى في الداخل، تكبد الأتراك خسائر كبيرة في الأرواح، مع ذلك لم يتم

الاستيلاء الكامل على الحصن، وفقط بعد مضي أيام أدرك المدافعون أن لا فائدة من المقاومة فاستسلموا لرحمة الفاتحين.

ترك الأتراك في «سيكيشفيخيرفار» خلفهم حامية كثيرة العدد حيث انضم إليها ألف إنكشاري، بعد ذلك عاد سليمان إلى إستنبول، وفي ربيع عام ١٥٤٤ تم بمساعدة قوات سنجقبيكوات الباشاليك المجري والإنكشاري من الحاميات المحلية الاستيلاء على قلعة «فيشيغراد» الحصينة جداً الواقعة على مرتفع عال على ضفة الدانوب بالقرب من بودا.

في عام ١٥٤٨ انشغل السلطان كليًا بقضايا الشرق، فالمنافسة العثمانية الصفوية التي لم تحسم أرغمت سليمان على أن ينتبه إلى الوضع الداخلي في إيران، أغري سليمان من إمكانية هزيمة الشاه الإيراني تاهماسب، فأقام حملة على أذربيجان الإيرانية، أقبل إليه عن طريق كافا أخو تاهماسب ألكاس ميرزا الطامح في الجلوس على عرش شقيقه، وأخذ يزعم للسلطان التركي أن رعايا الشاه سينتقلون أجمعهم إلى جهته بمجرد دخوله إيران بجيشه العرمرم، في ربيع عام ١٥٤٨ أخذ سليمان معه جيهانغير وانطلق بقواته من إستنبول، بدأت الحملة الطويلة والشاقة التي لم يسبق لها أن حققت للدولة العثمانية انتصارات سهلة، ولما اقترب الجيش من بلدة «سيد غازي» زار سليمان في مقره ابنه سليمًا نائب الولاية الساروخانية الذي جاء خصيصًا من مانيسا ليستميل والده إلى نفسه، وفي المقابلة التي أنعم بها سليم كلّفه سليمان حراسة العاصمة الأوروبية للدولة العثمانية أدرنة، ولم يكن هذا إلا دليلاً على الإجلال الكبير، وفي «أكشهير» قابل سليمان ابنه الآخر بيازيد الذي كان أكبر من سليم بسنة، وكان نائبًا على الولاية الكرمانية، ولما جاء السلطان إلى سيواس قابله هناك ابنه الأكبر مصطفى الذي جاء إلى هناك من أماسيا.

لما بلغ سليمان أذربيجان الإيرانية وجد أن الأمور تسير على غير ما نبأ به أخو الشاه تاهماسب، راعى تاهماسب التكتيك الصفوي المفضل وهو التهرب من القتال الرئيسي، فلم يسارع إلى مقاومة سليمان الذي تسلل بجيشه إلى قلب مستعمراته، استولى السلطان التركي على تبريز بلا تعويق، وبعد أن مكث فيها أربعة أيام اتجه نحو وان الخاضعة لقيزيل باشي، أسندت قيادة حصار القلعة للوزير الأعظم رستم باشا، ثم حفرت حول القلعة الخنادق بعدة أنساق ونصبت مدافع الحصار، مضت ثمانية أيام وأسوار القلعة معرضة للقصف المدفعي ومدافع الحصار والمقذوفات، وفي اليوم التاسع طلب المحاصرون الرحمة، ولما دخل سليمان وان أمر بإصلاح أسوار القلعة ووضع الحامية التركية في المدينة ومن ثم ذهب إلى حلب لأن الشتاء قد أصبح على الأبواب، حلّ في الجيش نفوق الخيول وهو ما حال دون مطاردة الشاه تاهماسب.

في ربيع عام ١٥٤٩ بعد أن لم يظفر السلطان بهدفه الأول اتجه عائداً إلى إستنبول، ولكي يعوض بشكل أو بآخر عن عدم نجاح الحملة أرسل سليمان أحمد باشا إلى جورجيا بعدة آلاف إنكشاري والمدفعية، وهناك قمع أحمد باشا العديد من الثورات التي نشبت في بعض المناطق الجورجية، كما استولى على عدة قلاع، فرسّخ بذلك سلطة السلطان التركي على الأراضي التي بدأت تغدو أكثر فأكثر سبباً للنزاع بين الحاكمين العثماني والصفوي. في شتاء عام ١٥٤٩ عاد سليمان إلى إستنبول، وكان ذلك العام ذروة الفتوحات التركية.

حاولت الإمبراطورية العثمانية خوض حروب الفتوحات خلال المئة والخمسين السنة القادمة ولكن بغير التفوق العسكري والنظام الصارم الظاهرين، فمشقة الحملات المتزايدة مع قلة الأجور أضعفتا من عزيمة الجيش التركي عموماً، ومن الطبيعي أن هذا قد أثر في الوضع الداخلي في التنظيم السباهي والفيلق

الإنكشاري، كما انعكس هذا على قدرة الجيش التركي القتالية، وفي آخر الأمر على فاعلية الحملات المستمرة الضرورية، إذ ما زالت هنالك عوامل كثيرة تدفع السلاطين إلى ممارسة السياسة الحربية.

وقف الأتراك في المجر أمام الكفاح الطويل في سبيل الحفاظ على وجودهم هناك، وكان ذلك الكفاح يقام ـ بالعادة ـ بواسطة قوات قليلة العدد، وقد أرغم الصراع العسكري هذا السلطان على تنظيم العديد من الحملات على المجر التي ـ شكليًا ـ لم تعد تمثل أهدافًا احتلالية، وهذا يعني أنه ليس من الضروري أن يقودها السلطان شخصيًا.

بمقتضى ظروف العمليات الحربية الهادفة إلى الاستيلاء على القلاع كان لا بد أن يشاركها الإنكشاريون الذين ازداد دورهم في الحرب، من المحقق أنه حتى في هذه المرحلة جرت محاولات توسيع حدود الدولة على حساب الأراضي المجرية، لكن هذه العمليات لم تعد تحمل طابعًا واسعًا كالسابق، ففي صيف عام ١٥٥٢ حاول الأتراك السيطرة على «تيميشفار» من جديد حيث أرسلت قوات بقيادة وزير الديوان الثاني أحمد باشا الذي حاصر القلعة لخمسة وثلاثين يومًا شارك في الحصار الإنكشاريون المشاة والإنكشاريون المدفعيون المرسلون من أدرنة، كان في جملة المحاصرين الجيش الروميلي بقيادة محمد باشا، الذي كان يقضي الشتاء في بلغراد، ونتيجة ذلك تم الاستيلاء على القلعة، في ذلك الصيف تمكن الأتراك من احتلال العديد من النقاط الصغيرة المحصنة في المجر.

في الصيف والخريف من العام نفسه اضطر الأتراك إلى الدفاع كذلك عن الحدود الشرقية لدولتهم، توتر الموقف على الحدود الشرقية من الإمبراطورية، حيث قام الشاه تاهماسب باحتلال قلعة «أهلات» وهدمها، ثم حوصرت «أرجين»

التي بقيت تدافع عن نفسها حتى قلب الشتاء، في آخر الأمر اضطرت القلعة إلى الاستسلام، كما تم الهجوم على «أديلجيفاز» حيث كانت الحامية التركية.

كانت سياسة تاهماسب العدوانية ترغم السلطان على أن يفكر بالرد عليه، فنوى توجيه كل القوة العسكرية في الإمبراطورية العثمانية ضد الشاه الصفوي، اتجه نحو الحدود الإيرانية جيش ضمّ القوات الأناضولية والروميلية ـ بقيادة الوزير الأعظم رستم باشا ـ والفيلق الإنكشاري، وهذه المرة كذلك لكون أهداف الحملة دفاعيّة ـ لم تبشر بانتصارات عظيمة ـ لم ير السلطان ضرورة في أن يقود القوات بنفسه، والراجح أن حالة السلطان الصحية أيضاً حالت دون ذلك، بيد أن الجيش لم يرض من ذلك، فعدم وجود السلطان قائدًا للجيش كان مخالفة سافرة لتقاليد القيادة الحربية التي تشكلت، كما أن عدم مشاركة السلطان في الحملة لم يكن لصالح القوات ماديًا بعد أن فقدت إمكانية البروز أمام العاهل واستلام البقشيش المرغوب، لم يلح أفراد الجيش التركي على سليمان في قيادة الحملة، ولكنهم رغبوا في أن يرأسهم على الأقل ولي العهد، ولكن مشكلة تحديد ولي العهد كانت قائمة آنذاك، في مرحلة الحملة الدورية على إيران أضحى الصراع بين أبناء سليمان على عرش والدهم ظاهراً وخطراً على الدولة، أرغمت هذه الأحداث السلطان ابن الخمسين على تغيير قراره وقيادة الجيش بنفسه، انطلق السلطان إلى مقر الجيش وأعلن عن عزل رستم باشا من منصبه لاتهامه بعدم الولاء.

أثارت الحملة على إيران (١٥٥٢) منذ البداية تذمرًا غامضًا في أوساط الجيش ولا سيما في وسط الإنكشاريين، كانت حالة الجيش تقلق سليمان، حاول السلطان أن يستميل جيش البلاط، وفي ربيع عام ١٥٥٤ بعد قضاء الشتاء في حلب أقام السلطان ديوانًا فخمًا دعا إليه الضباط ومشايخ الفيلق الإنكشاري، وقد ترك المجلس المقام في خيمة السلطان الكبيرة على سهل قرب حلب انطباعًا كبيراً لدى

الجميع، استدعى إلى الديوان حوالي ألف شخص، كان السلطان يداهن جيشه ويناديه بشعور الرعايا المخلصين محاولاً أن يكفل لنفسه تأييده قدر المستطاع، في البداية خاطب السلطان الضباط وسألهم عن حالة القوات ومشقات الحملة، ثم بيَّن الأسباب التي دفعته إلى هذا الإعلان.

اغتر الإنكشاريون بهذه العناية من لدن السلطان وأعلنوا لحاكمهم أنهم سوف يتبعونه جميعهم بخضوع وسيضحون بحياتهم في سبيله، إلى حيث ما وجه هو حملته، حتى لو إلى الهند أو إلى الصين أو إلى المناطق الجبلية الصعبة الاجتياز، بعد مقابلة الإنكشاريين دعى السلطان إلى مقره ضباط جيش البلاط السباهي والوجهاء وحثّهم على استئناف الحملة.

يشهد واقع استدعاء قمة الضباط من الفيلق الإنكشاري إلى الديوان أن الجيش الإنكشاري قد اكتسب أهمية حاسمة في عداد الجيش التركي، فكان نجاح أية حملة أو عدم نجاحها يعودان إلى حالة الإنكشاريين النفسية، واضح كذلك أن الإنكشاريين في منتصف القرن السادس عشر لم يعودوا كالسابق قوة خاضعة نظامية قادرة على أن تكون سنداً للعرش مهما كانت الظروف، بعد أن اكتسب الفيلق الإنكشاري قوة مستقلة صار يعبر عن مصالحه الطائفية العنيفة التي غالبًا ما كانت تناقض مصالح السلطة العليا، بقيت خاصية من خاصيات جيش البلاط ثابتة لا تتغير، وهي روحه التجارية (الميركانتيلية) وفي هذه الظروف لم يكن بمقدوره الرضا من الحملات على الشرق بمقدرات مادية ضئيلة ومحدودة وعدم وجود الآمال في الترقي في درجات الخدمة، هكذا كانت حالة الحملة على الشرق في فترة ١٥٥٣-١٥٥٤، كان العدو خفيًا ومتملصًا كعادته، وكان البحث عنه ومطاردته في المناطق الجبلية قاسية عانى منها المشاة الإنكشاريون أكثر من غيرهم.

خلال السنوات التي تلت حملة سليمان على إيران نال الجيش قسطًا من الراحة، كان السلطان يقدّر بصورة سليمة الترتيب الحربي السياسي الذي تشكل لدى قواته على الحدود الغربية والشرقية من دولته، كما أدرك أن فترة الانتصارات والفتوحات السهلة نسبيًا قد مضت، بيد أن نظام الإمبراطورية العثمانية القوي لم يكن بمقدوره أن يقف مكتوف الأيدي، ففكرة كمال الحرب والفتوحات لم تنفذ بعدها، وكانت تتطلب من النظام الأفعال المناسبة، وبحكم الحملات كان الرعايا يرون السلطة العليا عاجزة عن فعل شي، وهذا ما كان يدفع السلطان إلى النشاط.

بقي للأتراك في البحر المتوسط مطمع صعب المنال وهو مالطا المسيحية التي جذبت أنظار الفاتح التركي الكبير، بيد أنه لم يجرؤ على قيادة الحملة بنفسه خوفاً من أن الهزيمة المحتملة ستنال كثيراً من سمعته السياسية في العالمين الإسلامي والمسيحي، عين «سردار» الحملة على مالطا قيزيل أحمدلو مصطفى باشا ممثل الأرستقراطية التركية القديمة المنحدرة من آسيا الصغرى. عين سرداراً بحريًا القبطان بياله باشا، كلاهما استلما أمراً بالتعاون الوثيق مع الحاكم التركي في تونس طورغوت باشا قائد الأسطول الخبير والعليم بكل التحصينات الحربية في مالطا، أبحر من إستنبول في ربيع عام ١٥٦١ أسطول يحمل القوات التركية ومن ضمنها آلاف الإنكشاريين، وبلغ سواحل مالطا قبل وصول أسطول طورغوت باشا، لم ينتظر السردار التركي وصوله فأنزل الجيش في خليج «مارساشلوك» وبدأ حصار قلعة «سانتا ماريا» ولما وصل طورغوت باشا بسفنه إلى سواحل مالطاكانت أعمال الحصار في أوجها.

على الرغم من أن الاستيلاء على القلعة المذكورة ـ برأي القائد الخبير لأسطول البحر المتوسط ـ لم يكن ذا أهمية إذا لم يتم احتلال الجزيرة برمتها، فقد تعرضت القلعة للحصار، وفي اليوم السابع سقطت، أخذت هذه العملية الكثير من قوة

الجيش، كان بين الأتراك عدد هائل من القتلى والجرحى، كما اتضح أن الذخيرة قد صرفت بكميات هائلة، إن النصر الذي أحرزه المتصرون وكلفهم الكثير من الجهود والخسائر والضحايا قد أقسى قلوبهم، فأعدموا الكثير من الأسرى بعد احتلالهم القلعة. بعد فتح سانتا ماريا جاء دور القلعة المحصنة تحصينًا ممتازًا الواقعة على جزيرة «لافاليت»، بدأت أعمال حفر الخنادق وتنصيب مدافع الحصار من جديد، ثم بدأ قصف أسوار القلعة، لكن حماس الجيش كان ضعيفًا لأنه بعد السيطرة على سانتا ماريا لم ينل جنود بياله باشا أية مكافآت، في حين أن مصطفى باشا لم يبخل بالهدايا المالية التي قدمها لقسم من الجيش الواقع تحت إمرته، نشب في أوساط الجيش خلاف حال دون فتح الأتراك للافاليت فعادوا جميعهم إلى إستنبول، وكان ذلك فشلاً رهيبًا بالنسبة للأسلحة التركية نال من سمعتها.

كانت العمليات الحربية في المجر (١٥٦٦) في غضون حملة السلطان سليمان الأخيرة تجري إقليميًا بواسطة قوات الجيش التركي المنفردة، توفي السلطان سليمان في صيف عام ١٥٦٦ حين استولت قواته على القلعة المجرية «سيغيتفار».

بقي الوزير الأعظم محمد باشا سوكولو برهة من الزمن يخفي خبر وفاة السلطان عن الجيش، حتى عن أقرب خدمه، إذ كان لا بُدّ من تأمين الوراثة الموفقة لابن سليمان سليم الذي ظل وقتذاك في الأناضول.

في اليوم التاسع بعد استلام خبر وفاة سليمان أقبل سليم إلى إستنبول وما لبث أن انطلق إلى بلغراد لمقابلة الجيش، في غضون ذلك أمر محمد باشا الجيش بالعودة إلى إستنبول، حمل جثمان السلطان الراحل في عربة مغلقة دون إعلام أحد عن وفاته، وهكذا وصل سليم بسلام إلى بلغراد حيث استقبل الجيش، وبعد هذا أعلن خبر وفاة سليمان وارتقى العرش سليم الثاني.

لما علم الإنكشاريون بهذا الخداع سخطوا كثيراً على السلطان الفتي كونهم لم ينالوا شيئًا من بقشيش التتويج ولم يعدهم كالعادة بزيادة أجورهم، مع اقتراب الجيش إلى إستنبول كانت الاضطرابات تزداد، طالب الإنكشاريون بإخراج الأشخاص الجدد الذين انضموا إليهم بأمر السلطان الجديد، لم ينتظر سليم الدخول إلى العاصمة، فأمر بتوزيع البقشيش لأفراد جيش البلاط، وأثناء ذلك قبض الإنكشاريون ـ الذين أراد السلطان تهدئتهم ـ مبلغًا يعادل ضعف المبلغ الذي ناله سباهيو بيلوكات البلاط، لكن الإنكشاريين لم يرضوا من ذلك فأخذوا يشكون من المشقات التي لحقتهم في سير الحملة، فنالوا بذلك زيادة في أجورهم.

بدا أن سخط الإنكشاريين قد انتهى، لكن الأمر لم يكن هكذا، ففي المقام الأخير قبل الوصول إلى العاصمة في بلدة «خالكلو» اجتمع الإنكشاريون المتآمرون سراً، فصادف أن رأى المدون التاريخي العثماني مصطفى سيلانيكي ـ الذي شارك في حملة سليمان الأخيرة ـ تجمعهم وهو عائد في ساعة متأخرة من الليل إلى معسكر الجيش بعد أن التقى بعض الأصدقاء، أثار مظهر الإنكشاريين وهم يتناقشون بحرارة تحت ضوء الشعلات والشموع الكبيرة ارتياب سيلانيكي، فأوصل الخبر إلى رئيس الكتاب محمد شلبي وكاتب الديوان الرئيسي فريدون بيه اللذين ما لبثا أن ركبا خيلهما وانطلقا إلى المكان الذي أشار إليه مصطفى سيلانيكي، فوجدا أنفسهما أمام المتآمرين وهم يتهيؤون للوليمة الليلية، كان المتآمرون يناقشون بصوت عال مشاريعهم للغد.

أسرع محمد شلبي وفريدون بيه لإعلام الوزير الأعظم عن التمرد الذي يستعد إليه الإنكشاريون، بيد أنه لم يعد هنالك متسع من الوقت للحيلولة دونه، والأرجح أنه لم تكن وقتذاك في العاصمة قوة قادرة على مقاومة الإنكشاريين، بدأ التهيؤ للمراسيم الحافلة لدخول السلطان الجديد القصر منذ الصباح الباكر، اصطف خلف

أسوار إستنبول لاستقبال سليم الثاني الوجهاء وكبار العلماء، ولما ظهر السلطان على حصانه تعالت أصوات الصلوات والبركة من وفد الاستقبال، ولما دنا الموكب من الثكنات الإنكشارية القديمة توقف الإنكشاريون بغتة وسدوا طريق الموكب السلطاني فبقي السلطان واقفًا هكذا أكثر من ساعة، ثم تحرك الموكب مستأنفًا طريقه، وعندما اقترب الموكب من حمام «بيازيد خان» أخذ الوزير بيرتيف باشا يؤنب الإنكشاريين على ما ارتكبوه، فكاد يدفع حياته جزاءً على أقواله، وذلك على يد أحد الإنكشاريين الذي قذف عليه المزراق وأسقطه عن صهوة حصانه، تصرف الإنكشاريون بالمثل مع قبطانهم بياله باشا الذي حاول كذلك أن يلوم الإنكشاريين على هذا الفعل، وبعد أن أسقط القبطان عن فرسه ولى الأدبار واختبأ في فناء الحمام الخشبي، وتعرض لتهديدات الإنكشاريين الوزير فرخاد باشا، أما الوزير الآخر أحمد باشا الفطين فحاول أن يفدي نفسه من العصاة فأخذ يرشق حشد الإنكشاريين بالنقود التي كانت تملأ جيوبه.

كان موكب السلطان ساكنًا في مكانه، أما الإنكشاريون فانقسموا إلى جماعات من ١٠٠ إلى ٢٠٠ شخص فأغلقوا أبواب القصر ليمنعوا السلطان من الدخول، وكان الأغا الإنكشاري عليٌ بينهم، وكان المنديل مربوطًا على رقبته يمسك من أطرافه الإنكشاريون وهم مستعدون لأن يخنقوا سيدهم في أية لحظة، وكانوا يردون على محاولاته في إقناعهم بأن الطعام الذي كانوا يتغذون به في الحملة كان رديئًا وأن أموال الخزينة محفوظة كلها للسلطان والوزير الأعظم فقط، بعد ذلك سمح الإنكشاريون بدخول فناء القصر السلطاني «توب كابا» لبعض الوجهاء، ومن ثم أغلقوا الأبواب فورًا وأوقفوا بقربها الوزير الأعظم محمد باشا سوكولو وأرغموه على الذهاب إلى السلطان، وإبلاغه بأن المتمردين لن يهدأوا إلا إذا وعدوهم بدفع المال لهم، أدرك سليم خطورة الموقف الذي تشكل ومهانة حالته

فاضطر إلى التنازل وطلب بإحضار أحد الإنكشاريين يجيد اللغة التركية للحوار، ولكن لم يجرؤ أحد من الإنكشاريين أن يمثل أمام السلطان، فطلبوا من سليم غيابيًا بدفع البقشيش لهم وزيادة أجورهم، بعدئذ اقترب الوزير الأعظم ـ الذي قام بدور الوسيط ـ إلى أبواب القصر وطلب من الإنكشاريين بفتحها معلنًا لهم بأن السلطان مستعد لتنفيذ كل طلباتهم، بيد أن الإنكشاريين تمهلوا في تنفيذ الأمر بفتح الأبواب، فاضطر سليم أن يمد المحادثات لبعض الوقت، وبعد أن تعالى صوت أذان الظهر الصادر عن مآذن مسجد «آيا صوفيا» أدخل الإنكشاريون سليمًا إلى القصر، وانتهى التمرد بنجاح، بيد أن السلطان لم تكن بحوزته آنئذ قوات قادرة على قمع تمرد المشاة، فأخذ الإنكشاريون يطالبون بعلاوة ثانية على أجورهم، وبقشيش آخر، فنجحوا في ذلك أيضًا، كان الإنكشاريون يتصرفون بدقة ويخططون لأفعالهم تخطيطًا محكمًا، ويعرضوا طلباتهم المادية البحتة، وكانوا يحاولون أخذ فرصهم كاملة في ظروف تبدل الحكم، وذلك بغية تحسين حالتهم المعيشية، ومن المحقق أن هذا كان التصرف الأول المدروس بدقة من لدن الإنكشاريين المناضلين في سبيل مصالحهم.

ومع ذلك فعلى الرغم من أن اتضاح استقلال الإنكشاريين عن إرادة الحكومة وتزايد قوتهم، لم تكن بحوزة السلطة المركزية أية قوات مسلحة أخرى تقدر على توفير مصالح الدولة، ومنذ النصف الثاني من القرن السادس عشر كان السلطان وحكومته يتنازلون لهم في كل الأمور ليؤمنوا أنفسهم بإخلاصهم بشتى الوسائل، ومن المحقق أنه لم تكن بحوزة السلاطين أجهزة سواهم.

في ربيع عام ١٥٦٨ وفَّرَ الإنكشاريون بالذات لسليم الثاني إمكانية الحفاظ على سيادته في جنوب الجزيرة العربية، أرسل ثلاثة آلاف إنكشاري بالمدفعية لقمع الثورات في اليمن التي نشبت ضد السيادة التركية بحكم تسلم السلطان الجديد

العرش، كما ساعد الإنكشاريون في قمع الانتفاضة التي نشبت في العراق حيث أرسل لمساعدة البيلربيه البغدادي ألفي إنكشاري لقمع الأمير العربي الثائر ابن علينة، إلى منتصف عام ١٥٦٨ قمعت جيوش بيلربيهية بغداد والبصرة وكردستان ـ وهي مدعمة من الإنكشاريين ومدفعيتهم ـ الانتفاضة معرضة للنهب والنيران المناطق التي انطلقت منها الحركة الثورية، إن الانتفاضات التي بدأت تشن ضد السيادة التركية في الأقاليم العربية من الإمبراطورية العثمانية باتت أدلة أولى على بداية مرحلة الفتن في تاريخ الدولة العثمانية، مضت مرحلة ذروة الفتوحات ووقفت الإدارة التركية أمام مسألة جديدة وهي المحافظة على مستعمراتها وتوفير التداول العادي للدولة المترامية الأطراف، كان بحوزة السلطان العثماني قوة عسكرية كافية لقمع الانتفاضات المحتملة ضد السلطة التركية، وكان الجزء الأساسي من هذه القوة جيش البلاط المعتمد على الأجور، غدت الوظيفة التأديبية لدى الإنكشاريين في النصف الثاني من القرن السادس عشر هامة في الدور الاجتماعي السياسي الذي كان للجيش الإنكشاري في الدولة العثمانية.

عند هذا بدأ انعدام الانضباط في صفوف الإنكشاريين يبدو أكثر فأكثر إذ لم يعودوا يخافون من العقاب المحتمل. منذ غابر الزمان والإنكشاريون يؤدون وظيفة رجال الإطفاء في العاصمة، في شتاء عام ١٥٦٩-١٥٧٠ لما نشب في حي اليهود في إستنبول حريق ـ كان من أعظم الحرائق في تاريخ العاصمة العثمانية ـ وقعت أحداث أسفرت عن عدم قابلية الإنكشاريين للقيادة، فهم لم يقبلوا على إخماد الحريق مباشرة، وبسبب هذا توسعت نيرانه وكادت تلتهم المدينة برمتها، ولكن التدابير الطارئة التي اتخذها الآغا الإنكشاري الجديد «سيافوش» المعين مكان جعفر آغا هي التي ساعدت على درء الكارثة، أضحت الحرائق في العاصمة منذ زمن فرصة ينتهزها الإنكشاريون للنهب، ولم تفلت المدينة من النهب هذه المرة كذلك.

كان في عداد الحملة التركية العسكرية المرسلة عام ١٥٧٠ لاحتلال قبرص الإنكشاريون وبيلوكات حرس خيالة البلاط والسباهيون، ويرأس خمسة آلاف إنكشاري كتخدا بيه يحيى الذي كان تحت إمرته كذلك المدفعيون الإنكشاريون، أبحر الأسطول التركي الكثير العدد من إستنبول في حزيران عام ١٥٧٠، لم يرأس سليم الحملة واكتفى فقط بالدعاء لأسطوله حين كان الأخير يمر قرب أسوار «يدي كولي» كان امتناع السلطان عن الذهاب في الحملة ابتعاداً سافراً عن التقاليد التركية القديمة، كان السلطان فتياً في أوج شبابه وقوته، ومع ذلك لم يجرؤ على قيادة أول حملة كبيرة تتم في عهده، بعد خمسين يوماً من الحصار استولى الأتراك على نيقوسيا، انتقل خبر سقوط نيقوسيا إلى سائر مدن الجزيرة ففضل أهلها الاستسلام للأتراك، باتت قلعة «فاماغوستا» صعبة المنال للغزاة الفاتحين، رسا قرب أسوارها في البحر أسطول بياله باشا، وفي البر حفر خندق عميق طوق حماة القلعة من كل الجهات، لكن حتى هذا لم يفد بأي شيء، ولم تستسلم فاماغوستا، واضطر الجيش التركي إلى أن يقضي شتاءه على الجزيرة دون رفع الحصار، أما الأسطول التركي بقيادة بياله باشا وعلي باشا فاتجه إلى إستنبول، وجاء عوضاً عنه أسطول صغير يضم أربعين سفينة بقيادة البيه التركي رودوس عرب أحمد بيه لتأدية الحراسة من جهة البحر.

في أوائل الربيع من عام ١٥٧١ جاء إلى فاماغوستا من إستنبول أسطول تركي كبير جديد يضم ثلاثمئة سفينة بقيادة الوزير الثاني بتييف باشا والقبطان علي باشا، جلبت السفن ما يلزم من الذخيرة لجيش الحملة العسكرية، قام لالا مصطفى باشا فوراً بقصف أسوار حصن المدينة، وبفضل خبرة الحاكم كليس جنبلاط زاده حفرت الأنقاب تحت أسوار المدينة من جهة البحر، ووضعت حشوات البارود فيها، ولكن حتى بعد إحداث الانفجارات الكبيرة والقيام بالهجوم الحاسم لم يفلح الأتراك،

كانت الأنقاب تحفر والانفجارات تهدر باستمرار، ولكن النتيجة المرغوبة لم تتحقق، وبأمر سردار عُزِلَ أحد بيلربيكوات يدعى مظفر باشا المسؤول عن الأنقاب وإجراء الأعمال الانفجارية، فدفع ثمن إخفاقه، كثيراً ما قام الأتراك بالهجومات الحاسمة على أسوار القلعة تدعمهم نيران مدافعهم، لكن هذا لم يكن يؤدي إلا إلى خسائر هائلة في الأرواح، كانت نيران المدافع تخطئ فتصيب ذويها بدلاً من الأعداء، وفي غضون ذلك كان حماة فاماغوستا يقومون بالدفاع ويهاجمون العدو في وقت واحد ويفلحون في ذلك ويحفرون من جهتهم الأنقاب ويحدثون الانفجارات، كان الجيش التركي يتكبد الخسائر الفادحة، بلغ العدد الإجمالي للمقتولين ثلاثة آلاف شخص، لكن المدافع واظبت على قصف أسوار القلعة، وأخيراً فعلت الأنقاب والتفجيرات فعلها فظهرت في أسوار القلعة ثغرات كبيرة لدرجة أنه اتضح أن الأتراك سيندفعون داخل المدينة عاجلاً أم آجلاً، أدرك حماة فاماغوستا انعدام الفائدة من المقاومة ففضلوا الاستسلام، وفي ٣١ تموز عام ١٥٧١ طلبوا الرحمة، فقد تبين أن الدفاع عن المدينة حتى النهاية من الحملة الصيفية ضرب من المحال، نفذ لالا مصطفى باشا شروط التسليم بنزاهة، فتمكن أربعة آلاف مدافع من مغادرة الجزيرة على متن السفن المقدمة لهم، بيد أن الإنكشاريين غضبوا غضبًا شديدًا على الرحمة التي نعم بها حماة فاماغوستا بعد أن استشهد تحت أسوارها عدد هائل من ذويهم، فقاموا بمذبحة في المدينة انتقامًا منهم، احتفل الأتراك بالانتصار على فاماغوستا وزينوا أسوار القلعة بأعلام ورايات كثيرة.

إن الانتصار التركي على قبرص ـ الذي كلفهم ثمنًا غاليًا ـ سرعان ما شطب بهزيمة ساحقة تكبدها الأسطول التركي قرب «ليبانتو»، بعد أن غادر الأسطول التركي جزيرة قبرص اتجه إلى وسط البحر المتوسط، في أثناء هذا العبور شنّ الأتراك غارة على كريت حيث نهبت القوات الإنزالية سواحلها، وبعد أن توحد

الأسطول التركي مع أسطول البيلربيه الجزائري أولوج علي باشا اتجه نحو شواطئ جزيرة «كافالونيا» و «كورنا» ناهبًا سواحلها كذلك، أفلح الأتراك في أخذ القلعتين الصغيرتين التابعتين للفينيسيين على الشاطئ البلقاني، بعد ذلك اتجهت السفن المشحونة بالغنائم نحو خليج «ليبانتو» دون مقابلة أسطول العدو، وبعد الوصول أذن لعدة سفن بالعودة إلى سواحل الوطن بطاقمها، أحيط القبطان علي باشا في ليبانتو بخبر اقتراب أسطول المسيحيين الذي يحتوي على أكثر من مئتي سفينة تحمل خمسين ألف جذاف وبحار وثلاثين ألف جندي، رأس أسطول المسيحيين ـ الذي كان عبارة عن أرمادة موحدة من فينيسيا وإسبانيا والباباوية وبعض الدويلات الإيطالية ـ شقيق الملك الإسباني فيليب الثاني ويدعى «دون خوان النمساوي».

نشبت المعركة في ٧ تشرين الأول عام ١٥٧١ واستمرت حتى مغيب الشمس، فقد الأتراك على أثرها ١٩٠ سفينة ما بين كبيرة وصغيرة، أخذت بالمصادمة السفينة التي كان على متنها القبطان علي باشا الذي استشهد في المعركة، وقع في أسر المسيحيين أبناؤه وخدمه، ولم تنجُ إلا سفن البيلربيه الجزائري التي كان على متنها القراصنة الجزائريون الخبراء في العراك مع السفن الإسبانية، فجمع أولوج علي باشا ـ وهو يدافع عن نفسه من سفن العدو المطاردة ـ ما تبقى من أسطوله وذهب به إلى عرض البحر هربًا من مطاردة العدو.

فقد الأتراك في معركة ليبانتو كل أسطولهم تقريبًا وعددًا هائلاً من القتلى والجرحى والأسرى، أوقع خبر الهزيمة العاصمة التركية في حالة الصدمة، إذ لم تمض إلا مدة وجيزة بعد الاحتفال بمناسبة الانتصار على قبرص، خيل للجميع أن خبر هزيمة الأسطول التركي قرب ليبانتو خاطئ، فقد حطم ذلك الحادث الأسطورة الراسخة في ذهن الأتراك حول تفوق قوة المسلمين العسكرية سواء في البر أو البحر.

وعلى الرغم من كل ذلك ما لبث الأتراك أن استعادوا قوتهم من جديد حتى إنهم قادوا حملة على تونس، خاض جيش السلطان التركي الكفاح على السلطة في تونس ضد الإسبانيين في فترة ١٥٧٣-١٥٧٤، وانتهى الكفاح في خريف عام ١٥٧٤ بانتصار الأتراك، فغسل الأتراك باحتلالهم لتونس عار هزيمتهم قرب ليبانتو، كما ارتفعت القدرة الحربية لدى السلطان العثماني من جديد، أما فكرة تفوق العالم الإسلامي على العالم المسيحي السائدة في أوساط المجتمع التركي فأحييت، في صورة الفرح والاحتفالات بمناسبة انتصار الأسلحة التركية، لم يتنبه أحد تقريبًا إلى الهجوم الفجائي من جهة المفرزة النمساوية المجرية من ألفين شخص على قلعة «سيغيتفار» الذي صدّه بصعوبة بالغة جنود بيه ديولا جعفر باشا، الذي أسرع لنجدة الحامية التركية المحاصرة، لكن مركز ثقل سياسة الإمبراطورية العثمانية الحربية في أوروبا انزاحت إلى الأراضي المجرية بالذات، حيث بدأ بتشكيل الموقف الذي لم يدركه السلطان وحكومته بعدهم، اقتربت لحظة التوازن السياسي، فالقدرة القتالية لدى الدولة العثمانية العاجزة عن استئناف الفتوحات في أوروبا أصبحت مساوية تقريبًا لقدرة أسرة غابسبورغ بعد أن رجحت كفتها على الصعيدين الاقتصادي والتكنولوجي ولو بصورة ضئيلة غير ملحوظة.

إن اختلال التوازن إلى الجهة هذه أو تلك عائد إلى الإتقان في خوض العمليات الحربية من الجيشين المتحاربين، وإلى قدرة الآلة العسكرية التي يملكها على القتال، وإلى قدرة النظام الحربي السياسي والإداري المتشكل في الدولة العثمانية على الصمود أمام تحدي العصر الجديد الذي دخل فيه تاريخ أوروبا.

***

الفصل الخامس ..

الفيلق الإنكشاري

وأزمة السلطة العليا

الفصل الخامس
الفيلق الإنكشاري
وأزمة السلطان العليا

كان سليم الثاني المتوفى في كانون الأول عام ١٥٧٤ أول سلطان عثماني لم يشارك شخصيًا ولا في أية حملة تمت في عهده، فعدم وجود الثقة في انتصار الحملة كان يحول دون مشاركة السلطان فيها، إذ الهزيمة كانت تعني ضعف السلطة العليا، وهذا هو السبب الذي دفع سليمًا وهو قد قدر الموقف تمام التقدير - على عدم الاستعجال في المغامرة، بيد أن التصرف هذا من لدن الحاكم الأعلى كان خطرًا جدًا على السلطة العليا نفسها إذ إن هذا كان يقطع الروابط الاجتماعية بين السلطان وبين جيش البلاط، بين السلطان وبين جمهور من الإقطاعيين السباهيين الذين كان يُسْرُهم كله معتمدًا على خدمتهم العسكرية، كان السلاطين الأتراك بامتناعهم عن قيادة الحملات العسكرية ونقل النشاط الحربي إلى قادة الجيش لا غيرهم يمهدون سبيلاً لتنشيط عملية انفصام المجتمع إلى طبقات وفئات، وانتشار الطائفية الاجتماعية، في آخر الأمر تشكلت الطبقة الإقطاعية في المجتمع العثماني، وقد اتضح ذلك على وجه الخصوص في الجيش الإنكشاري الذي بدأ منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر يتحول سريعًا إلى طائفة نموذجية في الدولة الإقطاعية.

قبل عام ١٥٧٤ شهد التاريخ العثماني العديد من هزائم الأسلحة التركية، ولكنه كان يشهده على غرار الحالات الاستثنائية المضجرة التي لم تكن إلا لتزيد من أهمية الانتصارات والفتوحات العظيمة، أما في أعقاب القرن السادس عشر فباتت

الانتصارات حالات استثنائية سارة في سلسلة من الهزائم الكثيرة في تلك المرحلة من التاريخ العثماني، ويظهر أن سليمًا قد أدرك ذلك الاتجاه فلم يرد أن يجازف بسمعة سلطته العليا أمام أعين رعاياه، ولكن إذ لم يشارك سليم الثاني في الحملات فمن الطبيعي بأن لا يشارك فيها كذلك الشيخزادة مراد الذي غدا عند تسلمه مقاليد الحكم غير قادر أبدًا على تنفيذ وظائف القيادة الحربية، وكان الامتناع عن القيادة الحربية يعني تفويض نفوذ السلطان في الجيش الذي تعود أن ينظر إليه نظرة المرؤوس إلى رئيسه، إن عدم وجود النشاط الحربي لدى السلطان نال من سمعة سلطته عند جيش البلاط، وعلى الأغلب عند السباهيين، وهذا ما خلق مقدمات هامة لأزمة السلطة السياسية، فبدأت الإمبراطورية العثمانية تدخل مرحلة الفتن والاضطرابات الاجتماعية من تاريخها التي وقعت في أساسها بسبب توقف الفتوحات وما يعقبها من التغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الجهاز الاجتماعي بالإضافة إلى أزمة السلطة العليا.

لما علم مراد خبر وفاة والده سليم الثاني أقبل من مانيسا إلى إستنبول وارتقى العرش باسم مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) وكان أول أعماله السياسية هو تصرفه الدموي داخل الأسرة الحاكمة المستند على التجربة التاريخية من المراحل السابقة، فأمر بقتل كل إخوانه في آن واحد ضامنًا بذلك المستقبل الآمن لحكمه، ووقع قبله حادث مماثل عند تولّي محمد الثاني الذي قتل شقيقه الرضيع كذلك في سبيل مصالح الأسرة الحاكمة السياسية، وقدتصرف مراد الثالث التصرف نفسه آخذًا في الحسبان التجارب المؤسفة من النزاع في داخل الأسرة الحاكمة الذي كان ينشب عمليًا في عهد كل السلاطين العثمانيين، وفيما بعد صار قتل الأخوة عند تولي السلاطين العثمانيين العرش تصرفًا مألوفًا.

في بداية نيسان عام ١٥٧٨ أرسل السلطان قواته في حملة على إيران. دخل الجيش التركي جورجيا ثم انطلق باتجاه شيرفان، في منتصف آب حين كان الجيش التركي في طريقه نحو شيرفان اندفعت إلى خيمة السردار جماعة من الإنكشاريين الذين طالبوه بإرجاع القوات فوراً إلى طريق العودة، بيد أن لالا مصطفى باشا استطاع تهدئة الإنكشاريين ومداهمتهم وإقناعهم باستئناف الحملة، ومؤخراً إبان إحدى الاجتيازات الكثيرة والعسيرة للأنهر امتنع بعض الإنكشاريين عن اجتياز النهر إلى الضفة المقابلة ـ حيث سبقهم لالا مصطفى باشا ـ واستمرار الزحف، تأخّر في العبور نصف الجيش تقريبًا ومعه المدافع والذخيرة فغضب لالا مصطفى باشا عليهم غضبًا شديداً، اعتزم السباهيون على تعيين سردار جديد لأنفسهم ألا وهو البيلربيه ماراش مصطفى باشا، لكن الإنكشاريين لم يؤيدوهم في ذلك بل قرروا عبور النهر إلى الضفة المقابلة، بعد ذلك اضطر سائر أفراد الجيش إلى اتباعهم، جازى لالا مصطفى باشا الإنكشاريين بسخاء على تأييدهم له، كانت نتيجة حملة ١٥٧٨ هي استيلاء الأتراك العثمانيين على شيرفان الصفوية.

خلال فترة ١٥٧٠-١٥٨٠ تمت العمليات الحربية سجالاً، وفي كانون الثاني من عام ١٥٨١ جاء أخيراً رسل الشاه مقترحين الهدنة، فأسرع السردار سنان باشا إلى الموافقة على بدء المحادثات في إستنبول، في أواخر تموز عام ١٥٨١ أقبل سنان باشا إلى العاصمة حيث سبقه بقليل سفير الشاه إبراهيم خان تركمان، لكن البلاط لم يكن مستعداً لإجراء المشاورات، فاضطر السفير إلى الانتظار، حددت فترة إقامة الاحتفال بعد عام وذلك بمناسبة ختان ابن السلطان الشيخزادة محمد، فكان مراد الثالث منهمكًا في تنظيم الاحتفال المقبل.

بعد انتهاء كل الاحتفالات التي جرت في إستنبول عام ١٥٨٢ بمناسبة ختان الشيخزادة محمد واستمرت أربعين يومًا انشغل مراد أخيراً بالقضايا الإيرانية، فأبى

مقابلة سفير الشاه وألقاه في السجن تعبيراً عن رغبته في استمرار الحرب مع إيران، عزل مراد سنان باشا من منصبه لأنه خيب آماله وعين مكانه فرحاد باشا الذي نعم بلقب الوزير إبان الاحتفالات بمناسبة ختان الشيخزادة محمد، كان الحزب الحربي في إستنبول يحتفل بالنصر.

انطلق السردار الجديد من إستنبول بجيشه في ربيع عام ١٥٨٣ آخذاً على عاتقه الاستيلاء على ريفان، فضل حاكمها تومكاك خان إخراج سكان المدينة كلهم منها وأمرهم بأن يجدوا ملجأ لأنفسهم على جبل أرارات، استولى الجيش التركي على المدينة بغير قتال، فبدأ فرخاد باشا فوراً بتشييد الحصون فيها، بعد شهرين صارت المدينة محصنة وتركت فيها حامية تركية، وبعد ذلك عاد فرخاد باشا بجيشه إلى أرضروم.

سارت الحرب مع إيران دون عمليات حربية كبيرة تقريبًا، ومرة واحدة فقط أرسل السردار، بيلربيه ديار بكر وبيلربيه سوريا ضد أحد بيكوات الشاه الذي كان يقتنص القوافل التركية الحاملة للأموال والغذاء، كانت إيران تخوض حرب العصابات ضد العدو، وحدث غير مرة أن تعرض الأتراك لهجمات قيزيل باشي وشاركهم في ذلك بعض صغار الملاك الجورجيين، صارت الكمائن على الطرقات ظاهرة مألوفة، أما توريد الغذاء والمال إلى تفليس فغدت مجازفة خطرة، وكان سبب عدم خوض إيران العمليات الحربية الكبيرة منحصراً ضمن الخلافات في داخل الأسرة الحاكمة، التي كانت تحول دون تنظيم الشاه مقاومة عسكرية كبيرة ضد الأتراك، كان الجيش الإنكشاري ينفذ خدمته العسكرية جيداً سواء ضمن القوات أو الحاميات، حدث أن شاركت بعض أقسام الجيش الإنكشاري في مختلف العمليات الحربية التي وقعت في تلك الفترة غير المرتبطة بالحرب مع إيران، فمثلاً في خريف

عام ١٥٨٣ أرسل ألف وخمسمائة منهم إلى قلعة «بندي» التي تعرضت لهجوم القوزاق، كان بعض الإنكشاريين في العاصمة قرب السلطان.

كانت خدمة الإنكشاريين في الحاميات تفسدهم وذلك لشعورهم بأنهم أسياد على المدن التي يتولونها، كما أن عدم مشاركتهم في العمليات الحربية طويلاً وانقطاعهم عن حياة العاصمة، وعدم وجود رقابة قوية عليهم، كل هذه العوامل كانت تؤدي إلى تحوّل طاقتهم إلى إساءات وتمردات، فشعورهم المزمن بعدم معاقبتهم (كان الإنكشاريون بتصرفاتهم يعرضون للمحاكم فقط قوادهم أو الآغا الإنكشاري) جعلهم لا يتوقفون عن نشوزهم السافر على ممثلي سلطة السلطان، ففي تموز عام ١٥٧٧ ثارت حامية قبرص، هذه المرة ثار الإنكشاريون ليس في سبيل مصالحهم المادية، بل لأن الحاكم التركي المحلي عرب أحمد باشا كان ـ برأيهم ـ يعين في المناصب العالية أناسًا «رديئين وغير شرفاء» فلذا رأوا أن قتله نعمة، هجم الإنكشاريون على عرب أحمد باشا حين عقد الديوان، وبعد أن سووا حسابهم معه نهبوا كل مقربيه.

في صيف عام ١٥٨٥ عين السلطان عثمان باشا وزيراً وسرداراً للحملة على إيران، إذ إنه أظهر في سير نشاطه الأسبق همته القتالية وبراعته القيادية أكثر من سلفه، أخذ عثمان باشا على عاتقه واجب فتح عاصمة الصفويين تبريز فنفذه بنجاح، وقد عجزت الدولة الصفوية الغارقة في الخلافات القبلية وفتن القمة الحاكمة، عن تنظيم الدفاع عن المدينة، فضل الأمراء القيزيلباشيون تسليم المدينة للأتراك وهم عازمون على توجيه ضرباتهم إلى مؤخرة الجيش العثماني المتفوق، وكانوا يعرفون تفوقه حق المعرفة.

في أيلول عام ١٥٨٥ دخلت قوات عثمان باشا المدينة دون تأخير، لكن المتاريس التي وضعها أهل المدينة اضطرتهم إلى استعمال نار المدافع على الشوارع،

منح عثمان باشا جنوده المدينة لينهبوها، وأكثر من نشط في ذلك الإنكشاريون الذين داروا بالبيوت والأفنية وسلبوا كل ما يروق لهم، بدأت الحرائق في المدينة المحتاجة تشب، احترق حي «سورخاب» برمته وبعدئذ أمر عثمان باشا بوقف النهب، فقد لجأ إليه وفد من وجهاء تبريز وطلبوا منه بأن يرحم المدينة، عزم الأتراك بعد استيلائهم على تبريز هذه المرة ـ على خلاف المرات السابقة ـ على أن يستقروا فيها، في غضون شهرين تمت فيها أعمال تشييد وتمتين أسوار القلعة، ووقع الاختيار على سبعة آلاف من الأتراك أن يبقوا في المدينة في هيئة حامية، غادر الجيش تبريز تاركًا انطباعًا سيئًا في نفوس السكان، أقام الإنكشاريون مذبحة عنيفة انتقامًا لاستشهاد بعض ذويهم، فقتلوا الكثير من سكان المدينة ونهبوا سوقها.

في ربيع عام ١٥٨٩ طالب الشاه عباس بالسلام، ونتيجة المحادثات الطويلة بين إيران والإمبراطورية العثمانية عقدت معاهدة السلام تبقى بموجبها جورجيا وأرمينيا وأذربيجان مع تبريز (ولكن بغير أردبيل وتاليش) والجزء الأعظم من لورستان في حوزة السلطان العثماني، كان من أهم بنود المعاهدة تسوية النزاع الديني، وتعهدت إيران الشيعية للدولة العثمانية السنية بألا ينطق علماء الأراضي المنضمة إلى الإمبراطورية العثمانية بكلمة سوء تجاه الخلفاء الراشدين الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وزوجة النبي صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها، لكن هذا لا يعني انتصار المذهب السني في أذربيجان الإيرانية التي وقعت تحت السطوة التركية، بل كان ذلك تنازلاً لا بد منه للمشاعر الدينية لدى الفاتحين، فالاضطرابات الشيعية ـ التي كانت تقع مرارًا في هذه الأقاليم حتى في ولاية أرضروم ـ لم تكن نادرة الحدوث في عهد السيادة التركية.

هكذا انتهت واحدة من أطول الحروب (١٥٧٦-١٥٩٠) التي خاضها الأتراك خلال تاريخهم، وكانت سمتها الرئيسية هي عدم مشاركة السلطان في أية عملية من

عملياتها، وقد أسفر ذلك عن بلوغ المستوى المعين من التطور الاجتماعي في المجتمع العثماني، حيث تعرضت وظائف السلطة العليا وأشكال تداولها لتغيرات لا يستهان بها، ومع تعقد نظام إدارة المجتمع حدثت عزلة جهاز السلطة مع ما يجدر به من الوظائف التنفيذية في شخصية الحاكم، بدأت قيادة القوات في مراحل الحروب التي كان يقودها فيما سبق السلاطين تتخذ طابع خدمة الدولة العادية الروتينية، يعين عليها المأمورون الخواص، بدأ يعين على العملية الإدارية العثمانية وزير الديوان الأول (الصدر الأعظم) قائداً أعلى، كما أن الحملة على إيران هذه أسفرت عن انعدام انضباط جيش البلاط التي غدت مألوفة، وذلك بعد أن بدأ الجيش يرى جواز الاستهانة بأوامر القائد الأعلى، وأخيراً فإن الحرب المضادة للصفوية على الرغم من أنها رفعت الشعارات الدينية، أسفرت عن اتجاهات المقاتلين العثمانيين الاعتيادية التي لا تستهدف إلا النهب والاغتصاب.

وعلى الرغم من النتائج الإيجابية لم يبق الوضع الداخلي في الإمبراطورية العثمانية على أحسن حال، ففي الربع الأخير من القرن السادس عشر حدثت اضطرابات بسبب انخفاض سعر العملة وانتشار الرشوات، كما نشبت العديد من الانتفاضات بسبب سوء الحالة المعيشية لدى الجماهير (حركة القضاة الروميليين ضد نير الضرائب) كل هذا كان يخلق ظروف التوتر والسخط الاجتماعي الداخلي، كانت الخزينة تعاني من نقص شديد في المال الأمر الذي كان يؤدي إلى تأخر دفع الأجور للجيش، كما كان هنالك نقص كبير في النقد، كان الجيش عند عدم استلامه الأجور في الفترات المحددة يلجأ إلى أقصى التدابير، ففي بودا في أواخر أيلول عام ١٥٩٠ هجم إنكشاريو الحامية ـ الذين لم يتسلموا أجورهم ـ على مقر البيلربيه فرخاد باشا وطلبوا منه بأن يدفع لهم مديونية نصف سنة وثلاثة أشهر مقبلة، فنفذ طلبهم، ولكن على أثر التمرد قتل فرخاد باشا، أما الدفتردار فأنقذ

نفسه بالهرب. وما فعله الإنكشاريون هو أنهم اغتصبوا الخزينة بالإضافة إلى بعض البيوت في بودا، لكن تصرفات المتمردين لم تفلت من العقاب، فقد حدد موظفو القصر المرسلون من العاصمة لمعالجة القضية ذنب الإنكشاريين فأعدم خمسة وثلاثون منهم، كما جرد الكثير من الضباط من رتبهم، كانت الشكاوى على ظلم الإنكشاريين تصل إلى العاصمة من كل الجهات، في مطلع عام ١٥٩١ بعد أن راجع الآغا الإنكشاري الشكاوى قرر إرسال واحد من بيلوك باشي يدعى قاره إسماعيل لاعتقال المذنبين ومعاقبتهم، ولما علم الإنكشاريون بذلك أقبلوا إلى بيت بيلوك باشي ورشقوه بالحجارة فحطّموا كل الزجاج، وأنقذ قاره إسماعيل نفسه بصعوبة، وعندما عقد الديوان السلطاني رفض الإنكشاريون الذين حضروه - كعادتهم - تناول الشوربة التي كانت تقدم لهم بمقتضى التقاليد، تعبيراً عن سخطهم، ولما رأى سباهيو البلاط ذلك أيدوهم، وانهال المتمردون على أعضاء الديوان بالشتائم والاتهامات ولم يعاقبوا على ذلك، فقد دفع ثمن عصيانهم فقط كبار موظفي الفيلق الإنكشاري بفقدانهم لمناصبهم، في الوقت نفسه ترك الإنكشاريون في مسجد الثكنات (أورتا مسجدي) منشورات يطالبون فيها بأن يعين عليهم آغا جديد يرتضونه فظفروا بذلك دون أن ينالوا العقاب على سفاهتهم.

في صيف عام ١٥٩١ شبَّ في إستنبول في حي «طوب خانة» حريق أطفأه الإنكشاريون تنفيذاً لواجباتهم، وعند عودتهم إلى ثكناتهم وهم مسلحون بالفؤوس هجموا على بيت البيلربيه إبراهيم باشا الذي كان في السابق بيلربيه أرضروم، وهناك أعدم بأمر أحد الإنكشاريين، وفي هذا مخالفة لحقوق أفراد الفيلق الإنكشاري القضائية، إذ لم يكن من حق أحد أن يحاكم إلا ضباطهم، كما كان بمقدرة السلطان كذلك أن يحدد لهم العقوبات، وفي هذه الحالة اعتدي على حقوق الإنكشاريين ما أدى إلى إعلامهم اعتراضهم، لكن إبراهيم باشا لم يعاقب

على تصرفه، وإبان حريق صيف ١٥٩١ كان إبراهيم باشا موجوداً في إستنبول، فقد أتى إلى العاصمة بالضرائب المجبية وأموال ملتزمي ولاية ديار بكر وهدايا للسلطان اتباعًا للعادات، وفي الديوان كان ينتظره استجواب بسبب سيل الشكاوى الآتية من ولايته على تصرفات الملتزمين، أسرع إبراهيم باشا الذي كان يخشى من هجوم الإنكشاريين بقذف الأكياس المليئة بالمال لهم فلم يصدق الإنكشاريون في بادئ الأمر أعينهم، وبعد ذلك أسرعوا إلى جمع النقود المنهالة من الأكياس، فانتهز إبراهيم باشا ذلك وهرب من بيته. كل ما جاء به إبراهيم باشا من ديار بكر وقع بأيدي الإنكشاريين بما فيها هدايا للسلطان مراد، وبعد النهب أحرق بيت إبراهيم باشا، وفي اليوم التالي يوم دفع الأجور للإنكشاريين أخذ الآغا الإنكشاري والكتخدا الإنكشاري وضباط الفيلق يؤنبون الإنكشاريين على ما ارتكبوه، فرد الإنكشاريون على ذلك بأن إبراهيم باشا نال جزاءه على ما ارتكبه من أفعال مناقضة للعدالة، فطلبوا بأن يحضر ذلك الوجيه إليهم للتحقيق، كما نرى لم يكتف الإنكشاريون من استلامهم المال بل طالبوا بالعدالة، غضب مراد الثالث من إساءة الإنكشاريين وغضب أكثر من ذلك بسبب الخسائر التي تكبدتها الخزينة، فأمر بطرد المذنبين بالنهب من الفيلق الإنكشاري، أما إبراهيم باشا فعزله من منصبه وحبسه في السجن.

كل هذه الأحداث تشير إلى أن الفيلق الإنكشاري لم يعد بنية حربية تنظيمية واقعة تحت مراقبة جادة من السلطة العليا كما كان في غابر الزمان. ومن الواضح أن أبواب الفيلق الإنكشاري في ذلك الحين صارت مفتوحة ليس فقط لأبناء الإنكشاريين بل لأشخاص غرباء كانوا في حقيقتهم خدم قمة العاصمة وهم مسجلون في صفوف الإنكشاريين، وكان هذا ممكن التحقيق فقط بطرق غير قانونية ومن أكثرها انتشاراً دفع الرشوات للموظفين في وقت مناسب، بدأ الإنكشاريون

في ثكنات العاصمة في فترة عدم وجود الخدمة العسكرية، وهم مجمعون بأعداد هائلة، يشكلون قوة اجتماعية خطرة لا تخضع للقيادة.

في شباط عام ١٥٩٢ وصل إلى إستنبول خبر إعدام الإنكشاريين الذين ارتكبوا إساءات في حامية أرضروم، فقد سلب الإنكشاريون المواد الغذائية التي وصلت إلى المدينة وأخذوا يبيعونها في الأسواق بأسعار حددوها بأنفسهم، إلى جانب ذلك كانوا يمارسون الدعارة على مرأى السكان ولا يحسبون حسابًا لأي قيم، طلب المشتكون الذين قدموا إلى إستنبول بتحرير المدينة من هؤلاء المجرمين الإنكشاريين وإلا فسيضطر سكانها إلى تغيير أماكن سكنهم أو أن يثوروا بأنفسهم ضد الجائرين، أبلغ الآغا الإنكشاري السلطان عن التهمة الثابتة على الإنكشاريين الأرضروميين فجرى إعدام المحرضين منهم، ولما علم إنكشاريو العاصمة نبأ إعدام ذويهم في أرضروم تمردوا أثناء حضورهم الديوان وطلبوا أن يسلّم إليهم الشخص الذي سافر إلى أرضروم بغرض معاقبة المذنبين، كما هددوا من أعطى أمرًا بإعدامهم، أخذ الآغا الإنكشاري الموجود كذلك في الديوان يقنع مرؤوسيه وهو على علم أن هذا الأمر قد صدر من السلطان، في آخر الأمر طرد المتمردون من القصر، ولكن بما أن الإنكشاريين امتنعوا عن تناول الشوربة التقليدية، صار واضحًا أن عقب ذلك سينشب تمرد منهم، أخذ السلطان يتصرف بالخطة المبنية فأرسل إلى الوزير الأعظم فرخاد باشا مرسومًا بعزل محمود آغا من منصب الآغا الإنكشاري وتعيين سلاحدار القصر خليل آغا مكانه، إلى جانب ذلك عزل مراد الوزير الأعظم فرخاد باشا وعين مكانه سيافوش باشا، مست هذه التحويلات كذلك كل بيروقراطية العاصمة بما فيها طبقة كبار علماء الدولة، حاول السلطان بهذه التغييرات في السلطة إخماد النزاع فنجح في ذلك على وجه العموم، ولكن بعد فترة وجيزة أبدى الإنكشاريون تعسفهم من جديد فأولوا رعايتهم للفويفودا المولدافي المحبب إليهم الذي نوى

السلطان عزله من منصبه كذلك، فخبؤوه في ثكناتهم، كانوا في العاصمة يقولون إن الإنكشاريين فعلوا ذلك مقابل مبلغ كبير من المال دفعه لهم الفويفودا، فتمكن الإنكشاريون من إنقاذه من العزل.

في أعقاب صيف عام ١٥٩٣ قام السلطان بحملة جديدة على الأراضي المجرية، كان جمع جيش وإرساله إلى الحملة في أواخر الصيف فعلاً غير معقول من وجهة النظر العسكرية، إنّ الجيش انطلق فقط ليقضي الشتاء في إقليم من الأقاليم الحدودية، على أية حال من المحتمل أن هذا ما خطط له السلطان، وذلك لكي يبعد جيش البلاط المتمرد عن العاصمة، وفي فترة صيف عام ١٥٩٣ تمكن سنان باشا أن يفعل الحد الأدنى من المستطاع، فعند اقترابه إلى أسوار «فيشيغراد» (شتولفايسنبورغ) قام باستعراض الجيش ودفع له الأجرة، ومن ثم وبعد أن ترك قرب أسوار هذه القلعة بيلربيه البوسنة اتجه نحو «فيسيريم» حيث استسلمت حاميتها بعد ثلاثة أيام من الحصار على شرط خروج الحماة من القلعة (١٣ تشرين الأول ١٥٩٣) كما استسلمت للأتراك «بالوتا» المحاصرة فتعرضت حاميتها للمذبحة خلافًا لشروط الاستسلام، بعد ذلك اتجه الجيش إلى مساكنه الشتوية، أسكن الإنكشاريون مدة الشتاء في بودا.

في تشرين الثاني عام ١٥٩٣ انهزم الأتراك في معركة قرب «فيشيغراد» هزيمة نكراء، فقد اصطدم الجيش التركي من جديد مع الأساليب التكتيكية الأوروبية المدروسة، لئن كان في القرن السادس عشر بحوزة الأوروبيين جماعات المشاة الجديدة بأسلحة نارية جديدة مختلفة العيار والخيالة الثقيلة والخفيفة، وتعلموا فن التكتيك الحربي سريعًا مع حساب الظروف وحالة المنطقة، لكن لم يكن ذلك كل شي، فقد كانت جماعات المشاة الأوروبية تنقسم إلى وحدات تكتيكية، والشيء نفسه فعله الفرسان المصطفُّون في ساحة القتال على شكل أرتال كثيفة وعميقة

مشكلين كتائب الخيالة، وتميزت كل هذه الوحدات بالتحام خاص، كان الجنود الأوروبيون يتعلمون طريقة الاصطفاف، وغدا التركيب الخيالي الحربي في القرن السادس عشر علمًا مستقلاً، فالأرتال العميقة كانت تتحرك ببطء أو تقف بانتظار العدو وتستعمل المسدسات، هذا هو الشيء الجديد الذي واجهه الأتراك في أعقاب القرن السادس عشر في الحروب ضد الأوروبيين، وتجدر الإشارة إلى أن الكثير من هذه الأشياء كانت جديدة على العثمانيين لأنهم لم يخوضوا الحروب في أوروبا طويلاً، فبينما كانوا منهمكين في العمليات الحربية في الشرق، في غضون ذلك تقدم علم الحرب في أوروبا خطوات كبيرة إلى الأمام، كانت الخيالة الأوروبية تتبع للقيادة التكتيكية ووقع على عاتقها واجب خاص وهو تفريق المشاة (وهذا ما كانت تفعله مع الإنكشاريين) ودهسهم بحوافر الخيول، كما وجب عليها منع المشاة من الحركة بالهجوم عليهم من الجهتين، فبما أن الخيالة كانت تقسَّم على الكتائب كان بمقدرتها الهجوم على العدو من مختلف الجهات وبصورة فجائية، أما جماعة المشاة الأوروبية فكانت كذلك تنقسم إلى الوحدات المتحركة، وخفيفة الحركة والقابلة للقيادة، فكان من المستطاع نقلها في سير المعركة إلى أي مكان مناسب، ولم يكن لدى الأتراك علم في قتال كهذا، ولم تكن لديهم أية خطط سوى الاصطفاف العادي وتارة الكمين، تلك الوسائل المحدودة التي يعلمها عدوهم حق العلم.

اصطدم الأتراك قرب «فيشيغراد» بأرتال الخيالة العميقة المتقدمة نحوهم ببطء، وفي ٣ تشرين الثاني عام ١٥٩٣ انهزم الأتراك شر هزيمة، فصار الإنكشاريون تحت حوافر الخيول، كما ورد عند مصطفى علي أن كتخدا بيه الإنكشاري رأى بأم عينيه جنوده المصروعين على الأرض المنغرسين في التراب والدماء تغمر أجسادهم، كان عدد القتلى بينهم هائلاً، خاب هجوم الخيالة التركية تحت نيران الخيالة النمساوية، أثار هذا الإخفاق الحربي الكبير والخسائر الجسيمة سخط الإنكشاريين وسباهيي

البلاط، ولما علم بعضهم (قدماء المحاربين في الحملة على الفرس) بالهزيمة انطلقوا إلى إستنبول وهجروا سردارهم سنان باشا، وطالب الإنكشاريون في المجلس المنعقد خصيصًا لسماع ادعاءاتهم بالدعم الجيد للحملة الذي لم يكن ـ كما قالوا ـ كما كان في الحملة على الشرق.

في شباط عام ١٥٩٤ أصدر مراد الثالث أمرًا للآغا الإنكشاري محمد بالانطلاق بالفيلق الإنكشاري إلى بلغراد والانضمام إلى قوات سنان باشا، تشاور الآغا مع الإنكشاريين، لم يكن الموقف سهلاً، فالآغا الإنكشاري ـ بناء على العادات ـ كان لا ينطلق إلى الحملات إلا إذا رأسها السلطان، وهذه المرة لم يكن الأمر كذلك إذ أرسل السلطان مراد الآغا الإنكشاري وحده، كانت هناك حاجة عملية ماسة أرغمت مرادًا على الخروج عن العادات، ولم يكن الإنكشاريون ينطلقون إلى مسرح العمليات الحربية لو لم يرأسهم السلطان بنفسه أو الآغا الإنكشاري، مع ذلك لم ينو مراد الانطلاق بنفسه إلى الحملة، فوضع هذه المهمة على عاتق الآغا الإنكشاري، وفي المجلس اعترض الإنكشاريون على هذا القرار بقوة وصرحوا أن هذا يخالف العادات وأنهم سينطلقون إلى الحملة فقط في حال رأسها السلطان، وبعد أن يدفعوا لهم البقشيش كذلك، هذه المرة نجح الآغا الإنكشاري في إرغامهم على إطاعة الأوامر، أضف إلى ذلك لقد نفذ الإنكشاريون أمر السلطان بإجراء الرماية التدريبية من البنادق على «أوك ميدان»، يظهر أن الدرس الذي تلقّاه جيش البلاط في هزيمة فيشيغراد جعلهم ينفذون واجباتهم الحربية بجدية أكثر.

إن ما حدث من العقوق والعصيان من الجيش الإنكشاري ـ الذي هجر سرداره وأقبل إلى إستنبول بالشكاوى إلى السلطان ـ يسفر عن أن الإنكشاريين لم يفقدوا تصورهم عن خاصية مكانة قواتهم وارتباطهم المباشر مع شخصية الحاكم الأعلى،

ويؤكد ذلك بالدرجة الأولى طلبهم بذهاب السلطان مراد إلى الحملة، وإن اعتراضهم على أن يتولى قيادة الجيش الآغا الإنكشاري نيابة عن السلطان يشير إلى ميلهم للتقاليد والمحافظة على القديم، أي الأنظمة الدولية التي تشكلت في غابر الزمان، كانت تلك هي الأدلة الأولى على تحول الفيلق الإنكشاري إلى قوة اجتماعية سياسية رجعية معارضة لكل ما هو جديد، وذلك في مرحلة من مراحل تاريخ الإمبراطورية العثمانية حين كانت الحاجة ماسة إلى المرونة الاجتماعية والقدرة على التحول، وذلك بغية الرد بالمثل على الموقف السياسي المتغير.

ومع أن الإنكشاريين أطاعوا السلطان لكنهم لم يسارعوا في الانطلاق من إستنبول، فالشتاء لم ينته، لذا فإن زحف المشاة على الطرقات في ظروف الشتاء في غاية العسر، أضف إلى ذلك أن الإنكشاريين كانوا ينتظرون أجورهم والخزينة عاجز عن تنفيذ مهامها المالية، ولم تتمكن الحكومة من تسديد ديونها للجيش إلا في شباط عام ١٥٩٤.

من الظاهر أن الإنكشاريين لم يستعجلوا في خوض المعارك، فبدأوا المحادثات مع السردار فأرسلوا إليه مبعوثيهم ليعلموا منه ما إذا كان في حوزته مال يدفع منه لهم الأجور، رد الإنكشاريون على طلب الآغا الإنكشاري بأنهم لن يبدؤوا الزحف إلا بعد تأكدهم أن السردار قادر على دفع الأجور لهم، أرسل أحد الضباط الإنكشاريين «ياياباشس» ـ الذي كان قادراً على كتابة الأوراق الرسمية ـ إلى السلطان عريضة يطلب فيها دفع الأجور للإنكشاريين، ولما استلم مراد هذه العريضة اضطرب اضطراباً شديداً ظاناً أن الإنكشاريين يطلبون منه قيادة الحملة، ولما علم أن الجيش يطلب أمواله فقط ارتاحت نفسه فلبى طلبه بلا إذعان، أخرج من الخزينة ستين كيساً يحتوي كل منها على عشرة آلاف قطعة ذهبية، وضعت النقود في الصناديق وأوصلت بالعربات إلى سنان باشا في بلغراد، وفي نهاية حزيران حين

انتظر سنان باشا حتى وصل الإنكشاريون تمكن من الانطلاق نحو قلعة تاتا (تاتابانيا) وحاصرها، بعد ثلاثة أيام من القصف المتواصل لأسوار القلعة، فضّلت حاميتها الاستسلام فاستولى الأتراك على القلعة، وهنا عزل سنان باشا الآغا الإنكشاري محمد آغا من منصبه وعين مكانه يمشجي حسن آغا، كان ذلك شيئًا جديدًا في عملية إدارة الدولة، فقبل ذلك كان تعيين الآغا أو عزله من صلاحيات السلطان فقط، فحصلت مخالفتها لأول مرة، أشار ذلك الفعل إلى مناورات جديدة في الفيلق الإنكشاري الذي لم يعد جيش السلطان الشخصي المرؤوس له فقط، وقد مهد ذلك الطريق لتحول الفيلق الإنكشاري إلى جيش مأجور عادي، كما بدأ فقدان الارتباطات الاجتماعية والسياسية الهامة بين الإنكشاريين وشخصية الحاكم التي تشكلت في السابق من كون الإنكشاريين أرقاء، ومن الآن فصاعدًا أضحى الإنكشاريون أحرارًا شرعيًا وأشخاصًا مستقلين عن السلطان.

بعد أن ترك السردار حامية تركية في «تاتا» واستولى على العديد من الحصون الأخرى جاء من مكان الأحداث قبنجي البلاط إلى العاصمة بأخبار سارة، شهدت بداية عام ١٥٩٥ حادثًا هامًا وهو وفاة السلطان مراد الثالث، وفي ٢٧ كانون الثاني عام ١٥٩٥ تولى مكانه ابنه محمد (محمد الثالث) البالغ الثامنة والعشرين من عمره الذي جاء عاجلاً إلى إستنبول من مانيسا.

انعكست الحالة النفسية في الفيلق الإنكشاري على الواقع، وذلك أن الآغا الإنكشاري قد استلم أمرًا بالذهاب إلى بودا، بيد أن مرؤوسيه صرحوا بأنهم سيذهبون إلى بودا فقط مع السلطان، وهكذا لم ير الآغا موافقة الإنكشاريين على الانطلاق من العاصمة فورًا، وهذا ما تذمر منه السلطان وحاشيته، جاء إلى الآغا الإنكشاري بغتة صهر السلطان الوزير إبراهيم باشا وطلب من يمشجي حسن آغا عقد الشورى عاجلاً من مشايخ وأوضة باشي الفيلق الإنكشاري بغرض مناقشة

مسألة جواز مشاركة السلطان في الحملة، حاول إبراهيم باشا أن يرشد الإنكشاريين إلى الصواب، وكان يقنعهم أنه ليس ثمة أسباب جدية تدفع محمد الثالث إلى قيادة الحملة، إن هذا البرهان الذي طرحه الوزير القريب إلى السلطان جدير بالتقدير لأنه يسفر عن تغير كبير في تركيب السلطة العليا التي لم تعد في دور القوة القائدة النشيطة، تلك القوة المتصرفة على السلطة نفسها، بل صارت رمزًا يجسم عظمتها واختيارها من قبل الله.

انتهز الإنكشاريون إرسال الوجيه إليهم من السلطان فقرروا أن يعبروا عن عدم رضاهم من سير الأمور في الدولة عمومًا، من المحتمل أن الإنكشاريين خوفًا من العقاب على سفاهتهم كانوا يبدون رأيهم «غفلاً من الإمضاء» أي بعد إطفائهم الشموع والمصابيح، لقد عبروا عن إدراكهم أسباب الهزائم الحربية التي بدأت، فبرأيهم أن الأسباب كلها تنحصر ضمن مخالفة النظام الأسبق والصارم في تقديم «ديرلك» (التيمارات والزعامات) ولا سيما في المناطق الحدودية حيث كان أصحاب «التيمارات» و «الزعامات» يؤدون خدمتهم العسكرية جيدًا كالسابق، كان هذا النظام سابقًا يشترط انتقال «التيمارات» و «الزعامات» وراثيًا من جيل إلى جيل بين أولئك السباهيين القاطنين على الدوام في المناطق المخصصة لهم الواقعة على الحدود، كما أنهم مستعدون دومًا بأن يجتمعوا وينطلقوا بالجيش القادم من العاصمة بمجرد سماعهم الأمر بذلك، صرح الإنكشاريون أنه في الماضي كان السباهيون الحدوديون الأقوياء يستقبلونهم ثم يحاربون معهم جنبًا إلى جنب بمنزلة «المساعدين»، أما الآن ـ كما زعم الإنكشاريون ـ أضحت الحدود خالية بحيث لم يعد هنالك السباهيون تقريبًا، انتقل أصحاب «التيمارات» و «الزعامات» (ديرلك) إلى أيدي خدم شرفاء العاصمة حيث استقروا بعيدين عن تيماراتهم وزعاماتهم المقدمة لهم، ومن العجيب أن الإنكشاريين لا يقبضون أجورهم في أوانها فأضحوا

عاجزين عن التغلب على العدو من غير هذا الدعم، أعلن الإنكشاريون أن «المبادئ القديمة في دولة أسرة عثمان» قد بدأت تفقد قوتها وأن القوانين لا تنفذ وكل شيء يجري فقط بواسطة الرشوات، وفي آخر الأمر صرحوا أنهم لا يعترفون بالآغا يمشجي حسن قائداً لهم.

إنّ ما يشهد عليه ذلك الخطاب الذي ألقاه الإنكشاريون هو إدراك القمة العسكرية في الفيلق الإنكشاري حالة الأمور في الدولة وعدم غفلتها عن العمليات الاجتماعية التي كان الجيش الإنكشاري جزءاً لا يتجزأ منها فتلك العمليات السائرة - من وجهة نظر الإنكشاريين - بصورة سيئة كانت تمسهم كذلك، كان الجيش الإنكشاري - لا يتجزأ من المجتمع العثماني - معنيًا بالحفاظ على يسْره وبقائه اللذين كانا يعودان إلى يسر ونظام المجتمع برمته، ولهذا السبب بالذات سعت القمة الإنكشارية وراء التأثير في سير العمليات في حياة المجتمع، وحتى بحكم كون خطبة الإنكشاريين دفاعًا عن «النظام» في الدولة نلاحظ أن المجتمع كان يعاني من أزمة، كانت الدولة العثمانية تدخل طوراً جديداً من تطورها، فلا بد أن يصاحب هذا الانتقال عدم الاستقرار الاجتماعي واستياء العقول.

بدأ العمل في إعداد العلف والغذاء لنقل الجيش من العاصمة إلى المجر وتم دفع الأجور الإضافية لجيش الحاشية، كما أرسلت أموال لدفع الأجور لجنود الحاميات الواقعة على الأراضي المجرية، وهناك وفي أثناء دفع الأجور حدث حادث بارز، فقد أعلن عند الوصول إلى بودا أحد أفراد الحاشية القينجي والي آغا المرسل بالأموال أنه لن يدفع الأجور للجنود المسجلين في قوائم الدفاتر بل للجنود الموجودين فقط، فأثار ذلك الإعلان السخط العام، وتعرض الجورباجيون لهجوم الإنكشاريين المرؤوسين لهم، فسلبت منهم أكياس الأموال المعدة للأجور، ووزعت بناءً على العادات؛ أي لكل من هو مسجل في القائمة، ولما علم السلطان ما حدث

عزل الآغا يمسجي حسن من منصب الآغا الإنكشاري، وعين مكانه والي آغا جزاء على محاولته توفير أموال الخزينة وضبط النظام في عملية دفع الأجور للإنكشاريين، تشهد هذه الحادثة أن عدد الإنكشاريين المسجلين في القوائم بصفة الخادمين على الحدود وغيرها يزيد كثيراً على عدد الخادمين حقيقة، وهذا ما أبلغ عنه والي آغا إلى العاصمة مباشرة. من الطبيعي أن الزيادة كان يقبضها الإنكشاريون (كان يعمل في التوزيع على الأغلب الضباط) وبهذه الطريقة يرفعون أجورهم لأنفسهم كما يروق لهم، كان الإنكشاريون بسبب شعورهم بعدم معاقبتهم التامة وضعف رقابة السلطات عليهم يفقدون بقايا مظاهر تمسكهم بالنظام والطاعة، ولم يعد أحد منهم يتحرق شوقًا للاشتراك في الحملة، بل على العكس انتشر على نطاق واسع التهرب عن تأدية المهام العسكرية المباشرة، لما جاء من المجر إلى العاصمة آغا سباهيي الحاشية علي آغا اشتكى أنه من بين عشرة آلاف إنكشاري مخصص لحماية الحدود لم يكد يأتي ألف منهم، كما أعلن أن الإنكشاريين الذين حضروا يظلمون السكان المحليين ويمارسون السلب والنهب، أما الموجودون منهم في إستنبول فلا يعملون إلا بالمضاربة، أي الشراء وإعادة البيع.

كما كان هنالك تذمر غامض في أوساط الإنكشاريين على السلطان لأسباب أخرى، فقد حل شهر رمضان وأقامت الحكومة حملة مكافحة ضد الخمارات «مي خانة» حيث المكان المعتاد والمفضل لجنود جيش البلاط، وعلى الرغم من قداسة شهر رمضان المبارك كان الإنكشاريين يقضون أوقاتهم في الخمارات، وغالبًا ما كانت تشاركهم في ذلك النساء العاهرات، هذه المرة لما حل شهر رمضان قُبض على خمسة من الخمارين وأعدموا كما قضي على كل الخمور التي عثر عليها في «مي خانات» أما أبواب الخمارات فسمرت بألواح خشبية فكان من الطبيعي أن يسخط الإنكشاريون في مثل هذه الحالة على السلطان، فانتقموا من صوباشي الإستنبولي ونهبوا منزله.

حل شهر رمضان والسلطان ما زال يستعد للانطلاق من العاصمة، أقبل إلى العاصمة عدد هائل من أصحاب التيمارات والزعامات والسنجقبيكوات وبيلربيكوات الأناضول المشاركين في الحملة، امتلأت شوارع إستنبول بالناس والخيول، خاف أصحاب الدكاكين من قيام النهب فلم يفتحوا الأبواب، ارتفعت أسعار الشعير المستخدم علفًا للخيل، وأخيرًا انطلق الجيش من إستنبول بأبهة خارقة، وهنا زارت معسكر السلطان السلطانة الأم وغيرها من أفراد الأسرة السلطانية، أبدت شخصية السلطانة السامية ومرافقوها عن كرم سلطاني بقذف النقود الذهبية والفضية الجديدة اللماعة على حشود الإنكشاريين والسباهيين السائرين، انطلق الجيش في ٢١ حزيران عام ١٥٩٦ متجهًا إلى بلغراد، أدى تأخر انطلاق الجيش من العاصمة وبطء زحفه إلى التأخر في حصار «إيغير» إلى أواخر أيلول ١٥٩٦، حلت فترة غير مناسبة لإجراء الحصار إذ كان الجيش يكره ليالي الخريف الباردة، وعند بلوغ «إيغير» أمر السلطان بالاستيلاء على ضواحيها فوراً، وعلى الرغم من ذلك قضى الجيش نهاراً كاملاً في نصب الخيم وضرب المعسكر، وفي الليل ذهب أهل المدينة دون تأخير واحتموا وراء أسوار القلعة، انتهى الحصار بنجاح، لكن لم يتم الاستيلاء إلا على الأسوار الخارجية، أما المدافعون فاختفوا داخل القلعة واستأنفوا المقاومة لعدة أيام أخرى، ولكن في آخر الأمر اضطروا إلى الاستسلام، وعد السلطان بأنهم سيبقون جميعهم على قيد الحياة بيد أن الوعد لم يوف به للجميع، في بادئ الأمر نهب الإنكشاريون المندفعون إلى القلعة حماتها، ولما غادر الحماة القلعة وبلغوا نهاية المعسكر التركي تعرضوا للهجوم وقتلوا جميعاً، هكذا أحرز النصر اللازم للحفاظ على سمعة السلطان، بيد أن الجيش التركي كانت بانتظاره محنة حربية كبيرة غير متوقعة، فقد حاول جيشًا «جيغماند باتوري» حاكم ترانسلفانيا والإمبراطور النمساوي الموحدان توجيه ضربة إلى الجيش التركي المنطلق

من إيغيد، وفي ٢٦ تشرين الأول عام ١٥٩٦ وقعت قرب «ميزيكيريستيش» معركة بين الجيش التركي وبين النمساوي والمجري.

بدأ الأتراك القتال، استمرت المعركة يومين سجالاً، عند ذلك كانت القوات النمساوية المجرية قريبة من النصر، استطاع الأتراك السيطرة على ساحة المعركة والتغلب على الموقف بصعوبة وإجراء الهجوم الناجح، وفي آخر الأمر الانتصار على العدو.

إن الانتصار في معركة «ميزيكيريستيش» - التي كادت تصبح هزيمة نكراء وحيث كاد السلطان يقع في الأسر - لم ينظر إليه أنه حادث حربي فحسب، فوفقًا للنفسية الشعبية التقليدية كان الضعف العسكري من لدن الحاكم يسفر بالدرجة الأولى عن الضعف السياسي، فقد قُدِّرت الأحداث الواقعة قرب «ميزيكيريستيش» من لدن الأقيال أتباع الإمبراطورية العثمانية بأنها تضاؤل ظاهر لجبروت السلطان العثماني، فمن الجدير بالاهتمام أن الهارب من سجن «يدي كوله» أحد أفراد أسرة الإمام اليمني «متاخر» قاد في اليمن انتفاضة ضد الأتراك مصرحًا أن الأتراك بقيادة محمد الثالث قد انهزموا وأنقذوا أنفسهم بالهرب، وكان من عواقب الأحداث الحربية قرب «ميزيكيريستيش» ظهور التركية المتمردين في العراق الذين كان المؤلفون العثمانيون ينعتونهم بقطاع الطرق.

أما الأتراك أنفسهم فرأوا حملة محمد الثالث نصراً بديهيًا، ويظهر أن ظروفها لم يعتن بها الكثيرون، أقيمت في العاصمة - حين عاد السلطان في نهاية كانون الأول عام ١٥٩٦ - حفلات كبيرة مع توزيع الصدقات على الفقراء شكراً لله، أمر الصناع والتجار بإستنبول بأن يزيدوا دكاكينهم وورشهم بالأنسجة الأنيقة، وأشعلت في المدينة الأنوار والزينات، ولكن - كما كان يحدث في غالب الأحيان - عكر الإنكشاريون الابتهاج الاحتفالي، وهذه المرة أعلن الذين شاركوا منهم في

الحملة البحرية على المجر بقيادة محمد الثالث أنهم يستحقون المال «الإنعام» على خدمتهم الناجحة، فلما جاؤوا إلى الديوان امتنعوا عن تناول الشوربة المعدة لهم وطلبوا دفع المال لهم فوراً، فأعلن لهم أفراد الحاشية الذين قاموا بالتفاوض معهم أن أربعة آلاف إنكشاري لم يكونوا في الأسطول ولم يشاركوا في العمليات الحربية، لذا فهم لا يستحقون «الإنعام»، كما أعلم الإنكشاريون بأن الخزينة الفارغة بسبب الحملة تعاني الآن من أزمة شديدة بسبب الجفاف والمحْل، ومن الغريب أن تلك الحجج أقنعت الإنكشاريين فلم يلحوا في طلباتهم، كانت الخزينة فارغة فعلاً، وبعد الحملة على المجر أجري تفقد للدفاتر بغرض استشكاف التذييلات لصالح ازدياد الأجور والعلاوات المقبلة، في بعض الأحيان كانت هذه التفقدات تكشف بعض المخالفات فتتم معاقبة المذنبين فيها، ولكن في غالب الأحيان كانت حماية الأشخاص الكبار تخلص المذنبين من العقاب، لما أخذ محمد الثالث يستعد للحملة الصيفية الجديدة سنة ١٥٩٧ رأى أنه لا بد من مداهنة تلك القوة الرهيبة وهي قوة الإنكشاريين، استُدْعي لمقابلة السلطان في القصر خمسة وعشرون ياياباشي إنكشاري وثلاثون جورباجي بيلوكباشي من الذين وجب عليهم الذهاب إلى الحملة، قدمت لهم بصورة مهيبة عشرة آلاف قطعة ذهبية «على الخيول»، والراجح أن هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي حاول فيها الحاكم الأعلى التأثير بنفسه في الفريق الأوسط من الضباط الإنكشاريين ساعياً نحو تأمين نفسه بضمان إخلاص جيش البلاط له.

في ربيع عام ١٥٩٧ بدأت المفارز النمساوية المجرية نشاطها في اغتصاب القلاع المجرية التي يتولى عليها الأتراك، تعرضت للحصار «بست» و «تيميشفار» وظهرت في الحاميات التركية الفوضى وعدم الانضباط كما كانت معنويات الجنود ضعيفة جداً، كان إنكشاريو الحاميات الذين يعانون باستمرار من نقص في الأطعمة يعبرون

عن سخطهم بالتمردات، وهكذا هجم الإنكشاريون الخادمون في حامية «إيغير» المحتلة على قائدهم بأجمعهم وقتلوه، لأنه لم يوفر لهم الغذاء، وبعد مقتل قائد الحامية عرض الضباط الإنكشاريون على الآغا الإنكشاري مليون آقجة لكي يعين مكان القائد المقتول صديقهم اليايباشي واسمه درويش، أبلغ الآغا الإنكشاري طرنقجي حسن آغا السلطان بذلك فأمر محمد الثالث بعزل كل دافعي الرشوات عن مناصبهم، إن هذه الحادثة بالغة في الدلالة، ومن البديهي أن كبار ضباط الفيلق الإنكشاري لم يكونوا يعيشون في فقر على خلاف الجنود، فلذا كان في وسعهم دفع رشوات كبيرة لرئيس الفيلق، ومن البديهي كذلك أن الفضل في الرفاهية المادية التي يتمتع بها الضباط لم يكن يعود إلى الصدق في تنفيذ واجباتهم العسكرية، في الواقع كان اليايباشي والجورباجي الإنكشاريون يحاولون علي الدوام بأن يرأسهم قائد يناسبهم، فيسترون بذلك اختلاساتهم التي غدت مألوفة.

في مرحلة الحملة الصيفية عام ١٥٩٧ وقع المسرح الأساسي للعمليات الحربية على المجر، فبعد أن توحد جيش سطرجي محمد باشا قرب بلغراد مع القوات السباهية الأناضولية والروميلية اتجه في البداية نحو «ديير» (رآب) المحاصرة من النمساويين، ولكن بعد فترة وجيزة انتشر خبر أن الحامية التركية في «ديير» قد أجرت العديد من الانطلاقات الناجحة من القلعة ضد العدو وأرغمته على الانسحاب عن أسوارها عندئذ أمر السردار بتوجيه الجيش نحو قلعة «تاتا» (تاتابانيا) المحتلة من النمساويين، فلم يبلغها الأتراك إلا في ٨ تشرين الأول عام ١٥٩٧، ذهب كل الصيف في جمع الجيش والزحف ومراجعة قرار تحديد مكان اللقاء بالعدو، لم يؤد قصف أسوار «تاتا» والأنقاب التي حفرت والانفجارات التي أحدثت إلى أية نتيجة، كل الثغور التي ثلمت كانت عالية؛ الأمر الذي حال دون تحقيق الانقضاض الناجح، وجرت عدة محاولات لاقتحام القلعة وانتهت كلها

بالإخفاق إذ إن المدافعين عن القلعة كانوا يرمون الحجارة والقنابل على المقتحمين بدقة . في الماضي لم تكن الثغور العالية ونيران المدافعين عقبات أمام الجيش التركي ، أما الآن فصارت هي تبريرًا لعدم نجاحهم في الحروب ، بيد أن صيت الأسلحة التركية ما زال عاليًا ، فمن المحتمل أن المدافعين عن «تاتا» أحسوا بأن ليس بوسعهم أن يقاوموا فترة طويلة ، فغادروا بغتة القلعة بأنفسهم ليلاً ، بقي الأتراك يطاردونهم حتى «كامورف» لكن لم يتمكن فرسان البيلربيه الأناضولي محمد باشا إلا من قتل عدد قليل من الهاربين أو أسرهم .

قضى الجيش التركي في «تاتا» بضعة أيام أصلحت في غضونها أسوار القلعة وحيطانها ونالت الحامية التي بقيت في المدينة قدرًا كافيًا من الغذاء ، كما كلفت بحماية القلعة ، بيد أن أبناء الإنكشاريين ـ الذين كلفوا بحماية القلعة ـ جاؤوا إلى السردار وصرحوا أن فترة خدمتهم في الحاميات قد مضت وأن الأوان قد حان لالتحاقهم بالخدمة الإنكشارية العاملة ، استطاع السردار بصعوبة بالغة تهدئتهم وإقناعهم بأن يخدموا في القلعة سنة إضافية ، كما كافأهم بعلاوة على أجورهم قدرها ٢ آقجة ، وهذا ما جعل جنود الحامية أكثر طوعًا ، في الوقت نفسه أرسل طلب تسجيلهم في قوائم الإنكشاريين إلى إستنبول ، ويكشف ذلك البلاغ عن أن التجنيد للخدمة في الحامية لم يكن للإنكشاريين وحدهم بل كذلك لأبنائهم المنتظرين تسجيلهم في قوائم جيش البلاط .

أثار النحس في الجيش وفشل السياسة الحربية الأقاويل بين جنود العاصمة من الذين لم يشاركوا في العمليات الحربية ، كان الإنكشاريون يجتمعون في مقاهي المدينة ويناقشون أسباب سهولة الانتصارات الغابرة في المجر التي ظفر بها السلطان سليمان ، وهزائم الأتراك المتوالية في الآونة الأخيرة ، الكل كانوا يفسرون ذلك على نمط واحد وهو امتناع السلاطين عن المشاركة في الحملات ، كان يقول أغلبهم إنه في

ربيع عام ١٥٩٨ لا بد من الانطلاق إلى الحملة ضد ڤيينا بكل الجيش وتحت قيادة السلطان، بيد أن محمد الثالث اكتفى لآخر عمره بالمرارة التي تذوقها في المعركة قرب «إيغير» و «ميزيكيريستيش»، ولما علم بالشائعات في أواسط الجيش عن مشاركته المحتملة في الحملة الحربية أسرع بدحضها، كانت سلطة السلطان المتشكلة والراسخة قادرة على أن تؤدي وظيفتها دون العملية التي كانت مهمة في السابق وهي قيادة الجيش كما كان الحال في الأطوار الأولى من تاريخ التنظيم الدولي العثماني، بيد أن السياسة الحربية النشطة ما زالت من ضمن الأفكار الأساسية لتنظيم السلطة العليا، في غضون ذلك فإن ازدياد تكاليف خوض الحروب والقدرات المالية المحدودة لدى الحكومة رسخت مشكلة النقد في الخزينة الفارغة دومًا ولا سيما في فترات دفع الأجور للجيش.

في ظروف الحملة الصيفية الطارئة عام ١٥٩٨ أبدى الجيش من جديد عيوبه التي صارت مألوفة، كان بطء تقدم الجيش وتثاقله يحرمان الأتراك من فرص الانتصار في الحروب، وفي ١٤ تموز عام ١٥٩٨ انطلق من المجر السردار التركي سطرجي محمد باشا بجيشه من بلغراد، كالعادة استغرق أيامًا طوال بناء جسر على الدانوب بغرض عبور الجيش التركي، كان الجيش يطيل توقفاته في المقامات، أما في «بيتشكيرا» فقضى الجيش أربعة وخمسين يومًا ريثما جاء جيش الخان التتري.

انتهز النمساويون ذهاب الجيش التركي فاحتلوا «تاتا» وحاصروا قلعة «بالوتا»، فاضطر السردار إلى أن يرجع الجيش إلى المجر بقيادة سنجقبيه «سيميديريفو»، وفقط في ٢٠ آب عام ١٥٩٨ التقى أخيرًا جيش سطرجي محمد باشا بالخان التتري غازي غيراي، ووقعت أمام الجيشين عمليات موحدة ضد ترانسلفانيا جيغماند باتوري، أقر في المجلس العسكري - الذي انعقد - الزحف نحو قلعة «فاراد» وبعد احتلالها القيام بغارات تأديبية على الأراضي الترانسلفانية.

كان الجيش التركي يتقدم إلى الأمام ببطء شديد، دخلت المفارز التركية الطليعية بغير قتال قلعة «آراد» التي غادرها مدافعوها، في غضون ذلك حل موسم الأمطار فعبر الجيش نهر «ماروش» بصعوبة بالغة، وهنا بالذات اتحد جيش السردار مع مفارز السباهيين القادمين من ولاية أرضروم بقيادة البيلربيه مصطفى باشا، بهذه الوتيرة البطيئة من النفير كان من الصعب تنظيم قوة الجيش، ففي السابق كانت سرعة النفير من العوامل الرئيسية التي كانت تضمن ازدياد القدرة القتالية لدى الجيش العثماني، ولما اقترب الجيش من أسوار «فاراد» أقبلت مفارز سباهيي «وان» بقيادة يوسف باشا، وبالقرب من أسوار «فاراد» بدأت القوات التركية وليس سكان المدينة ـ خلافًا للمتوقع ـ تعاني من نقص في الأغذية، ولولا مساعدة التترـ الذين كانوا يقومون بغارات فيحصلون بذلك على بعض الأطعمة ـ لكانت حالة الجيش التركي لا تطاق، في آخر الأمر اضطر الأتراك إلى مغادرة أسوار فاراد، واتجه الجيش ببطء نحو بودا وهو يعاني من مشقات المسير، أما الجسر الذي كلف ببنائه بيلربيه تيمشفار، فلم يكن مبنيًا، وعبرت أنهر كثيرة بصعوبة بالغة وبخسائر كبيرة، فمات كثير من الجنود الأتراك بسبب الأمراض وقلة الطعام.

لما بلغ الجيش «سولنوك» وجد أنها أيضًا خالية من الأطعمة التي ترقبوها، عندئذ رفع الإنكشاريون تذمرًا، ولما وجدوا على ضفة «تيسا» سفنًا خالية معدة لنقل الغذاء طلبوا من السردار بأن ينتقلوا إلى بودا على هذه السفن وليس برًا، كان الشيء الأهم بالنسبة للجنود هو إمكانية تجنب الزحف الشاق على البر، فتسلح الإنكشاريون بالعصي والحجارة واندفعوا بحشدهم إلى خيمة السردار وكادوا يقتلونه لولا تدخل الضباط الذين أنقذوا سطرجي محمد باشا من الموت، بعد ذلك نهبت خيمة الدفتردار. رفض الإنكشاريون رفضًا قاطعًا الذهاب إلى بودا فبعثوا براياتهم الحربية إلى «سيغيدين» على الطريق المؤدي إلى بلغراد، لم يجرؤ السردار

على دخول خيمته خوفًا من الهجوم الجديد فخضع لقرار الإنكشاريين وأمر بالذهاب نحو «سيغيدين»، وفي آخر الأمر تمكن الجيش من التزود بالأطعمة، ولحسن حظ السردار رفع النمساويون حصار بودا واكتفوا فقط بنهب ضواحيها، وفي بلغراد استدان سطرجي محمد باشا المنحوس مالأمن السكان الأغنياء والتجار وبهذا الشكل دفع الأجور لجيش البلاط، وهكذا انتهت الحملة الصيفية ١٥٩٨ بهوان شديد يحدث لأول مرة في تاريخ الحروب التركية.

شهدت الهزائم الحربية في البلقان مع ازدياد الحركات ضد الحكومة في الأناضول (انتفاضة قاره يازجي وديلي حسن في الفترة الممتدة ما بين ١٥٩٩-١٦٠٣) على حلول الانحطاط في الدولة العثمانية، عبر شيخ الإسلام سن الله أفندي عن الأمزجة الاجتماعية في مواعظه التي ألقاها في عيد المولد النبوي الشريف في مختلف مساجد إستنبول، لقد استنكر بحدة التهاون في أصول الإيمان وانتشار نظام الرشوات وانخفاض سعر العملة وحالة الأمور في القصر السلطاني، حيث تولى السلطة النساء والطواشية، دعا شيخ الإسلامي إلى إجراء تدابير حاسمة بغية إصلاح كل ما فسد من أمور الدولة، خلقت الحالة المتأزمة في المجتمع ردة فعل العلماء التي ساعدت على ترسيخ نشاطهم الاجتماعي وازدياد نفوذهم بين رعايا السلطان المسلمين الذين حاول الدفاع عن مصالحهم رجال الدين الإسلامي، في أعقاب تشرين الأول عام ١٥٩٩ اجتمع علماء العاصمة في بيت الوزير خليل باشا لمناقشة حالة الأمور في الدولة، قدر العلماء المجتمعون الأمور أنها سيئة وشجبوا الوجهاء الغارقين في الرشوات والعاجزين عن حل قضايا الدولة، قرئت في المجلس الشكاوى والطلبات الواصلة إلى العاصمة من المحافظات التي احتوت على الدعوة إلى وضع حد لمخالفة القوانين والضرائب الطارئة التي عدت منذ بداية عهد محمد الثالث سنوية، وأشار العلماء كذلك إلى خلو الخزينة من المال وإفلاس

الإقطاعيين السباهيين المرغمين على مدى السنوات العشرين الأخيرة على المشاركة في الحملات، كما نوقشت في المجلس فاقة الفلاحين بسبب كون الضرائب فوق قدرتهم.

كشف التمرد في الأناضول والانتفاضات ضد الأتراك في البلقان عن أزمة السلطة التي كانت تعاني منها الدولة العثمانية، والتي أظهرت عدم قدرة البنية الحربية الإقطاعية القديمة على أن تكون سنداً للأسرة الحاكمة كالسابق، لقد اختل التوازن في مصالح الإقطاعيين السباهيين والسلطة العليا وصار السلطان وجهازه الإداري غير قادرين على ضمان الحماية لمصالح الدولة.

لقد انعكست تلك الأزمة في عقلية جزء من الطبقة الوسطى من بيروقراطية العاصمة ذات الاتجاه الوطني، وطبقة العلماء الذين أحسوا بحدة الخطر من عدم الاستقرار الاجتاعي، بدأ المجتمع العثماني يدخل مرحلة تحطم بنية الدولة الطبقية المبكرة بمظهرها البدائي، حين تشكلت في مرحلة ظهور تنظيم الدولة التركية ونضجها، وكانت أسباب الأزمة التناقضات بين أهداف سياسة السلطة ـ التي لم تتغير كثيراً ـ ومصالح الجزء الرئيسي من الطبقة السباهية السائدة ـ التي تغيرت في سير عملية التطور الاجتماعي ـ وكذلك جيش البلاط الذي بدأ يفقد ارتباطاته التقليدية مع السلطة العليا ويكتسب مصالحه الخاصة المستقلة عن مصالح السلطة، إن هذه الأزمة المدعمة بعجز الميزانية التي لم تدركها القمة الحاكمة لم تؤثر كثيراً في تصورات الوعي التقليدي التي رسخت في ذهن المجتمع منذ أبكر العصور وحافظت على عناصر إديولوجية الدولة المعهودة ومن ضمنها الفكرة التي هي جزء لا يتجزأ عن هذه الإديولوجية وهي فكرة التوسعات المستديمة وفكرة نشر الإسلام فقط في حال تأييدها بفكرة الجهاد، إن إنجاز هذه الأفكار في ظل تغير الظروف

السياسية على الصعيدين الداخلي والخارجي كان يزيد من الأزمة السياسية العامة في السلطة المركزية التي بقيت وظيفتها الحربية من جملة وظائفها الرئيسية، وبغض النظر عن العجز في تمويل خوض الحروب بقي السلطان ومقربوه يحاولون الحفاظ على القدرة الحربية في الدولة وتقوية الجيش النظامي، وكان مثل هذا الاتجاه السياسي يحول دون إنتاج كمية لازمة من المنتوجات الوطنية تستنزف باستمرار الموارد المادية في الدولة.

في الفترة الممتدة ما بين العامين ١٦٠٠-١٦٠٢ كانت القوات التركية تخوض المعارك سجالاً في المجر التي ما زالت محمية من قبل النمساويين، استمرت العمليات الحربية في ظل اشتداد الأزمة المالية في الدولة العثمانية وتمردات جيش البلاط بسبب عدم دفع الأجور لهم.

في شتاء عام ١٦٠٢ قابلت إستنبول الإنكشاريين العائدين من المجر الذين سرعان ما أظهروا حدَّة مزاجهم، فناقشوا بحضرة الآغا الإنكشاري علي والجنود السباهيين أحوال الأمور في الدولة وقرروا أن يتصرفوا فوراً، أثر كثير في عقلية الإنكشاريين خبر نجاح ثورة ديلي حسن، في ١٣ كانون الثاني عام ١٦٠٣ طالب جيش البلاط باستقالة قائم المقام «سأتشي حسن باشا» الذي اتهموه «بسوء إدارته للقضايا»، وعين السلطان مكانه قائم المقام غوزبجي محمود باشا، أما سالفه فذهب إلى سجن «يدي كوله» ومع ذلك غضب السلطان من تدخل الإنكشاريين في أمور الدولة فعزل الآغا الإنكشاري علي وعين مكانه أحد أفراد الحاشية القدامى البستانجي فرخاد آغا الذي نعتوه على عنفه وقسوته بـ«ديلي» (أي المجنون)، كما دفع ثمن منصبه على هذا التمرد شيخ الإسلام محمد أفندي الذي تولى مكانه سن الله أفندي، بدا أن الأمور ستنحصر ضمن التغييرات في المناصب التي سترضي

الإنكشـاريين، لكن هذه المرة سلكت الأحـداث طريقًـا آخر وبدا أن الإنكشـاريين يتصرفون على ضوء ما رسموه سابقًا من الخطط أي بدأب وتوجيه، في ١٦ كانون الثاني عام ١٦٠٣ جاء الإنكشاريون إلى مجلس الديوان الحكومي وأعلنوا عن عدم رضاهم ممّا يفعله وزراء السلطان، وقد تساءل الإنكشاريون أكان السلطان على علم بما يحدث في دولته أم لا، تكاد تكون هذه أول مرة يتقدم فيها الإنكشاريون بتأنيبهم لسياسة الحكومة على ضوء مصالح الدولة كلها، استنكر الإنكشاريون والسباهيون الرشوات التي صار لا يستغنى عنها في عملية التعيين في المناصب، وقد رأوا في ذلك سببًا وحيدًا لإفلاس الدولة والاضطرابات التي شملتها، والحرب الأهلية التي نشبت ووسعت نيرانها في الأناضول، أنبأ جنود «قابقولو» السلطان عن مخالفات القوانين التي يرتكبها في محافظات الأناضول خدم نوابه والمتمردون، وعبروا عن ارتباكهم من ضعف سردارات القوات الحكومية الذين يتوجب عليهم مواجهة المتمردين، لقد اتهموا الديوان بالظلم في عزل السردار محمد باشا الذي هو أول من أرسل ماضيًا للكفاح ضد قاره يازجي العاص، طالب جنود جيش البلاط بمراجعة جدية لأمور الدولة وإجراء تدابير فورية من الحكومة، ولكي يوصلوا ادعاءاتهم إلى السلطان مباشرة أخرجوا بالقوة عرش السلطان الذي كان على محمد الثالث الجلوس عليه على مرأى الجميع، اتهم الإنكشاريون في كل المصائب التي داهمت البلاد اثنين من محبوبي السلطان يتمتعان بنفوذ عال في البلاط، وهما «غازينفير آغا» (كابو آغاسي) وعثمان آغا (قيزلار آغاسي أو دار السعادت آغاسي) وبعد أن وجد السلطان نفسه في موقف لا خلاص منه، وقد اعتراه الخوف أمام الإنكشاريين والسباهيين المتوحدين، وافق على إعدام هذين الاثنين من محبوبيه.

أضحت التبدلات في المناصب في القمة الحاكمة خاضعة لرغائب الجيش المأجور وسخطه على ما تفعله الحكومة، وتدخله السافر في أمور إدارة الدولة

مقدمة لسلسلة من الأحداث التي حدثت فيما بعد على مدى القرن السابع عشر وحتى الثامن عشر، كان الحدث الأول من هذا دليلاً من دلائل أزمة السلطة العليا إذ ظهر على المسرح السياسي جيش البلاط على غرار القوة الاجتماعية المستقلة والقادرة فيما بعد على أن تؤثر في سير التطور الاجتماعي في الدولة، ظهر أن جيش البلاط قادر على أن يأخذ على عاتقه هذه الوظيفة الاجتماعية نتيجة تطوره وكونه تنظيمًا خاصًا في البنية الاجتماعية، ونتيجة عمليات الارتقاء في الدولة العثمانية نفسها، في مطلع القرن السابع عشر لم يكن بمستطاع أحد إلا الجيش النظامي بوصفه قوةً موحدة ومنظمة في فترات الأزمات أن يبتّ في حلها ليس من أجل مصالحه الخاصة فحسب بل لمصلحة كل الدولة، لما كان الجيش ماضيًا يتقدم بطلباته السياسية لم يكن له دور مستقل إذ كان مجرد أداة بيد بعض ممثلي القمة البيروقراطية، في مطلع عام ١٦٠٣ برز الجيش قوةً سياسية مستقلة معبراً عن مصالح المجتمع كله لكونه معنيًا ككل المجتمع بإعادة تأسيس النظام وسلطة القانون في البلاد، إلى جانب ذلك أظهر خطاب الإنكشاريين والسباهيين ضعف السلطة العليا التام في مواجهة الجيش، ولم تكن في البلاد قوة قادرة على مواجهته، في تلك الآونة كانت السلطة العليا معتمدة على جماعة النخبة من أفراد الحاشية الذين كانوا في الواقع يمثلون السلطة التنفيذية في البلاد أمام الحكومة النافذة اسميًا فقط.

أثبتت الأحداث التي وقعت في العاصمة فيما بعد أن القوة الحاسمة في الدولة صارت بيد جيش البلاط، فالسباهيون المتجاسرون طلبوا عزل السردار القادم إلى إستنبول «يمشجي حسن باشا» الأمر الذي خلق سلسلة كاملة من الأحداث شارك فيها الإنكشاريون، فالسردار الذي وجد فيهم دعمًا وتأييدًا له أثار تضادًا بين قسمين من جيش البلاط وقف خلفهما جزء من القمة الحاكمة، وقد انتصر القسم الذي أيده الإنكشاريون، أما السلطان ـ الذي كان يخشى الإنكشاريين أكثر قليلاً من خشيته

السباهيين المتمردين ـ فأصدر أمرًا بنفي السباهيين المتورطين في التمرد من العاصمة إلى أبعد الحاميات، قرأ ذلك الأمر أمام صف من حرس الخيالة، بيد أن السباهيين أعلنوا بصوت واحد بأنهم لن يكشفوا عن أصحابهم المذنبين في الفتنة، أما شيخ الإسلام الجديد مصطفى أفندي المتولي مكان سن الله ـ الذي كان بزمانه يؤيد مطالب السباهيين ـ فأظهر هذه المرة حزمه وقال للقواد السباهيين إنه في حال عدم الكشف عن محرضي الفتنة فسوف يعاقب حرس الخيالة كله، أحرز النصر النهائي الإنكشاريون وراعيهم، هدد كلّ السباهيين بطردهم من صفوف الحرس، من الطبيعي أن مصطفى أفندي بأفعاله الحازمة هذه كان يهدف أولاً الدفاع عن نفسه وعن منصبه العالي الذي تولاه للتو وهو منصب مفتي الدولة، أظهرت الأحداث التي وقعت بكل وضوح للطبقة العليا من البيروقراطية العثمانية تلك السهولة التي كان من الممكن استغلالها في النزاع الداخلي بين أقسام جيش البلاط، وقد شارك في ذلك النشاط الداخلي بنجاح ممثلو درجات المقامات الإسلامية العليا.

في شتاء عام ١٦٠٣ تورط الإنكشاريون من جديد في النزاع على السلطة الذي انتشر في أواسط القمة الحاكمة نتيجة تزايد نفوذ الصدر الأعظم يمشجي باشا، إن ازدياد نفوذ الصدر الأعظم على أمور الدولة والسلطان نفسه لم تكن ترضي «كاماريليا»[1] القصر التي أضحت معارضة سافرة للسلطة الرسمية، وقد كان في ذلك دور كبير للسلطانة الأم الفينيسية الأصل التي استطاعت أن تزيد من نفوذ القصر على أحوال الدولة، استدعى لمساعدة «كاماريليا» القصر الآغا الإنكشاري الذي صرح عن العلاقة الوثيقة الزائدة بين الوزير الأعظم والإنكشاريين، وهذا أكثر ما كان يخشاه محمد الثالث، فأمر بعزل الوزير الأعظم، وبعد فترة وجيزة نال

(١) كاماريليا: من الإسبانية Camarilla : مجموعة من أفراد الحاشية ذوي النفوذ الذين كانوا يؤثرون بدسائسهم في أمور الدولة لأغراضهم الخاصة. المعرب.

حسن باشا ـ الذي كان فعلاً مؤيداً من الإنكشاريين ـ أمراً بتسليم ختم الوزير الأعظم، فبلغ الوزير ذلك فوراً لكبار ضباط الفيلق الإنكشاري، فحاول الأخيرون من جديد إنقاذ حليفهم فانطلق حشد من الإنكشاريين إلى شيخ الإسلام وقاضي العسكر يطالبون بإعادة حسن باشا إلى منصبه، وهددوا بإحراق بيوت الشاكسين وقتل البعض منهم إن لم يُلبَّ طلبهم، فظفروا بكتابة رسائل رسمية في هذه القضية أرسلها العلماء إلى محمد الثالث، وفي الصباح أقبل الإنكشاريون إلى قصر السلطان دون أن ينتظروا جواباً منه وعبروا عن رغباتهم من جديد عن طريق أغوات القصر، بعد برهة أقبل إلى القصر شيخ الإسلام وبعض الشيوخ الذين التقوا الآغا الإنكشاري الجديد أحمد آغا الذي عين في منصبه ليلاً، فضل السلطان استعمال الطريقة المجربة، وأخذ الضباط موقف التسامح تحت تهديد طردهم من الفيلق الإنكشاري، عبر الضباط عن حق السلطان وحده في حل قضايا تعيين الوزراء وعزلهم وأقنعوا الإنكشاريين بأن يخضعوا لقرار السلطان، أما يمشجي حسن باشا الذي ثبتت عليه تهمة العلاقات غير القانونية مع الفيلق الإنكشاري فقد أعدم.

في كانون الأول عام ١٦٠٣ توفي محمد الثالث فتسلم العرش السلطان الفتي أحمد الأول الذي لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، بدا أن السلطان لصغر سنه لن يتمتع بسلطة حقيقية لفترة ما، بيد أن السلطان الجديد كان يتصرف بحزم وعلى ما يبدو دون أن يتعلق بأحد متخذاً تدابير قاسية ضد الوجهاء المذنبين، على مدى العام الأول من حكمه كان كبار الوجهاء المذنبون يعدمون واحداً تلو الآخر، يشير مدونو التاريخ العثمانيون إلى أن السلطان الفتي كان يقف خلفه أستاذه المعلم الذي كان له نفوذ كبير عليه، من المحتمل أن الأستاذ كان يسعى إلى إعادة هيبة السلطان وقدرته على ضبط النظام في الدولة بشتى الوسائل، ويمكن أن نلاحظ ذلك من خلال

الواقع بأن أخا أحمد الأول مصطفى لم يُعدَم، غير أنه كان محكومًا عليه بالعيش في «قفص» القصر، استرجع أحمد من خلال إحيائه الصفة التقليدية للحاكم: عادة ذهاب السلطان إلى الصيد، معيدًا إلى الأذهان فكرة رجوع «الأزمان القديمة والطيبة»، وما يشهد كذلك على سعي أحمد وراء إعادة التقاليد المنسية ذهابه إلى بروصا في أول صيف من حكمه، كانت لزيارته العاصمة القديمة للدولة العثمانية وقبور الأجداد المحاربين أهمية رمزية هامة وفي هذا دليل على رغبة السلطان الجديد في إحياء الروح القتالية الغابرة في الدولة، كل هذه الأفعال كانت رد فعل على الوضع المتأزم الذي أدركته القمة الحاكمة والذي يشهد بوضوح على ضعف السلطة العليا والتراكيب الإدارية التقليدية للحكم المركزي.

كان أحمد الأول في سعيه إلى تعزيز سلطة السلطان مؤيدًا بقوة من طبقة العلماء المحافظة على الإديولوجيا التقليدية للدولة، وبما أن العلماء كانوا يشعرون أكثر من غيرهم بخطر أزمة السلطة المركزية رغبوا بالدرجة الأولى في أن تتعزز سلطة السلطان الشخصية، فحاول أحمد الأول بمساعدتهم ومساندتهم التخفيف من قوة ونفوذ «كاماريليا» القصر، فعزل بعض الأغوات من ذوي النفوذ من مناصبهم من الذين كانوا يخدمون لدى والده، كما نفى إلى «القصر القديم» ـ بحكم العادات ـ جدته والدة السلطان الراحل.

في الفترة الممتدة ما بين العامين ١٦٠٤-١٦٠٦ استأنف الأتراك حروبهم في الغرب ضد النمساويين منتهزين التنافر الذي حل في الحلف النمساوي المجري، فقد نضجت في المجر العقلية المضادة لأسرة غابسبورغ ما سهل للأتراك تسيير العمليات الحربية على الأراضي المجرية.

في تشرين الثاني عام ١٦٠٦ عقد رودولف الثاني غابسبورغ وأحمد الأول معاهدة سلام لمدة عشرين سنة، وهكذا شهد عام ١٦٠٦ بداية مرحلة الاستقرار

النسبي في العلاقات النمساوية ـ التركية التي غدت جذرية في المواجهة بين العالم الإسلامي والمسيحي في أوروبا، اضطر الأتراك إلى أن يحشدوا كل قواتهم العسكرية لفترة طويلة في الشرق حيث بدأت منافسة سياسية مديدة مع الشاه الصفوي عباس الأول وحيث نشبت موجة الحركات الشعبية بقوة جديدة، يمكن أن نقول إن العام ١٦٠٦ نقطة انطلاق العصر الجديد في تاريخ الإمبراطورية العثمانية الذي تميز بتوقف الفتوحات، جرت محاولات عدة في الإمبراطورية العثمانية لإحياء السياسة التوسعية على مدى القرن السابع عشر بأسره، لكن هذه المحاولات لم تظهر عمليات التطور القادم لنظام الدولة التقليدي بل كانت نوعًا من «قوة الاستمرار»، بدأ أصحاب التيمارات وجيش البلاط الذين كانوا في السابق الداعم الأول لسياسة الفتوحات بدؤوا يقللون من عنايتهم بالحروب.

كانت الوقائع تسفر بكل وضوح عن ضعف الآلة العسكرية لدى الإمبراطورية العثمانية، وقد بان ذلك على وجه الخصوص من خلال الحرب المديدة مع إيران، برز الجيش التركي كله بما فيه الفيلق الإنكشاري بصورة سيئة من وجهة النظر الحربية، وبموجب معاهدة إستنبول السلمية (١٦١٢) اضطر الأتراك إلى التنازل لعباس عن الأراضي التي احتلوها فيما سبق، خططت الحدود بين إيران والإمبراطورية العثمانية كما كانت عام ١٥٧٨، ظهر ضعف الجيش التركي كذلك في غضون الحرب بين الإمبراطورية العثمانية وبولندا المورطة في حرب الثلاثين سنة (١٦١٨-١٦٤٨) التي عمت أوروبا برمتها.

إن الحملة على بولندا تثير انتباهًا خاصًا بصدد المحاولة الأولى لإجراء الإصلاح العسكري في الدولة العثمانية، لقد أحيا ابن أحمد الثاني عثمان الثاني الطموح والهمام عادة قيادة السلاطين للجيوش، في ربيع عام ١٦٢١ اتجه عثمان الثاني بجيش ضخم نحو الحدود البولندية من غير أن يتوقع العواقب التي ستجلبها الحملة

الخوتينية له نفسه بوصفه حاكمًا، سلك الجيش التركي الطريق المؤدي إلى قلعة «خوتين» التي يتولى عليها البولنديون، ولما توقف الجيش للاستراحة أعلن السلطان أنه سيمنح الإنكشاريين «الإنعام» المالي وقدره نصف قرش للفرد، أراد السلطان بهذه الطريقة الغامضة أن يجري لهذا الجيش الضخم المأجور الاستعراض «يوقلامه» الذي لم يحدث منذ أمد طويل، لأجل الحصول على المال اضطر الإنكشاريون إلى أن يتفقدوا أمام السلطان، ومن الطبيعي أن هذا قد فضح الأشخاص الذين تهربوا من المشاركة في الحملة، وقد تيقظ الإنكشاريون لهذه الحيلة المدبرة من السلطان لكونها منافيةً لخلقهم، في آب دنا الجيش التركي من «خوتين» ونصب معسكره مقابل موقع الجيش البولندي على بعد ميل واحد منه أي إن الجيشين كان في استطاعتهما أن يراقب أحدهما الآخر وأن يرى أحدهما كل ما يجري في معسكر الآخر، كان في حوزة الجيش التركي حوالي ٢٥٠ مدفعية ومن ضمنها أربعة مدافع كبيرة العيار، استمر القتال عدة أيام سجالاً، وكانت الخسائر في كلتا الجهتين كبيرة، اضطر المقاتلون الأتراك، ولا سيما المشاة الإنكشاريون والخيالة السباهية، إلى الانسحاب عدة مرات تحت ضغط العدو، لم يحرز الأتراك في هذا القتال النصر المرغوب، كان عثمان الثاني خائبًا ويائسًا من الأحداث الواقعة قرب خوتين، لم يُخفِ السلطان عدم رضاه بصورة خاصة من أفعال المشاة الإنكشاريين، ففي ظل التصور الراسخ في ذهن الأتراك أن الجيش مصدر الشجاعة الشخصية اللازمة للانتصار في القتال، وينبغي تقدير تصرفات الإنكشاريين بمدلول واحد، بقي عثمان متأكداً من أن الإنكشاريين لم يظهروا حرصًا وشجاعة كما يجب وأن هذا هو سبب الهزيمة.

بقي عثمان الثاني على هذا الانطباع دون علم ـ لعدم وجود العلوم الحربية ـ بالأسباب الحقيقية للهزيمة، فعزم على إنجاز مشروع بات محاولة أولى للإصلاحات

العسكرية في الدولة العثمانية، قرر السلطان تبديل القوات الإنكشارية الضعيفة في العاصمة بالتشكيلات الإنكشارية المرابطة في مصر وتعزيزها بمفارز جديدة من الرماة والمشاة والفرسان الذين بدأ تجنيدهم في الأناضول، جرى التجنيد في دمشق وحلب خوفًا من إثارة إنكشاريي العاصمة، في ذلك الوقت كان الرأي السائد أن الإنكشاريين جمهور منحل من الجنود غير القادرين على خوض العمليات الحربية، قرر السلطان لكونه يعرف قوة جيش وانضباط البلاط في العاصمة حق المعرفة أن يتصرف بكل حذر محاولاً ألا يثير شكوك الإنكشاريين، وبما أن عثمان لم يكن بمقدوره حل الفيلق الإنكشاري قرر أن ينتقل بنفسه من العاصمة إلى القاهرة ليصبح أقرب إلى الجيش المأجور ذي القدرة القتالية العالية برأيه، كان تحقيق هذا التدبير صعبًا للغاية، ولكي يبرر السلطان رغبته في الانتقال إلى القاهرة زعم أنه سيسافر لأداء فريضة الحج، كانت هنالك تعليلات أخرى لهذه «الجولة الآسيوية» فعبر السلطان عن رغبته في قيادة الكفاح المسلح ضد ثورة الدروز تحت قيادة فخر الدين الذي أعلن استقلاله عن سلطة السلطان العثماني، خمن رجال الدين الإسلامي الأهداف الحقيقية من نوايا السلطان فعارضوها، لكن عثمان بقي مصممًا، فنقل في آيار عام ١٦٢٢ من إستنبول إلى الضفة الآسيوية من البوسفور إلى منطقة «أكسودار» خيمته وغيرها من معدات السفر، في مثل هذه الظروف بقيت هنالك وسيلة وحيدة لإيقاف السلطان، أعلن شيخ الإسلام في فتواه أن وظيفة الحاكم هي الوجود المستمر في العاصمة وممارسة القضاء، في غضون ذلك انتشرت في العاصمة شائعات أن حج السلطان ليس إلا ذريعة لا أكثر، أما نواياه الحقيقية فهي نقل العاصمة إلى القاهرة، كان الوجهاء وخدم القصر على استعداد لأن يصاحبوا السلطان في رحلته، وكانت السفن الواقفة على المرساة في المكلأ تشحن بالأمتعة والخيم، وعاجلاً أو آجلاً كان عثمان الثاني سينتقل إلى الضفة الآسيوية من

البوسفور، وفي الوقت نفسه كانت تدبر مؤامرة بغرض منع رحيل السلطان، وقد علم أحد خدم القصر بالمؤامرة، وهكذا نوه رئيس المنجمين في القصر محمد أفندي ـ الذي نبأ السلطان بعدم نجاح رحلته إلى الحج ـ لبعض الوجهاء من الذين كانوا يستعدون للرحيل أن هذه الاستعدادات لا تكاد تكون ذات فائدة، بعد قليل جاء أحد عبيد باكا باشا وأذاع عن المشاغبات التي حدثت في مسجد السليمانية، لقد روى أنه بالقرب من مقر الآغا الإنكشاري اجتمع حشد كبير من الإنكشاريين وسباهيي البلاط، وعلى ضوء الخطط المجربة أخذ الثائرون يطالبون باستقالة الأشخاص الذين لا يرغبون فيهم، وبعد أن لم يظفر المتمردون حتى بتأييد أكبر الأشخاص نفوذًا في البلاط وهو خجا السلطان عمير اجتمعوا في ساحة المدينة «آت ميدان»، ذهب إلى السلطان وفد من رجال الدين المسلمين من ضمن الموظفين والشيوخ الصوفية والسادات بخبر التمرد الذي نشب، فاستقبلهم السلطان بالتهديدات واتهمهم بالتحريض على التمرد، فرد العلماء على ذلك بطلب الامتناع عن السفر وأخذوا يستشهدون بالتقاليد وأن السلاطين العثمانين لم يقوموا قط بالحج إلى مكة، كما أعلن العلماء أنهم يرون مطالبة الإنكشاريين والسباهيين بمعاقبة الأشخاص المقربين من السلطان عادلة لكونهم «حرضوا» عثمان على أداء فريضة الحج، كان لدى العلماء هدفان وهما منع السلطان من السفر وإزالة أفراد الحاشية الذين «يؤثرون تأثيرًا سيئًا» على الحاكم، فاستأنفوا إقناعهم للسلطان بأن رؤوس المذنبين فقط هي التي ستهدىء من غيظ المتمردين، بيد أن حججهم لم تؤثر في السلطان الذي امتنع عن تسليم محبوبيه للجلادين، كانت تلك مخالفة سافرة وقد دفع عثمان على ذلك الثمن غاليًا.

اندفع حشد من الإنكشاريين والسباهيين إلى القصر وتوغلوا قسرًا إلى الأمكنة الداخلية، وهنا وجد المتمردون مصطفى عم عثمان الذي سبق أن تولى السلطة لفترة

قصيرة سنة١٦١٧ ، فأخذوه إلى المكان الذي تجري فيه اجتماعات الديوان السلطاني، أدى جيش البلاط قسمًا للسلطان المنصب على العرش من قبله كما أرغم الجنود شيخ الإسلام تحت تهديد السلاح بأن يفعل فعلهم فيحلف لمصطفى أيضًا، عند ذلك فقط أدرك السلطان خطأه، فسلم متأخرًا للمتمردين دلاور باشا ومحسوبه دار السعادات آغاسي الذين قطعهم المتمردون إربًا، دار السلطان الجديد مع أمه وحاضنته بالعَربَة المدينة كلها، وبعد ذلك أوصل السلطان إلى ثكنات الإنكشاريين حيث أنزلوه في مسجد الثكنات «أورتاجامع» ولم يسبق أن ألجأت الثكنات الإنكشارية لحمايتها السلطان صنيعة الإنكشاريين أنفسهم.

وفي صباح اليوم التالي امتلأت شوارع إستنبول بحشود من أهل المدينة من جديد، وكان «أورتا جامع» ـ حيث يمكث السلطان مصطفى ـ مليئًا بالإنكشاريين، ولما جاء إلى هناك الآغا الإنكشاري المعين من قبل عثمان الثاني وأخذ يقنع الإنكشاريين بالخضوع لسلطة الحاكم القانوني، قطعه المتمردون إربًا في الحال، كما لقى مصرعه على يد حشد المتمردين الوزير الأعظم الجديد، وبعد برهة وقع بأيدي المتمردين السلطان المخلوع عثمان، فدار به الإنكشاريون المدينة على فرس مسلوب من أحد السكان وأرغموه على ارتداء ملابس مبتذلة كالتي يرتديها عامة الناس، وكانت حشود من المتمردين تسير بالقرب من السلطان الأسبق وتوجه له الإهانات باستمرار، وهكذا انتقم الإنكشاريون من عثمان على محاولاته الإصلاحية.

أوصل الحاكم المخلوع إلى «أورتا جامع» حيث كان يمكث كبار ضباط الفيلق الإنكشاري، كان السلطان الجديد ومقربوه يتشاورون مع القمة العسكرية في قضية تعيين الوزير الأعظم الجديد فاتفقوا على تعيين داود باشا، وهنا في الجامع أنشأت نصوص المراسيم الأولى التي أصدرها مصطفى، كان مصطفى يتصرف بعصبية وخوف، وكلما كانت تطرق سمعه صيحات الحشود كان يسرع إلى النافذة ينظر

مذعوراً، وقد أشار عثمان ـ الذي رأى كل ما حدث ـ للحاضرين أن حاكماً ضعيفاً جباناً كهذا ليس جديراً بالجلوس على العرش، بيد أن كلامه لم يؤثر في أحد، بعد هذا أخذ عثمان يتوسل إلى الأغوات الإنكشاريين بأن يشفقوا عليه.

بعد برهة وجيزة أقبل إلى «أورتا جامع» الصدر الأعظم الجديد داود باشا وجبجي باشي والوهق في يده، فتوضح ماذا سيكون مصير السلطان المخلوع، بيد أن قذف الوهق على عثمان لم يكن بسهل ولم يجرؤ أحد على المساعدة في القبض عليه، وأخيراً جاءت عربة لأخذ عثمان فأوصلته إلى سجن «يدي كوله» حيث لقي السلطان المصلح حتفه.

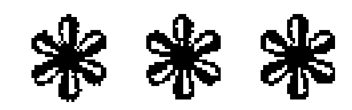
إن خلع الإنكشاريين للسلطان شهادة على نهاية طبيعية لسبيل التطور الذي سلكه الجيش على مدى المراحل السابقة من التاريخ العثماني، فقد تحول الإنكشاريون من السند الأول للسلطة العليا إلى قوة اجتماعية مستقلة مواجهة لها وغير قادرة على تنفيذ واجباتها العسكرية، أول مرة حدث في التاريخ العثماني أن الإنكشاريين تجرأوا على خلع السلطان الحاكم قانونيًا، وبالطبع كان يمكن أن يحدث ذلك في أشد الظروف حرجًا حين كان الخطر يهدد بقاء جيش البلاط، حدث كثيراً خلال التاريخ العثماني أن الإنكشاريين كانوا يتدخلون في قضايا النزاع بين أفراد الأسرة الحاكمة مؤيدين هذا أو ذاك، ولكن في مثل هذه الظروف لم يقع النزاع الداخلي بين سلطة السلطان والجيش الإنكشاري، ولم ينشب نزاع كهذا إلا في عهد السلطان الذي أدرك مدى انحلال جيش مشاة البلاط، وقد أوصل إلى هذه الأزمة سلسلة طويلة من التطور سواء داخل الفيلق الإنكشاري الذي تحول إلى نظام ذي ارتباطات اجتماعية متطورة وواسعة النطاق في كل طبقات المجتمع واكتسب بفضل هذا الثبات والاستقرار، أو تغير الوضع السياسي الخارجي في الدولة العثمانية التي

فقدت قوتها الحربية بسبب تزايد قوى البلدان الأوروبية على الصعيد الاقتصادي والعسكري.

باتت حملة عثمان الثاني على بولندا ـ التي اتخذها السلطان بغرض إعادة قوة السلطنة وعظمة الإمبراطورية العثمانية الغابرة على الصعيد العسكري والسياسي ـ خلافًا للمتوقع عاملاً صدفيًا أسهم في ظهور التناقض بين المنظمتين الاجتماعيتين وهما سلطة السلطان والجيش، وأصبحت وحدتهما الديالكتية السابقة في خبر كان، خلال فترة طويلة من الزمن كانت كلتا الجهتين لا تستغني إحداهما عن الأخرى ولا تتعدى حقوقها، أما فوز السلطة النهائي فلم يعد بحاجة إلى وجود تنظيم حربي خاص يشكل ثقلاً موازنًا للأشراف العسكريين الإقطاعيين، غدا الفيلق الإنكشاري في ذلك الوقت بالنسبة للسلاطين قوة حربية لا يستغنى عنها في خوض الحروب، ولكن في هذا المجال بالذات لم يعد الفيلق الإنكشاري يستجيب لواجباته، بعد أن تحول الفيلق الإنكشاري إلى المقاتلين المحترفين شكليًا فقط، واكتسب مصالحه الاقتصادية والسياسية الذاتية، لم يعد يرى أن خدمته للسلطان هو واجبه الوحيد والضروري، وقد عمقت أزمة السلطة المركزية هذا التناقض وأوصلته إلى درجة العداء.

في الربع الأول من القرن السابع عشر غدت فاعلية وجود الفيلق الإنكشاري من العوامل المخلّة في نظام الدولة عامة، واتجهت فاعلية الفيلق الإنكشاري وسعيه نحو بقائه ـ بصفته القوة الاجتماعية الوحيدة المنظمة والمسلحة على الدوام ـ بسبب مصالحه الأنانيّة التي دفعته إلى حفظ الأنظمة الاجتماعية لتحقيق هذه المصالح، من البديهي أن نضوج هذه القوة الرجعية في القرن السابع عشر ـ حين شهد المجتمع العثماني حركة تطورية زاهرة على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي ـ قد انعكست

على سير وتيرة التطور الاجتماعي في الدولة العثمانية بأكملها، وإذا أخذنا في الحسبان أن الفيلق الإنكشاري كان جزءاً هامًا من التنظيم العسكري العثماني، لا بد أن نعترف أن استحالة إصلاحه وتجديده خلقت ظروفاً مواتيه لحفظ غيره من التنظيمات العسكرية وركودها، وأن الحفاظ الطويل على الاتجاهات التقليدية القيمة المرتبطة مع الأهداف الإديولوجية للمجتمع التركي المزودة قليلاً ببعض العقائد الإسلامية- ، بالدرجة الأولى الاتجاه السياسي التوسعي- والحفاظ على الآلة الحربية القديمة بمظهرها البدائي مهد سبيلاً لسلسلة كاملة من الحروب المفلّسة مادياً، ومن جملة عواقبها الانهيار الاقتصادي، فإعالة الجيش المأجور وحده كانت تتسبب في إفلاس الخزينة باستمرار، وتخلق ظروفاً لتدهور النظام المالي في البلاد.



خاتمة ..

خاتمة

كان للفيلق الإنكشاري أثر مهمٌ في عملية تشكيل تنظيم الدولة العثمانية لكونه عنصرًا فاعلاً في تركيب النظام الحربي ـ السياسي والاجتماعي في الإمبراطورية العثمانية، وبعد أن كان في البداية بمنزلة الثقل الموازن الاجتماعي السياسي للقمة الحربية القبلية بغرض تعزيز السلطة العليا، صار مع تعزز نظام التيمار يكتسب أكثر فأكثر ملامح التنظيم العسكري البحت مبتعدًا على الدوام عن تنظيم السلطة العليا.

إن عملية الابتعاد هذه الجارية بالتوازي مع التطور المستقل في الفيلق الإنكشاري نفسه بوصفه بنية اجتماعية ـ سياسية ومنضمًا إلى العوامل السياسية الخارجية اكتسب في بداية القرن السابع عشر طابعًا مؤزمًا مؤديًاإلى الاصطدام السافر بين السلطة العليا وجيش البلاط المأجور، وبعد أن فقد الفيلق الإنكشاري في ذلك الوقت خصال القوة فوق الاجتماعية ـ وهذا ما كان يشدد عليه من مكانته الأولية ـ القوة التي باتت سلاحًا رئيسيًا بيد الحاكم العثماني في سير عملية تسوية المصالح الاجتماعية لدى مختلف فئات المجتمع، تحول إلى قوة اجتماعية مستقلة قادرة على أن تؤثر في تداول السلطة العليا نفسها، ولأجل إدراك طبيعة هذه القوة وكيف صارت في بداية القرن السابع عشر، لابد أن نأخذ العمليات السائرة في طيات الفيلق الإنكشاري نفسه، مثلها مثل عوامل التطور الاجتماعي الذي مر به المجتمع العثماني عامة. منذ البداية كان الإنكشاريون يمثلون قوة كثيرة العدد ومنظمة تنظيمًا جيدًا على ضوء واجباتها العسكرية، وتتمتع بمصالحها الطائفية الخاصة، والواقع أن الإنكشاريين كانوا جيشًا مأجورًا ـ بالإضافة إلى صور شاذة

لأجوره ـ يفسر نفسية الإنكشاريين التي تشكلت قبل كل شيء تحت تأثير مصالحهم المادية الميركانتيلية وكفاحهم المبكر في سبيل ضمان مصالحهم الاقتصادية.

بقي محافظًا على خصاله المحترفة، وغالبًا المنعزلة، حتى أواسط القرن السادس عشر أي عهد حكم سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤) ومنذ أواسط القرن السادس عشر ارتبط ذلك التنظيم ـ لعدة أسباب سنذكرها فيما بعد ـ بعلاقات كثيرة في المجتمع، فاكتسب كأي تنظيم مفتوح قوة واستقرارًا.

ومع بداية القرن السابع عشر فقد الفيلق الإنكشاري تمامًا خصاله المنعزلة التي ظهرت فيما سبق إثر نظام «ديوشيرمه» ومراعاة قواعد النظام الداخلي وعلى وجه الخصوص حظر الزواج، ولكن هذا لا يعني عدم وجود استثناءات، ففي عهد سليم الثاني لما أصيب الكثير من الإنكشاريين إثر المعارك بمختلف العاهات وفقدوا بذلك قدرتهم على تأدية الخدمة العسكرية، نالوا تصريحًا رسميًا يسمح لهم بالزواج، ومن الطبيعي أن أبناءهم ـ طبقًا لعادات القرون الوسطى وهي توريث المهنة ـ صاروا من ضمن الراغبين في التسجيل في الفيلق الإنكشاري مشكلين من أنفسهم تنظيمًا كثير العدد «كولوغو»، في مطلع القرن السابع عشر أصبح الزواج في الفيلق الإنكشاري حقًا للجميع حتى الأغلان العجم، وبسبب ظهور عدد لا بأس به من ال «الكوغولو» أزيح التجنيد رويدًا رويدًا إلى الفيلق بطريقة «ديوشيرمه»، كان عدد الكوغولو كبيرًا لدرجة أن الكثيرين منهم كانوا ينتظرون من أجل التحاقهم بالفيلق الإنكشاري سنوات، وذلك إبان اجتيازهم الخدمة في حاميات المحافظات، أدى حق الإنكشاريين الواقعي في الزواج وتسجيل أبنائهم في الفيلق الإنكشاري إلى توسع هائل للعلاقات الاجتماعية بين الإنكشاريين ومختلف طبقات المجتمع، خلقت إمكانية تسجيل أشخاص في الفيلق الإنكشاري غير مجندين بطريقة «ديوشيرمه» ظروفًا مواتية ليتسرب باستمرار إلى صفوف الإنكشاريين العناصر

المنفصلة عن طبقتها التي فارقت نشاطاتها الاجتماعية السابقة لسبب أو لآخر، وقد نعت الإنكشاريون أنفسهم أولئك الأشخاص المتسربين إلى صفوفهم بصورة غير قانونية بـ «صابلامه».

أدى تسرب هؤلاء ال«الصابلامه»ـ أو كما كانوا يسمونهم كذلك «أجنبي» (الغرباء) ـ إلى انحلال النظام في الجيش الإنكشاري ومخالفة قواعد السلوك غير المدونة، ومن الجدير بالاهتمام أنه عند ظهور التشويش الداخلي في الفيلق كان الإنكشاريون يتّهمون في ذلك «الغرباء» لكونهم لا يحترمون عادات الحياة الداخلية في الفيلق، ومن المعلوم أنه عند الانطلاق إلى الحملة في تموز عام ١٥٨٩ كان الإنكشاريون يتذمرون على قادتهم «الغرباء» الذين لا يلتزمون القوانين القديمة، كما كان لهذه الظاهرة خطر على الجيش الإنكشاري؛ لأن جواز تسجيل الأشخاص هؤلاء خلافًا لنظام (ديو شيرمه) كان يفسد الضباط أخلاقيًا لكونهم مستعدين أن يدخلوا إلى عداد الإنكشاريين أي شخص يريد ذلك مقابل رشوة، ولأجل أن يكون ذلك ممكنًا كان لا بد من وجود الوظائف الشاغرة على الأقل التي كانت متوافرة دومًا بسبب كثرة الوفيات بين الأغلان العجم والإنكشاريين، من جملة عواقب هذه الظاهرة التزايد المستمر لعدد الجيش الإنكشاري، وذلك لأن الكتاب الإنكشاريين وغيرهم من موظفي الفيلق غالبًا ما كانوا يسجلون في الدفاتر أسماء الأشخاص الراغبين في الالتحاق بالجيش ويقبضون عنهم الأجور، وقد مهد ذلك سبيلاً لتغير البنية العرقية في الفيلق الإنكشاري الذي كان يتترك أكثر فأكثر إذ إن السكان الأتراك هم الذين يسعون أكثر من غيرهم نحو الالتحاق بجيش البلاط لأجل الحفاظ على الامتيازات والسمعة الاجتماعية العالية، كان ظهور ممثلي العرق السائد في صفوف الإنكشاريين يغير البيئة النفسية للجيش المكون في السابق من الأشخاص المعتنقين الإسلام الفاقدين أصولهم الجنسية والدينية والثقافية مما أسبغ طبيعة شاذة لهذه

الطائفة العسكرية، وهذا ما كان يساعد في البداية على وجوده كقوة خاصة «غير اجتماعية»، وتجدر الإشارة إلى أن «الأتراك» ـ أو كما نعتتهم طبقة المثقفين من المجتمع العثماني «الفلاحون ـ كانوا ـ برأي القمة البيروقراطية ـ غير صالحين لدور حرس العاصمة إذ إنهم يزرعون في نفس الجيش الروح الفلاحية التركية.

تميز النصف الثاني من القرن السادس عشر ـ بخصوص الفيلق الإنكشاري ـ بانتشار جذب الإنكشاريين إلى أعمال تتعارض مع واجباتهم العسكرية، فقد تدفق الإنكشاريون إلى مجال الصناعة والتجارة والمضاربة، ومع حلول القرن السابع عشر كان الكثير من الإنكشاريين يمارسون حرفة ما، وفي إستنبول كان أغلب الإنكشاريين والسباهيين والجبجية والطوبجية والعربجية يعملون بالتجارة الصغيرة، وفي المحافظات كان الإنكشاريون يعملون على نطاق واسع في الشراء وإعادة البيع، كما تشهد الوثائق التركية أن الإنكشاريين في مدن المحافظات ـ حيث كانوا مرابطين ـ عملوا في بيع الأطعمة والجزارة، وصنع الخبز، وإن أسباب، انجذاب الإنكشاريين إلى الأعمال الاقتصادية في النصف الثاني من القرن السادس عشر هي إما سوء الحالة المعيشية لدى أغلبية الإنكشاريين العاديين الذين كان عليهم إطعام عيالهم من أجورهم المنخفضة بسبب انخفاض سعر الآقجة وارتفاع أسعار الأغذية في الربع الأخير من القرن السادس عشر، وإما الرغبة في استخدام المنزلة الاجتماعية ذات الامتيازات بغرض الاغتناء، ومن المعلوم أنه ليس كل الإنكشاريين كانوا يعانون من فقر مدقع، ومن البديهي أن التفاوت الطبقي قد شمل المجتمع كله بما فيه الإنكشاريون الذين كانت من ضمنهم فئات يتمتع أفرادها بدخول عالية نسبيًا، كان الكثير من الإنكشاريين لتعاملهم المستمر مع المال يدخرون مبالغ لا يستهان بها. عمل الكثير من الإنكشاريين الأثرياء بالمراباة، فيرابون بالأموال التي جمعوها من حلال أو حرام، الأمر الذي يجعل رأسمالهم ينمو ويزداد، ثمة كثير

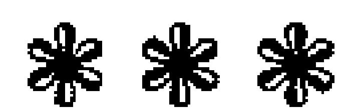
من أمثلة الارتشاء في الفيلق بأسره، طولاً وعرضًا، حتى الآغا الإنكشاري كان يأخذ رشوات عند ترقي الضباط في رتبهم، وعند إجراء التجنيد ديوشيرمه، كان الآغا يسند ذلك العمل إلى الضباط ويأخذ منهم مبالغ هائلة من المال، أما الضباط فكانوا بدورهم يأخذون معهم إلى التجنيد الإنكشاريين ويأخذون من كلٍّ منهم ثلاثة أو أربعة آلاف آقجه، وكانت المبالغ المدفوعة يعوض عنها عند إجراء التجنيد حين تظهر مجالات واسعة للاختلاسات، كما كان هنالك مجال واسع لمختلف أنواع البلطجة لدى الخدمة الإنكشارية «يسقجي» التي تقوم بحراسة الأماكن العامة في استنبول والمحافظات، كانت لدى الضباط الإنكشاريين مجالات واسعة للثراء، فقد كانوا يستغلون حقهم في رفع الأجور للإنكشاريين الجنود، والترقي في المناصب، وعند تسجيل الأغلان العجم والقوغولو الذين خدموا فترة معينة في الفيلق، وعند الإعفاء من المشاركة في الحملات، والتعيين في المناصب التي لا تشترط تأدية الخدمة العسكرية، كانت رشوة هيئة الضباط تؤثر بصورة مباشرة في انحلال النظام في الجيش الإنكشاري إذ كان أغلبية الإنكشاريين لا يرون في ضباطهم قادة محترمين يؤدون خدمتهم بلا عيب، بل يرونهم دُمىً يحركها مرؤوسوهم كما يشاؤون.

إن هذه الاستهانة السافرة بالواجبات العسكرية غدت جديرة بالإنكشاريين منذ النصف الأخير من القرن السادس عشر، فبسبب انشغال الجميع إما بالكسب الإضافي، وإما بتحسين الحالة المعيشية لعيالهم، كان الإنكشاريون يفقدون شيئًا فشيئًا خبرتهم القتالية لامتناعهم عن القيام بالتدريبات العسكرية المستمرة، لقد أثر التلهي عن الواجبات الأساسية تأثيرًا مهلكًا في القدرة القتالية لدى الجيش الإنكشاري عامة، كما أدى إلى الاشمئزاز من اتخاذ الأعمال العسكرية حرفة.

وبما أن الإنكشاريين كانوا معنيين فقط برفع أجورهم ودخولهم، وبصفتهم قوة اجتماعية منظمة ومسلحة في المجتمع، كان بمقدورهم الكفاح بقوة في سبيل مصالحهم المادية، ولما مني الإنكشاريون بعواقب الأزمة المالية ـ التي حلت على البلاد في النصف الأخير من القرن السادس عشر ـ وعواقب تضخم العملة، تحولوا إلى أكثر العناصر الاجتماعية اضطرابًا وخطرًا يلجؤون إلى التمرد في كل مرة كانت حقوقهم الاقتصادية يعبث بها، إن تمرد الإنكشاريين وعدم انضباطهم في أثناء الحملات وتحاشيهم الخدمة وقلة فاعليتهم القتالية وازدياد خطرهم بسبب عدم وجود التنظيم والمراقبة عند تسجيل الجدد في الفيلق من عداد الكوغولو أو الأغلان العجم، أو الدخلاء، وازدياد نفقات الحكومة على إعالة الفيلق، وكل هذا في ظل الهزائم الحربية ـ السياسية التي منيت بها الإمبراطورية العثمانية في نهاية القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر، أدت إلى إجراء محاولة الإصلاح العسكري الأولى التي قام بها السلطان عثمان الثاني، وكما ورد آنفًا انتهت هذه المحاولة بالإخفاق وأسفرت عن ازدياد الجيش المأجور قوة واستقلالاً عن السلطة العليا، في مطلع القرن السابع عشر تحولت الفئة الإنكشارية المرتشية والمتهمة فقط ببقائها وغير المتجانسة من الناحية المادية إلى قوة غير خاضعة للقيادة، قادرة على أن تفرض شروطها على الباب العالي والسلطان، لقد تحول الجيش الإنكشاري من سلاح قوي بيد سلطة الحكام العثمانيين إلى قوة كان إسنادها عاملاً حاسمًا لوضع مختلف خطط السياسة الداخلية والخارجية، إن استعمال هذه القوة وسيلة في الصراع على السلطة من طائفة معينة ضمن الأسرة الحاكمة غدا منتشرًا ونشيطًا ما أدى بصورة حتمية إلى إضعاف سلطة السلطان.

لقد تحول الفيلق الإنكشاري لفترة طويلة إلى عامل معوِّق للتطور السياسي الداخلي في الدولة العثمانية والمحافظ على الأنظمة القديمة، وفي مطلع القرن

السابع عشر لما أدرك الجيش قوته، صار بمقدوره أن يولّي على العرش السلطان الذي يرتضيه دون تعويق، مقيداً أيديهم عن الأفعال التقدمية، إلى جانب ذلك كان ازدياد جيش البلاط قوة مخلاً للتوازن الاجتماعي مزيحًا إلى الخلف الطبقة التيمارية ذات النفوذ السياسي الكبير في الماضي، كان تطور العمليات الاقتصادية في المجتمع يشير بوضوح إلى نمو طبقة الأغنياء والنبلاء في عداد بيروقراطية الحاشية، وانخفاض الأهمية السياسية لدى الطبقة الإقطاعية الخادمة، وبعد أن كان الفيلق الإنكشاري في البداية منظمة اجتماعية بيد السلطة العليا، صار مع بداية القرن السابع عشر أداة في النزاع على السلطة بين النخبة في البلاط، ثم بيد طبقة العلماء، نظراً لنزعتهم الرجعية التي كانت ترضي كثيراً الفيلق الإنكشاري المعني بثبات مكانته في المجتمع واستقرارها.



المصـــادر..

المصادر

١ - باللغة الروسية والبلغارية

>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>

ص١ من المصادر المكتوبة باللغة الروسية

>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>>

ص٢ من المصادر المكتوبة باللغة الروسية

ص٣ من المصادر المكتوبة باللغة الروسية

٢ - باللغات الأوروبية الغربية

Alderson A. D. The Structure of the Ottoman Dynasty. Oxford. 1956.

Atasoy N. Martakçi's Representation of the Seven-Towered Topkap1 Palace. - Fifth International Congress of Turkish Art (ed. G. Fehér). Budapest, 1978.

Barkan Ö. L. The Price Revolution of the Sixteenth Century: A Turning Point in the Economic History of the Near East. - International Journal of Middle East Studies. 1975, vol. 6, pt. 1, January.

Beldiceanu N. {Peu. Ha:} Babinger Fr. Mehmed the Conqueror and his Time. Princeton, 1978. - Turcical. Louvain - Paris - Strasbourg. 1979, t. 11.

Beldiceanu N., Beldiceanu-Steinherr I. Riziculture dans l'Empire Ottoman (XIV-XVe siécle).- Turcica. Paris - Strasbourg, 1978, t. 9/2-10.

Belin M. Essais sur I'histoire économique de la Turquie, d'aprés les écrivains originaux.-Journal Asiatique. Sér. 6. T. 3. Mai-Juin, 1864' T. 4. Août-Septembre, 1864.

Cahen C. Note sur l'esclavage musulman et le devshirme Ottoman, á propos de travaux récents. - Journal of the Economic and Social History of the Orient. 1970, vol. 13, pt. 1, January.

Cahen C. Pre-Ottoman Turkey. London, 1968.{Chalcondyle}. Histoire generale des Turcs. t. 1-2, Paris, 1662.

Cvetkowa B. Les Celep et heur Róle dans la vie économique des Balkans a Cvetkowa B. Les Celep et leur Róle dans la vie économique de Balkans a l'époque Ottoman (XVr-XVIIIe s.). - Studies in the Economic History of the Middle East. Ed. M. A. Cook. London, 1970.

Djevad bey A. Etat militaire Ottoman depuis le fondation de l'Empire jusqu'á nos jours. T. I. Livre 1: Le corps des Janissaires depuis sa creation nos jours. T. 1> Livre 1: Le corps des Janissaires depuis sa creation jusqu'á sa suppression. Tr. G. Macrides. Constantinople - Paris, 1882.

Ergil. Class Relations. - Ergil D. Class Relations and Turkish Transformation. - Studia Islamica. Paris, 1974, t. 39.

Ergil D., Rhodes R. Western Capitalism and the Disintegration of the Ottoman Empire. - Economy and History. Lund. 1975, vol. 18, No 1.

Faroqhi S. Rural Society in Anatolia and the Balkans during the Sixteenth Century. I. - Turcica. Paris - Strasbourg, 1977, t. 9/1.

Faroqhi S. Rural Society in Anatolia and the Balkans during the Sixteenth Century. II. - Turcica. Louvain - Paris - Strasbourg, 1979, t. 11.

Faroqhi S. Sixteenth Century Periodic Markets in Various Antolian Sancaks Içel, Haid, Karahisar-I Sahib, Kütahya, Aydin and Mentese. - Journal of the Economic and Social History of the Orient. 1979, vol.

22, pt. 1, January.

{Galland A.}. Journal d'Antoine Galland, pendant son séjour á Constantinople (1672-1673), publié et annoté et annoté par Ch. Schefer. T. 1. Paris, 1881.

Georgieva Cv. Organisation et fonctions du corps des janissaires dans les terres bulgares du XVIe jusqu'au milieu du XVIII siécles. - Etudes historiques. T. 5. Sofia, 1970.

Gerber H. The Monetary System of the Ottoman Empire. - Journal of the Economic and social History of the Orient. 1982, vol. 25, pt. 3, October.

Gibb H. A. R., Bowen H. Islamic Society and the West. Vol. 1. Pt. 1. London - New York - Toronto, 1950; vol. 1. Pt. 2. London - New York - Toronto, 1957.

Hammer J. Histoire de l'Empire Ottoman, tt. 1-18, Paris, 1835-1843.

Hütteroth W. D. The Pattern of Rural Settlement in the 16th Century Anatolia and its Decline. - Proceedings of the 27th International Congress of Orientalists. Wiesbaden, 1971.

Imber C. H. The Persecution of the Ottoman Shi'ites according to the Mühimme Defterleri" 1565-1585.-Der Islam. Berlin, 1979. Bd. 56. Heft 2, Juli.

Inalcik H. The Hub of the City: The Bedestan of Istanbul. - International Journal of Turkish Studies Madison, Winter 1979-80, vol. 1. No 1.

Inalcik H. The Nature of Traditional Society: Turkey - Political Modernization in Japan and Turkey. Ed. R. E. Ward, D. A. Rustow. Princeton, 1964.

Inalcik H. Ottoman economic Mind. - Studies in the Economic History of the Middle East. Ed. M. A. Cook. London, 1970.

Inalcik H. Ottoman Methods of Conquest. - Studia Islamica. Paris, 1954, vol. 2.

Inalcik H. Servile Labor in the Ottoman Empire. - The Muttal Effects of the Islamic and Judeo-Christian Worlds: The East Europeans Pattern. New York, 1979.

Iorga N., Geschichte des Osmanischen Reicnes, t. 1-5, Gotha, 1808.

Káldy-Nogy Gy. The First Centuries of the Ottoman Military Organization. - Acta Orientalia Academiae Scientarum Hungaricae. Budapest, 1977, t. 31, fasc.2.

Lewis B. Some Reflections on the Decline of the Ottoman Empire. - Studia Islamica. Paris, 1958, vol. 9.

Lewis B. Istanbul and the Civilization of the Ottoman Empire Norman University of Oklahoma Press, 1963.

Lewis B. Ottoman Land Tenure and Taxation in Syria. - Studia Islamica. Paris, 1979, vol. 50.

Melunet Mustafa. De certains aspects de la société ottomane á la lumiére de la législation (Kanunnamé) du sultan Mahomet II (1451-1481). - Studia et Acta Orientalia. Bucarest, 1960, 2.

Melikoff-Sayar I. Le Destan d'Umur Pacha (Düsturname-i Enveri): Text, traduction et notes. Paris, 1954.

Mutafcieva V. P. De l'exploitation féodale dans les terres de population bulgare sous la domination turque au XV et XVI s, - Etudes historiques á l'occasion du XIe Congrés International des sciences historiques. Sofia, 1960.

Mutaf˜cieva V. P. Sur l'état du systéme des timars au cours de la premiére décade du XVIIe s., d'aprés les yoklamas datants de 1014 et 1016 de l'Hégire (1605-1606 A.D.). - Sur l'état du systéme des timars de s XVIIe-XVIIIe ss. (V. P. Mutafcieva, Str. A. Dimitrov). Sofia, 1968.

D'Ohsson M. I., Tablean général de l'Empire Ottoman, Vol. 1-7, Paris, 1788-1824.

Papoulia B. D. Ursprung und Wesen der "Knabenlese" in Osmanischen Reich. Milnchen, 1963.

Petrsch W. Die türkischen Handschriften der herzoglischen Bibliothek zu Gotha. Wien, 1864.

Petrosjan Irina E. The Mabda-i kanun yeniçeri oca˜gl tarihi on the System of Devsirme. - Between the Danube and the Caucasus, Budapest, 1987.

Röhrborn K. Untersuchungen zur osmanischen Verwaltungsgeschichte. Berlin - New York, 1973.

Sahillio˜glu H. Ottoman Book Legacies. - The Islamic Quarterly. A Review of Islamic Culture. London, 1975, vol. 19, No 3-4, July-December.

Sahillio˜glu H. Sivis Year Crises in the Orroman Empire. - Studies in the Economic History of the Middle East Ed. M. A. Cook. London, 1970.

Schweizer G. Die Janitscharen, 2 Antgabe, Salzbury, 1984.

Shaw St. J. History of the Ottoman Empire and Modern Turkey. Vol. I. Empire of the Gazis: The Rise and Decline of the Ottoman Empire, 1280-1808. Cambridge - London - New York - Melburn, 1976.

Tietze A. Mustafa 'Ãli's Counsel for Sultans of 1581. Edition, Translation, notes, Pt. 1-2. Wien, 1979-1982.

Tournefort M. P. Relation d'un voyage du Levant. T. 2.

٢ - باللغة التركية

Akdag M. Celali isyanlan (1550-1603). Ankara, 1963.

Akdag M. Genel Cizgileriyle XVII yuzyil Turkiye tarihi. - Tarih Arastirmalari Dergisi. 1966. Ankara. 1968, cilt 4, No 6-7.

Akdag M. Osmanli Imparatorlugunun yukselisi devrinde esas duzen. - Tarih Arastirmalari Dergisi. 1965. Ankara, 1976, cilt 3, No 4-5.

Barkan O. L. XVI yuzyilin ikinci yarismda Turkiyede fiyat hareketleri. - Belleten. 1970, cilt 34, sayi 136.

Barkan O. L. XV-XVI-inci asirlarda Osmanli Imparatorlugunda zirai ekonomini hukuki ve mali esaslari, cilt 1. Kanunlar. Istanbul, 1945.

Barkan O. L. Osmanli Imparatorlugunda cifici siniflarin hukuki statusu. - Ulku, 1937, No 49-50, 53, 56, 58-59.

Blaskovic Yu. Koprulu Mehmed Pasanin macarca bir ahdnamesi. - Turkiyat Mecmuasi. 1968. Istanbul, 1969, cilt 15.

Ercan I. Devsirme sorunu, "Belleten", t. 50, No 198, Ankara, 1987.

Ozkaya Y. Osmanli Imparatorlugunda ayanlik. Ankara, 1978.

Ulucay C. (18 ve 19 yuzyillarda) Saruhanda eskiya ve halk hareketieri. Istanbul, 1955.

Uzuncarsili I. H Osmanli devletinin ilmiye teskilau. Ankara. 1965.

Uzuncarsili I. H Osmanli devleti teskilatindan kapukula ocaklari. Cilt I. Acemi ocagi ve yeniceri ocagi. Ankara, 1943.

Uzuncarsili I. H Osmanli devletinin saray teskilati. Ankara, 1945.

Uzuncarsili I. H Osmanli Tarihi. Cilt 1.Ankara, 1947.

Uzuncarsili I. H Osmanli Tarihi. Cilt 1. 2 baski. Ankara, 1961.

Uzuncarsili I. H Osmanli Tarihi. Cilt 2. Ankara, 1949.

Uzuncarsili I. H Osmanli Tarihi. Cilt 2. 2 baski. Ankara. 1964.

Uzuncarsili I. H Osmanli Tarihi. Cilt 3, bolum 1. Ankara, 1951.

Uzuncarsili I. H Osmanli Tarihi. Cilt 3, kisim 2. Ankara, 1954.

Yucel Y. Osmanli Imparatorlugunda desantralizasyona (Adem-i merkeziyet) dair genel gozlemler. - Belleten. Ankara, 1974, cilt 38, Ekim 1974, sayi 152.

Zambaur E. V. Kurus. - Islam Ansiklopedisi. Istanbul, 1950, c. 5, kisim 2.

٤ - المخطوطات ونشر المخطوطات والتراجم

Asikpasazade. Tevarikh-i Al-i 'Osman. Istanbul, A. H. 1332.

Abdurrahman at-Tavfi'i. Kavanin-i devletin ehemmi ve destur al-'amelin elzemi. Nusha C 804 (St. Petersbury Dogu Arastur-malari Enstitusunun Kolekiyonu).

Konun-i Al-i 'Osman. Nusha B 2422 (St. Petersbury Dogu Arastirma-lari Enstitusunun Koleksiyonu).

Ayni Ali. Kanunname-i Al-i Osman. Ankara, 1962.

Ibn Kemal. Tevarih-i Al-i Osman. Defter 7. Ankara, 1954.

Katib Celebi. Destur al-'amel fi islah al-khalel. Nusha A 320 (St. Petersburg Dogu Arastirmalari Enstitusunun Koleksiyonu).

Lutfi Pasa. Tevarikh-i Al-i 'Osman. (Viyana Milli Kutuphanesinin nushasi).

Mebde-i kanun-i yeniceri ocagi tarihidir. Nusha A 249 (St. Petersburg Dogu Arastirmalari Enstitusunun Koleksiyonu).

Mustafa 'Ali. Kunh al-akhbar. (Viyana Milli Kutuphanesinin nushasi).

Na 'ima. Ta'rih. Cild 2 Istanbul, A.H. 1283.

Mas ihat al-muluk. Nusha C 2339 (St. Petersburg Dogu Arastirmalari Enstitusunun Koleksiyonu).

Nesri. Kitab-i Cihan-Numa. Ankara, 1949.

Pecevi Ibrahim. Ta'rih. Cild 1-2. Istanbul, A.H. 1282-1283.

Sa'deddin. Tac at-tevarih. Cild 1. Nusha C 535 (St. Petersburg Dogu Arastirmalari Enstitusunun Koleksiyonu).

Seluniki. Ta'rih. Nusha C 565 (St. Petersburg Dogu Arastirmalari Enstitusunun Koleksiyonu).

Beucu. Xao-hame ....

Huseyn Hezarfenn. Telkhis al-beyan fi kavanin-i Al-i 'Osman. Nusha D 217- 1 (St. Petersburg Dogu Arastirmalari Enstitusunun Koleksiyonu).

Xioceuh. ....

IIIapa..........

Sukrullah. Mahbub-i qulub al-'arifin. Nusha C 567 (St. Petersburg Dogu Arastirmalari Enstitusunun Koleksiyonu).

....

Evliya Celebi. Seyahatname. Cild 1. Istanbul. A.H. 1314.

{Evliya Efendi}. Narrative f Travels in Europe and Africa in the seventeenth Centur by Evliy Efendi. Transl. from Turkish by Ritter Efendi. Transl. From Turkish by Ritte Joseph von Hammer. T. I. London. 1834.

Naima. Annals of the Turkish Empire, from 1591 to 1659 of the Christian Era. Transl. from Turkish by Charles Fraser. Vol. 1. london, 1832.

Sami S. Kamus al-a'lam. Istanbul. A.H 1306-1312.

Sami S. Kamus-i Turki Der Sa'adet. Istanbul. A.H. 1317.

History of the War in Bosnia (transl. by ch. Fraser). London, 1830.

الفهرس

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
ص.ب ٥٥١٥٦ - دبي - الإمارات العربية المتحدة
هاتف ٢٦٢٤٩٩٩ ٤ ٩٧١ + - فاكس ٢٦٩٦٩٥٠ ٤ ٩٧١ +
E-mail: info@almajidcenter.org - www.almajidcenter.org